أدهم شرقاوي

" قس بن ساعدة "

لِلرِّجالِ فقط!

مبادئ للتعامل مع النساء





للرِّجَالِ فقط !

مباديء للتعامل مع النساء

- للرِّجَالِ فقط !/ مبادىء للتعامل مع النساء
- أدهم شرقاوي
- دار كلمات للنشر والتوزيع
- الطبعة الأولى ٢٠١٨

دولة الكويت / محافظة العاصمة

تلفون : ٠٠٩٦٥٩٩١١٩٩٣٤

تويتر : @Dar_kalemat

إنستجرام : Dar_kalemat

بريد إلكتروني :

Dar_Kalemat@hotmail.com

info@darkalemat.com

الموقع الإلكتروني :

http://www.darkalemat.com

للرِّجَالِ فقط !

مبادىء للتعامل مع النساء

أدهم شرقاوي

٢٠١٨



قال رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم :
«استوصُوا بالنِّسَاءِ خيراً»

الإهداء

إلى الرَّجالِ الذين إذا عاهَدُوا لم يغدِرُوا
لأنهم يعرِفُون أن «العَهْدَ كان مسْؤُولاً»
وإذا أعطُوا ميثاقاً لم ينقُضُوا
لأنهم يعرِفُون أنه «ميثاقاً غليظاً»
وإذا أَخذُوا قلباً لم يعبَثُوا
لأنهم يعرِفُون أنّ اللهَ أمرَ أن نُؤدي الأماناتِ إلى أهلها

أنتَ من ترا ب... هي منك!

هل سـألـتَ نفـسكَ مـرةً ، لماذا تتكلمُ النسـاءُ أكـثـر منا نحن الرجال؟

أو لماذا هُنّ أكثر انفعالاً منا تجاه المواقف والأحداث؟

أو لماذا لا يجذبهنّ الحديث في السياسة والاقتصاد؟

أو لماذا هُنّ أكثر رومانسية منا؟

أو لماذا هُنّ شغوفات بالتفاصيل الصغيرة؟

أو لماذا لديهنّ اهتمام بالآخرين أكثر منا نحن الرجال؟

أو لماذا تبدو مواقفهنَّ أحياناً عاطفية لا عقلانية؟

أو لماذا يرغبنَ بالخروج من المنزل أكثر منا؟

أو لماذا هُنّ حساسات زيادة عنا؟

أو لماذا يستغرقنَ وقتاً أطول منا لتجهيز أنفسهنَّ إذا أردنا الخروج معاً؟

أو لماذا هُنَّ غير دقيقات في مواعيدهنّ غالباً؟

ربما لم تسأل نفسك عن السبب

أو لعلك انتبهتَ الآن فقط أنّ هذه الفوارق موجودة فعلاً ولم تكن تلقي لها بالاً من قبل ، رغم أنك تعايشها كل يوم ، وعلى سيرة كل يوم دعني أسألك :

ألم يحدث مرةً أن أهمّكَ أمر وأشغلكَ فجلستَ منكفئاً على نفسكَ تُقلِّبُ الأمور وتستعرضها باحثاً عن حل وجاءت هي تريدك أن تتكلم وتخبرها بما يجول في خاطرك وفي تلك اللحظة لو خيروك بين الكلام وتسلق قمة افريست لاخترتَ أن تتسلقَ قمة افريست على أن تتكلم؟!

ألم يحدث مرةً أن شاهدتما فيلماً معاً فبكتْ هي لموت أحد البطلين ، أو ابتهجت لعناق كان بينهما ، بينما أنتَ لم تبكِ ولم تبتهج؟!

ألم يحدث مرةً في سهرة عائلية كان الحديث في السياسة والاقتصاد وكرة القدم فرأيتَ في وجوه النساء ملامح عدم الاكتراث ، ثم لما صار الحديث عن عرس فلانة ، أو تخفيضات في أحد المحال التجارية في السوق ، أو عن الألوان الدارجة هذا العام ، دبَّتْ الروح فيهنّ مجدداً؟!

ألم يحدث مرةً أن مرتْ مناسبة تتعلق بك ولم تحضر لكَ فيها هدية فلم تُلقِ للأمر بالاً ، بينما لما نسيتَ مناسبة تتعلقُ بها بدتْ في قمة تبرمها وربما عاتبتكَ؟!

ألم يحدث مرةً أن ذهبتَ إلى عشاءٍ من دونها ثمّ لما عُدتَ تفاجأتَ أنها تسألكَ عن تفاصيل لم يخطر ببالك أن تنتبه لها ، أنتَ لا تتذكر لون «الشرشف» على طاولة الطعام هذا إذا تذكرتَ أساساً أنه كان هناك شرشف! وحتماً كنتَ تأكل ولم تتوقع أن تسألك إن كانت الصحون متناسقة ، وإن سألتكَ عن أكواب العصير ستتفاجأ أنك لا تتذكر سوى العصير! حتى ملابس أصدقائك وأحذيتهم

وساعاتهم لم تلاحظها كلها ، أقسمُ لكَ أنها لو كانت مكانك لأخبرتكَ بكل هذه الأشياء التي سألتكَ عنها وتلكَ التي لم تسألكَ عنها!

ألم يحدث مرةً أن حدثتها عن مشكلة أحد أصدقائك فعادتْ بعد مدة لتسألك ما الذي حدث في تلك المشكلة؟!

ألم يحدث مرةً أن مرتْ بكما مشكلة فتفاجأت بموقفها الحاد ، ورحتَ تسأل نفسكَ هذه العاقلة المثقفة المتدينة كيف يمكن لها أن يكون موقفها عاطفياً إلى هذا الحد ، هذه التي تحسب كل شيء بدقة لماذا تبدو الآن كمراهقة في السادسة عشرة؟!

ألم يحدث مرة أن أخبرتها أنك ستصطحبها إلى مطعم ، أو حفل زفاف ، أو زيارة قريب ، ثم ألغيتَ هذه الفكرة فرأيتَ ردة فعلها حادة جداً لدرجة أنك سألتَ نفسك : ما المهم في الأمر إنه مجرد مشوار لم يتم؟!

ألم يحدث مرة أنكما أردتما الخروج معاً ، فاستغرقتْ هي وقتاً لتتجهزْ بإمكانك أنتَ في هذا الوقت أن ترتدي ثيابك كلها وتخلعها؟! وكنتَ أنتَ تتذمر خشية أن تتأخرا بينما لم يعنِ لها الوقت بالقدر الذي عناه لك؟!

لا شك أنك تقول في نفسك : نعم لقد حدث هذا فعلاً! ولربما تسأل كيف عرفتُ أن هذه الأمور قد حدثتْ معك؟! في الحقيقة هذه الأمور حدثتْ معي أيضاً ، ومع صديقك ، ومع جارك ، ومع رجالٍ لا تعرفهم في بلدانٍ أخرى!

النساءُ هُنَّ النساء يا صديقي مهما اختلفتْ ثقافاتهنّ

ومستوياتهنّ الاقتصادية ومجتمعاتهنّ ، ثمة شيء مشترك بين كل المنضويات تحت لواء الأنوثة!

وما ينطبق عليهنّ ينطبق علينا نحن الرجال كذلك فثمة قاسم مشترك بيننا جميعاً ، وإن شئت قل مجموعة من الطباع توجد في كل منا وإن تفاوتت من رجل إلى آخر!

الحقيقة التي عليكَ أن تدركها أن النساء مختلفات عنَّا ، في طبيعتهن ، في طريقة التعبير عن مشاعرهن ، في اهتمامهن ، في الأشياء التي يجدن فيها تسلية ، أو في تلك الأشياء التي تسبب لهنّ ضجراً .

المشاكل تقع بين الرجل والمرأة بسبب عدم فهم طبيعة الرجل للمرأة ، وعدم فهم المرأة لطبيعة الرجل!

نحن نريد أن تتفاعل النساء مع حدث ما كما نتفاعل معه ، أن يشعرن كما نشعر ، وأن يأخذن بعض الأمور ببساطة كما نأخذها ، وأن يأخذن بعض الأمور الأخرى بمزيد من الاهتمام كما نفعل!

بالمقابل هُنّ يردن منا الأمر نفسه ، أن نشعر مثلهن ، ونتفاعل مثلهنّ ، ونأخذ بعض الأمور بعدم الاكتراث كما يفعلن ، أو نولي شيئاً ما مزيداً من الاهتمام كما هي الحال لديهن!

ينتظر الرجل من المرأة أن تكون نسخة عن تفكيره وإحساسه
وتنتظر المرأة من الرجل الشيء نفسه
وهذا أمر يستحيل أن يكون!

قـد تسـأل : مـا الحل إذاً؟ ألا ترى أنك قـد أوصلتنا إلى طريق مسدود؟

أقول لك : على العكس تماماً ، الحل أن نتفهم هذا الاختلاف ، ونتصرف على أساسه ، فنثري العلاقة بدل أن نكسرها! فالحب شيء جميل ، وأجمل أرضية وأصلبها تجمع رجلاً وامرأة معاً ، ولكن الحب وحده لا يكفي لإنجاح هذه العلاقة ، والسبب أن الحب الذي ينشأ وبين الطرفين اختلاف سيكون على المحك إذا ما اجتمع الرجل والمرأة تحت سقف واحد ، فالحب كما ولد قابل لأن يموت ، وبالمقابل هو قابل لأن ينمو ويستمر ، بل قد يغدو كل يوم أكبر من اليوم الذي قبله ، إذا عرفنا كيف نرعاه ونهتم به ، وهذا شيء يستحيل أن يتم إذا لم نقر بحقيقة الاختلاف بين الجنسين أولاً ، وبمراعاة هذا الاختلاف أثناء تعاملنا اليومي ثانياً!

ولعلَّ سؤالاً مشروعاً قد يتبادر إلى ذهنك وأنتَ تقرأ هذا الكلام ، فتسأل : كيف نشأ هذا الاختلاف؟

تولد البنتُ والولد في بيتٍ واحد ، يتلقيان التربية ذاتها ، ويعيشان في مستوى اقتصادي واحد ، يعتنقان ديناً واحداً ، يخضعان للعادات والتقاليد نفسها ، ثم إذا كبر كل منهما ، التحقت البنتُ بركب النساء ، والتحقَ الولد بركب الرجال ، وصار من الممكن ملاحظة الفروق في الاحساس ، والاهتمام ، وطريقة التفكير ، وطريقة التعبير .

في الحقيقة لا التربية ، ولا الثقافة ، ولا الدين ، ولا المستوى الاقتصادي ، ولا طبيعة المجتمع ، ولا العادات والتقاليد هي المسؤولة عن الاختلاف بين الرجل والمرأة وإن كانت كل هذه الأشياء تؤثر في بناء الشخصية لا شك ، إنّ منبع الاختلاف كامن فينا منذ الولادة ، هكذا نولد مختلفين دون أن نختار ، ونفكر ونشعر ونعبر بطرق مختلفة ترجع إلى أصل خلقتنا!

أصل الخِلقة!

ضع خطاً تحت هذه العبارة ، فهنا يكمن السر! وتعالَ الآن نتحدث في أصل الخلقة!

سأحاولُ في هذا الكتاب أن أحلل الفوارق بين الرجال والنساء بطريقة إنسانية صرفة أبتعد فيها قدر الإمكان عن إعطاء الأمر بُعداً دينياً ، ولكن ثمة أشياء يستحيل أن نفهمها بعيداً عن حقائق الدين ، ودعني أكون جازماً ، مع أني لا أحب غالباً أن أتحدث وأنا ممتلئٌ ثقةً ، إذ أني أقول ما أفهم ، أو ما أعتقد أنه الصواب ، ولكني في موضوع سبب الاختلاف بين الرجل والمرأة أجزم أن الأمر لا تفسير منطقي له سوى أصل الخلقة!

دعنا نرجع إلى الوراء قليلاً ، أو بالأحرى سوف نرجع كثيراً ، تحديداً حيث بداية خلق الله تعالى هذا النوع الذي هو نحن!

أراد سبحانه أن يجعل هذا الكوكب الذي نعيش فيه مأهولاً ، وهذا ما حدث كما ترى ، من طينٍ أنشأ سبحانه هيئة بشرية أتقنَ

صنعها ، ثم نفخ فيها الروح فقام آدم بشراً سوياً ، ولكن ماذا يفعلُ رجلٌ وحده ، كيف يعمرُ كوكباً مترامي الأطراف إذا ما أُهبط إليه ، كيف ينجب أولاده الذين سيكملون بعده الغاية التي لأجلها خُلق؟! لا بُدَّ من حواء إذاً! أصدر القدير أمره فكانت حواء!

ولكنه سبحانه بعلمه المطلق شاء أن يخلقها بطريقة أخرى غير تلك التي خلق منها آدم من قبل ، لما نام آدم أخذ منه ضلعاً قرب القلب وخلق منه حواء! كان سبحانه قادراً على أن يخلقها من تربة منفصلة تماماً كما خلق آدم ، ولكنه أراد أن تكون بينهما رابطة قوية ، فهما سيسيران معاً ، الرجل والمرأة جنباً إلى جنب حتى فناء هذا الكوكب ، خلقَ الله حواء من ضلع آدم ، ليشعر على الدوام أنها جزء منه ، يحبها ، ويحميها ، ويخاف عليها تماماً كما هي الأجزاء التي ما زالت موصولة فيه ، ولتشعر حواء أنها تنتمي لآدم ، انتماء الغصن إلى الشجرة الذي متى ما قطع منها ذبل ومات ، وتحن إليه حنين الجزء إلى أصله الذي جاء منه!

وقد تسأل الآن : أين أثر أصل الخلقة في الاختلاف بين طبيعة المرأة وطبيعة الرجل؟!

وهو سؤال آن أوانه فعلاً فأعرني عقلكَ وقلبكَ الآن!

خُلق آدم من تراب ، ومن التراب ينبثق الشجر ، وتخرج السنابل مليئة بالقمح ، التراب هو أصل الانتاج ، ولأن كل مخلوق يأخذ من طباع المادة التي خُلق منها تجد الرجال يجدون أنفسهم

فيما يُنتجون ، يحبون العمل والانجاز والنجاح وإعالة نسائهم ، لهذا يجد الرجل حرجاً أن يجلس في البيت وتنفق عليه زوجته ، لأن هذا خلاف فطرته ، وضد أصل الخلقة التي جاء منها!

بالمقابل قلنا أن حواء جزء من آدم ، آدم بالنسبة إلى التراب هو جزء لهذا علاقته بالانتاج قوية ، أما المرأة بالنسبة للتراب فهي جزء الجزء وعلاقتها بالانتاج أقل بكثير مما هي الحال عليه عند الرجل ، فالمرأة مثلاً لا تجد حرجاً أن تجلس في البيت تهتم بشؤونه بينما ينفق عليها زوجها ما دام يحفظ لها كرامتها ويعاملها بالحسنى ، أرأيتَ إلى أي مدى ما زال أصل الخلقة يؤثر فينا؟!

بالمقابل التراب الذي جاء منه آدم صلب ، جدِّيّ ، عملي ، تزرعه وتصب فوقه الماء فيثمر ، إنه يعمل وفق معادلة ثابتة ، غاية في المنطقية ، بينما جسد آدم الذي خُلقت منه حواء ألْيَن وأقل صلابة من التراب ، لهذا كانت المرأة أرق وأنعم من الرجل! ولمّا جاءت من قرب القلب لم يكن مستغرباً أن تكون أكثر عاطفة من الرجل العملي الذي جاء من التراب!

والآن دعنا نقرأ معا» ما سبق وتحدثنا عنه ، يقول الله تعالى :
«هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها»

خلقنا من نفس واحدة هو آدم ، وجعل من هذه النفس زوجته هي حواء .

طريقة مغايرة في الخلق لذات النوع ، كانت السبب في هذا الاختلاف الذي نراه ونعيشه ، هذا الاختلاف الذي علينا أن نتفهمه لا أن نصارعه ، ونتعايش معه لا أن نصطدم به ، وكلما لاحظتَ اختلافاً معها ، كلما أحسستَ أنها لا تشبهك ، كلما رأيتها بكتْ حيث رأيت أن الموقف لا يستدعي ، ورأيتها فرحت حيث أن الأمر لا يقتضي ، كلما رأيتها تتحدث أكثر منك ، كلما رأيتها غارقة بالتفاصيل ، كلما طالبتك بالاهتمام ، كلما أحسستَ أنها تُفضِّل أن تعمل أقل وتحبها أكثر على أن تجني مالاً أكثر وتحبها أقل ، تذكر أهم درس في الحياة :

أنتَ من تراب ، وهي منك!

هي تُفضفِض... أنتَ تُلاكم!

لا شكَّ أنّك قد شاهدتَ مباراة ملاكمة في يوم من الأيام ، هذه الرياضة العنيفة التي يمارسها الرجال في البيوت دون أن يشعروا! ولا أقصد بذلك لكم المرأة في وجهها ، نحن نَلْكُمُ مجازاً ، وإنما ضربتُ هذه الرياضة مثلاً لأنها أقرب الأمثلة لما يحدث فعلاً!

في مباراة الملاكمة اللاعب دوماً بين خيارين إما أن يدافع عن نفسه بشراسة عندما يتعرض للَكْم من خصمه ، أو يهاجم أيضاً بشراسة لأنه يعلم أنه إذا لم يسدد اللكَمات فسيتلقاها!

لا يوجد بيت إلا وفيه مشاكل مهما كانت بسيطة ، ولا يوجد حياة إلا ولها منغصاتها مهما توفّر فيها الرفاه المادي ، طبيعة الرجل في المشاكل والمنغصات أن ينكفئ على نفسه ، ويتقوقع على ذاته ، تماماً كالسلحفاة التي عندما تشعر بالخطر تدخل صدفتها الصلبة ، وإدخال السلحفاة رأسها لا يعني أنها نسيت المشكلة أو الخطر المحدق بها في الخارج ، إنها فقط تفكر ، وتقلب الأمور ، وتنتظر! أما طبيعة المرأة في المشاكل فعلى النقيض تماماً من هذا ، إنها تخلع قوقعتها ، أي أنها تتحدث عن المشكلة التي تواجهها! فبالنسبة إلى الرجل الصمت هو جزء من الحل ، إنه مفطور على حل الأشياء ، وتحقيق النتائج ، أما بالنسبة إلى المرأة الفضفضة هي من لوازم المشكلة ورغم أنها تعرف يقيناً أن الفضفضة لن تقدم حلاً إلا أنها لا تستطيع كتم أحاسيسها هي مفطورة على هذا الأمر أيضاً!

عندما تشكو إليكَ فهيَ لا تطالبك بإيجاد حل لهذه المشكلة ، هي أحياناً على يقين أنكَ لا تستطيع حلّها ، أساساً لو كانت تعرف أنك تستطيع حلها ما سكتت حتى هذه اللحظة ، كل ما تريده منك أن تستمع فقط! الحديث عن المشكلة بالنسبة إلى المرأة هي عملية إفراغ حمولة!

لا شكّ أنك شاهدت شاحنة ضخمة تحمل رملاً إلى ورشة يُشيّد فيها مبنى ، اللحظة التي تقف فيها الشاحنة وترفع ظهرها وتصب على الأرض هذه الحمولة التي أتت بها ، هي تماماً ما تشعرُ به المرأة عندما تتحدث عن المشكلة ، إنها تتخلص من حمولة . ولكن إيّاك أن تعتقد أنها تلقيها عليك!

عندما تشكو إليكَ انزعاجها من تدخل أمك في حياتها ، فهي لا تقول لك غيِّر أمك إنها لا تناسبني! ولا تقول لكَ عليكَ أن تضع حداً لهذا وتخبر أمك أن تكف عن التدخل في شؤونها ، وإبداء الملاحظات الدائمة لها ، إنها فقط تريد أن تقول : أنا منزعجة جداً من هذا الأمر! ولا تريد منك أكثر من أن تستمع إليها ، ثمة حمولة ثقيلة على ظهرها تريد أن تفرغها أمامك لا عليكَ!

ولكن الرجال يخلطون بين حاجة المرأة إلى الحديث عن المشاكل وبين تحميل الرجل سبب نشوء هذه المشاكل! هنا يلجأ الرجل إلى الملاكمة! فالذي يحدث غالباً أن الرجل يعتبر هذا الأمر

هجوماً عليه ، فيلجأ إلى ما يفعله الملاكمون في الحلبة إما أن يدافع بشراسة ، كأن يقول لا هذا ليس صحيحاً ، أمي إمرأة طيبة ، أمي لم تقصد هذا ، هي تتدخل لأنها تحبنا ، أمي تريد لنا الخير!

وإما أن يهاجم بشراسة كأن يقول : أنتِ تتحملين المسؤولية ، عليكِ أن تتقبلي ملاحظاتها ، عليكِ أن لا تتضايقي! يجب أن تكوني مرنة أكثر!

ستستغرب حين أقول لك أن كلامك حين دافعتَ بشراسة قد يكون صحيحاً ، وكذلك كلامك حين هاجمتَ بشراسة قد يكون صحيحاً أيضاً! ولكن المشكلة في التوقيت! في أثناء سعيها لتفريغ حمولتها عليكَ أن تستمع فقط ، دعها تخرج كل ما في قلبها ، أساساً كيف ستقوم بحل مشكلة لا تعرف حجمها وحدودها ، تفريغ حمولتها يكفل لك أمرين ، الأول أنها تحدثت وفي هذا راحة لها ، والثاني أنكَ رأيتَ الأمر من منظورها وزاويتها ، وإن أصدق ما نقوله نحن البشر إنما نقوله في لحظات إفراغ الحمولة!

هذا لا يعني أنه عليكَ الاستماع على الدوام دون أن تحرك ساكناً ، عليكَ أن تُميِّز بين ما يمكنك حله من المشاكل التي تشكو هي لك منها ، وبين تلك التي نصنفها واقعة بمشيئة القدر ، فأمك مثلاً هي قدر لا أنتَ قادر على استبدالها بأخرى ، ولا يُسمح لك أن تُفرط ببرها على أية حال كانتْ ، هذا إذا سلّمنا جدلاً أن بعض المشاكل منها فعلاً ، وليس تحليلاً خاطئاً من زوجتك أو رؤية الأمر

من منظورها ، أحيانًا الحكم على المواقف يكون متأثراً بالنظرة التي ننظر بها إلى هذا الموقف ، أو بالأحرى هذا هو الحال غالباً وليس أحياناً!

ولكن ليس من أهداف هذا الكتاب أن يغوص في هذه التفاصيل الصغيرة التي تختلف من بيت إلى بيت ، وتتباين تبايناً كثيراً من شخص إلى آخر إنما الهدف منه هو الغوص عميقاً في الخصائص التي يشترك فيها الرجال وتلك التي تشترك فيها النساء! ولكن بما أنه أمر قد فُتح ، فلا بأس بنصيحة : أحياناً الطريقة الأمثل لحل مشكلة ما هو الحفاظ عليها بهذا المقدار ، وهذا الكم والكيف ، والنجاح الحقيقي هو قدرتنا في منع تفاقمها! في مشاكل كهذه يجب مسك العصا من المنتصف ، حتى تبدو ككفتي ميزان الخضار ، في الكفة اليسرى يجب أن تكون على المستوى نفسه من الكفة اليمنى التي فيها الوزن الذي نريده ، فلو رجحت إحدى الكفتين يحصل ظلم إما للبائع وإما للمشتري ، وهذا مثل لتقريب المعنى ليس إلا ، ولستُ أساوي بين الزوجة والأم ، ولكني أقول إن كان العقوق أمراً لا يمكن تبريره فالطلاق بمثابة كارثة لا يخرج أحد منها منتصراً ، وهذا ما عنيته حين قلتُ : الحل الأمثل لمشكلة ما هو الحفاظ عليها بهذا المقدار!

ولكن بعض الأمور التي تشكو منها قد يكون حلها عندك ، في هذه الحالة لا بد من نزع فتيل الأزمة إذا كنت تريد أن تحافظ على بيتك ، وإن كان استمرارك بالقيام بما يزعجها مع سكوتها وتوقفها عن

إفراغ حمولتها بشأنه لا يعني انتصارك ، ولا يعني أنك فرضتَ أمراً واقعاً وأجبرتها أن تعيش فيه ، هذا يعني شيئاً واحداً وهو أن جزءاً من علاقتكما قد مات! أحياناً توقفنا عن العتاب يعني أننا زهدنا في هذه العلاقة! وقد قال شاعرنا : ويبقى الودُّ ما بقيَ العتابُ!

قد تتذمر هي من سهرك المتكرر مع أصدقائك ، هذه أزمة نزع فتيلها بيدك أنتَ ، هي لا تريدُ منك أن تقطع علاقتك بأصدقائك ، وليستْ تسعى إلى تملكك كما قد يتبادر إلى ذهنك ، كل ما تقوله لك : أفتقدك ، وأريدك بجانبي أكثر! ولكننا نحن البشر نقول أشياء عاطفية بلغة ليست كذلك! كلانا نفعل هذا ، نحن معشر الرجال وهُنّ معشر النساء! والذكي من أحسن التقاط الإشارات ، وأجاد ترجمة الكلام!

في مشكلة كهذه عليكَ أن تعرفَ أنّ لها حقاً فيك ، تماماً كما أنتَ لك حق فيها ، وحقها وحقك أبعد من السرير ، وأعمق من الجنس!

منذ اللحظة التي نرتبط فيها علينا أن نعرف أنه علينا أن نضحي بجزء من خصوصيتنا ، وأن العقلية التي كنا ندير بها حياتنا قبل الارتباط يجب أن تختلف عن العقلية التي يجب أن ندير بها حياتنا بعد الارتباط! فلا هي من حقها أن تمتلكك بالكلية فتأخذك من كل عالمك قبلها ، ولا أنتَ من حقك أن تجعلها أثاثاً في البيت ، كالكنبة والتلفاز لا تأتيه إلا عند حاجتك إليه! إنزع فتيل الأزمة ، ونظِّم وقتك وعلاقاتك ، أبقِ شمعة الحب متقدة فإنها متى انطفأتْ صارت العلاقة جحيماً!

خلاصة الكلام هنا ، أنه عليكَ أن تُميِّز بين الأمور التي تفرغ حمولتها منها ، فتعرف ما هو الممكن تغييره فتغيره ، وما لا يمكن تغييره وفي كلا الحالين عليكَ أن تستمع ، لا تتركها كالشاحنة تلف الشوارع تنوء تحت حملها!

وقد تسألني : هذا ما عليَّ أنا ، فما عليها هي؟!

أجيبك : المعنيُّ بالخطاب أولاً أنتَ ، هذا الكتاب للرجال فقط! ولكن بما أن نساءً سيقرأنه ، فسأجيب عن سؤالك ، وإنّما لهنَّ وليس لكَ! فليس لك أن تقول لها أنا أُلاكم لأن هذا طبعي وهذه فطرتي عليكِ أن تتحملي كما أنا أتحمل إفراغ حمولتك .

في الحقيقة لو فعلتَ هذا فأنتَ لم تفهم الدرس جيداً ، لأن قيامك بهذا الأمر في خضم إفراغها لحمولتها هو منعها من إفراغ حمولتها ، وبدل أن نكون في المشكلة التي جاءت تشكو منها ، صار عندنا مشكلتين ، المشكلة التي دفعتها للفضفضة ، والمشكلة الثانية هي عدم إعطائها الفرصة! أنتَ يمكنك أن تخبرها بطبعك هذا ، وفطرتك هذه ، في لحظة اعتذار فقط ، كأن تكون أخطأتَ وقطعتَ عليها لحظة إفراغ حمولتها ، فبعد ساعة أو ساعتين ، شعرتَ بضرورة لتطييب خاطرها ، تجلس بجانبها ، تحيطها بذراعك ، ثم تحدثها عن طبعك ، وأنك فعلتَ هذا استجابة له وما كان يجب أن تفعل!

أما أنتِ فعليكِ أن تعلمي أنه عندما قاطعكِ أثناء إخراج حمولتك كما كان يجب أن لا يفعل ، فهو شيء لا يتعلق بكِ وإنما

يتعلقُ به ، كان يستجيب لفطرته وطبعه ، تماماً كما كنتِ تفرغين حمولتكِ استجابة لفطرتكِ وطبعكِ!

هو لم يكن غارقاً في أنانيته ، ولا كان ديكتاتوراً يمنعكِ حق الكلام ، كل ما في الأمر أنه يشعر أنكِ مسؤولة منه ، وأنّ راحتكِ من مسؤولياته ، إنه يرى أن عدم راحتكِ هو تفريط بمسؤولياته ، وقد كان يدافعُ عن نفسه ولم يكن يقفُ ضدكِ!

عليكِ أن تنتبهي لنقطة مهمة هي أن الرجل يكره أن يشعر بالعجز ، وعدم قدرته على تغيير واقع يضايقكِ يشعره بالعجز! لهذا فإن هروبه من الاستماع هو محاولة منه لترميم عجزه!

كلانا علينا أن ننتبه إلى هذه النقطة جيداً

نحن الرجال علينا أن نتفهم حاجتكن إلى الاستماع والتفهم ، وإعطاؤكن الوقت الكافي لتفريغ حمولتكن

وأنتن النساء عليكن أن تتفهمنَ أن شعور الرجل بالعجز شعور مرير .

وقد يسأل سائل : ما الحل إذاً ، ما دامت المرأة أثناء إفراغها لحمولتها تُشعر الرجل بعجزه ، وهو في عدم إتاحة الفرصة لها لإفراغ حمولتها يكبتها؟

الحل هو أن لا نُشخصن الأمور!

بإمكان المرأة أن تكون ذكية وتفرغ حمولتها دون أن تجعل الأمور يبدو شخصياً واتهاماً مباشراً للرجل بالتقصير ، وهذا يحتم أن تشكو من الموقف لا من الشخص ، ابتعدي عن جملٍ من نوع :

- أنت المسؤول عن كل هذا
- هذه الأمور حدثتْ بسببك
- لو أنك فعلتَ كذا ما حصل هذا
- شخصيتك ضعيفة
- أنتَ عنيد
- أنت مهمل

هذه تعابير مستفزة توقظ الملاكم الشرس الكامن في أعماق الرجل!

الرجل كذلك عليه أن لا يشخصن الأمور ، ما يزعجها هو الموقف الذي هي فيه وليس شخصكَ أنت! دعنا نراجع الأمور التي ضربناها مثلاً لمشاكل تدفع المرأة لإفراغ حمولتها :

إنزعاجها من أمك هو انزعاج من موقف شعرتْ فيه بشيءٍ من خصوصيتها قد استُبيح ، وليس انزعاجاً منك كونك ابن تلك المرأة ، هي تعرف أنك ستبقى ابن تلك المرأة مهما حدث ، كل ما كانت تريد قوله أنها تريد منكما أن تديرا حياتكما بعيداً عن أي تحكم ولو كان بدافع الحُب ، النقطة الأهم في هذا كله ، أنها تتحدث أمامك لأنها ما زالت تريدك!

مشكلة سهرك الدائم مع أصدقائك ، أتعتقدُ أنها لم تكن تريدك بجانبها ، أو أنها لا تحبك وترغب بقربك والشعور باهتمامك ، أكانت لتعاتبك أم أنها كانت ستفرح لأنك تخرج ، لأن وجودك

ليس مصدراً من مصادر سعادتها ، هي لا شك منزعجة من الموقف الذي صنعته بسبب عدم موازنتك بين حياتك الزوجية وعلاقاتك الخاصة ، ولكنها ليست منزعجة من شخصك ، هذا الشخص الذي أوجد هذا الموقف هي ما زالت تريده ، خذها مني قاعدة : نحن لا نقاتل بشراسة إلا في سبيل الأشياء التي نحبها!

هي تنصح... أنتَ تشعر بالإهانة!

البارحة اصطحبتُ أمي إلى الطبيب ، وبعد أن انتهينا ، عدنا إلى موقف السيارات لنرجع إلى البيت . وقفتْ أمي بعيداً ريثما أحضر السيارة وأقلّها عائدين . ما إن فتحتُ باب السيارة حتى وصل رجل وزوجته بسيارتهما ورائي مباشرة ، نزلت الزوجة بينما حاول الزوج أن يركن السيارة بين السيارتين المجاورتين لي ، ولم يكن الأمر سهلاً جداً خصوصاً أن خلفنا صف سيارات أيضاً ، ولكن الأمر لم يكن مستحيلاً أيضاً ، في النهاية هكذا هي مواقف ركن السيارات ، رجع الزوج إلى الوراء قليلاً ثم تقدم كما تقتضي الضرورة ، ولكن هذه الحركة لم تكن كافية لركن السيارة ، فأعاد الحركة مجدداً ، هنا سارعت زوجته للقول : ارجع أكثر ، وعندما رجع قالت له إلى اليمين قليلاً ، انتبه للسيارة الحمراء لا تصطدم بها!

لفتني أن الزوج بدتْ عليه علامات الغضب ، وقال بشيء من الحدة : دعيني أركن السيارة! وبالفعل استطاع الزوج أخيراً ركنها ، ولكنه نزل من السيارة وما زالت أمارات العصبية والغضب بادية عليه ، وحتى عندما ابتعدا قليلاً ولم يكن صوتهما مسموعاً بدت حركات يديه وكأنه يوجه لها عتاباً ما!

قد تستغرب إذا أخبرتك أنّ هذا الموقف بين الرجل وزوجته قد حدث معي من قبل! وقد تستغرب أكثر إذا أخبرتك أن موقفي لم يختلف كثيراً عن موقف الرجل من زوجته ، أنا أيضاً شعرتُ بشيء من الغضب يومذاك ، وإن كانت ردة فعلي يومها أقل حدة من ردة فعله فهذا راجع أني حاولتُ السيطرة على نفسي ، ولكني أفهم شعوره ، ولستُ أبرر ردة فعله ، ولكني أقول نحن عند الموقف ذاته لا نملك ردة الفعل ذاتها!

طبعاً هذا حدث قديماً معي ، اليوم إن حصل فلن أشعر بالغضب الذي شعرته أول مرة ، وبالفعل تحصل أمور فيها شيء من إسداء النصائح في وقت قد لا أراه مناسباً ، أو لا يستدعي النصح والتدخل أساساً ، ولكني لا أحتدُّ كما كنتُ أفعل سابقاً ، والسبب أني اليوم صرتُ أعرفُ لماذا تُبادر هي بالنصح في موقف بسيط كهذا ، ولماذا كنتُ أحتدُّ أنا ما دام الموقف بسيطاً لا هو يستدعي النصح منها ولا هو يستحق كل هذه الحدة مني!

ولمزيد من اليقين ليس إلا ، وليطمئن قلبي كما طلب إبراهيم عليه السلام من ربه أن يريه كيف يُحيي الموتى على يقينه ورسوخ إيمانه أن الله قادر على أن يفعل ، تعمدتُ أن أروي حادثة الزوجين لإثنين من أصدقائي كل على حدة ، والهدف من هذا أن أدفعهما للتعليق عليها دون أن يعرف كل منهما أني أجرجرهما في الحديث لشيء أريد الكتابة عنه!

وكما كنتُ متوقعاً جاءت تعليقات صديقيَّ نسخة طبق الأصل! كلاهما قال ما معناه : لا أعرف لماذا تتدخل المرأة في شيء لا يعنيها ، أو شيء يفهم الرجل فيه أكثر منها ، قد تكون لا تستطيع القيادة أصلاً ، لكنهن يفعلن هذا ، خفف سرعتك ، لا تتجاوز هذه السيارة ، لماذا انعطفتَ بسرعة ، لماذا لم تنتبه إلى المطب؟! لماذا لا تجلس المرأة بهدوء وتترك الرجل يقود السيارة إنه يفعل هذا بمهارة ، نحن نصل كل مرة إلى حيث نقصد ، فلماذا لا يثقنَ بنا؟! المرأة في موقف السيارات كان عليها أن لا تتدخل وتتركه يركن السيارة نحن لا نصدم السيارات الأخرى في المواقف!

مثل هذه المواقف البسيطة سنبقى نغضب منها ما دمنا لا نعرف لماذا تقع ، وما الباعث عليها!

أعتقد أننا وصلنا إلى بيت القصيد :

لماذا لا تكف النساء عن إسداء النصائح؟ ولماذا يغضب الرجال من هذه النصائح ما دام هدف النساء منها مصلحة الرجال؟!

المرأة مفطورة على الرعاية وإن كان لها حظ من الإنتاج ، بينما الرجل مفطور على الإنتاج وإن كان له حظ من الرعاية ، بمعنى أننا نتحدث عن السمة الغالبة عند كل منهما ، فعندما نقول أن المرأة مفطورة على الرعاية لا نعني أنها لا تُنتج ، على العكس هناك نساء لهن وظائف ، وبارعات في مجالهن ، وهناك نساء غيّرن وجه العالم بفكرهن وجهودهن وإنتاجهنَّ ، ولكن القصد أنها تجد نفسها في

تقديم الرعاية أكثر مما تجد نفسها في الوظيفة والاختراع والتفوق ، وإن كان أحدهما لا يُلغي الآخر ، ولا يقف على النقيض منه ، وليس على المرأة أن تختار إحدى الحُسنيين ما دام يمكن الجمع بينهما والظفر بهما!

وبالمنطق نفسه أقول الرجل مفطور على الإنتاج وإن كان له حظ من الرعاية ، بمعنى أننا نتحدث عن السمة الغالبة على شخصيته ، وعندما نقول أنه كائن صُمم من إله قدير ليكون منتجاً شأنه شأن التراب الذي جاء منه مباشرة فلا ننفي أنه يقدم نوعاً من الرعاية ، آباء العالم يقدمون نوعاً من الرعاية ، ولكن الرعاية المقدمة منهم لا تحتل حيِّزاً في شخصياتهم بالقدر الذي تحتله رغبتهم وحاجتهم إلى الإنتاج وسعيهم للتفوق والنبوغ وحل المشاكل ، وبالمنطق السابق نفسه إن رغبة الإنتاج لا تقف على النقيض من الرعاية ، أيضاً يمكن للرجل الجمع بينهما ، وإنما القصد في أيهما يجد الرجل نفسه ، وما هو الشيء الذي خُلق لأجله؟!

تبادر المرأة إلى نصيحة الرجل في أصغر تفاصيل الحياة لا لشيء يتعلق بالرجل ، وكونه يحتاج إلى النصح فعلاً ولا يستطيع تدبر أموره ، وإنه بحاجة مُلِحّة إلى التوجيه والإرشاد ، وإنما تفعل هذا لشيء يتعلق بها وبفطرتها! هي مفطورة على الرعاية كما قلنا ، والنصيحة عندها هي نوع من الرعاية ، لهذا هي عندما تبادر إلى النصح في أصغر المواقف كموقف ركن السيارة الذي بدأنا الحديث

عنه ، فهي لا تسعى إلى السيطرة ، ولا تقول : أنا آمرك أن تفعل هذا ، أو آمرك أن تترك هذا! هي ببساطة تقول : أنا هنا بجانبك! أنا أهتم لك!

إن تقديم المرأة النصيحة للرجل هو تعبير عن الحب ، يوازي تماماً تقديم الرجل للمرأة باقة ورد ، أو خاتماً ذهبياً ، الرجل المنتج ، المتعلق بالأشياء ، المتباهي بما يصنع ويمنح ، يقول للمرأة عبر باقة الورد ، وخاتمه الذهبي ، أنا أحبكِ ، وأنتِ محط تقدير عندي! وهذا ما تفعله المرأة عبر تقديمها النصيحة ، إنها تعبر عن حبها ، وتعبر عن فطرتها في تقديم الرعاية!

الفرق بين شخصيتنا نحن الرجال وشخصية النساء ، أننا نركز على الأهداف ، نحن كائنات عملية تهتم للنتائج ، بينما تهتم النساء بطريقة الوصول إلى الهدف ، وهُنَّ عندما يتدخلن ويبادرن إلى تقديم النصيحة فلا يحاولن ثَنْيَنا عن تحقيق أهدافنا ، إنهن يجعلن لهنّ مكاناً في الطريق الموصل لأهدافنا ، هذه إحدى طرقهن للتعبير عن الحب ، ولكن نحن نفهمه على أنه نوع من الوصاية ، أو محاولة السيطرة ، أو التعبير عن أنهن يفهمنَ أكثر منا!

والفرق بين شخصيتنا نحن الرجال وشخصية النساء ، أن الرجل يشبه إلى حد بعيد حبة الجوز! أنظر إلى حبة الجوز صلبة وقاسية من الخارج ، طيبة وعذبة من الداخل ، يضع الرجال قشوراً حول شخصياتهم لأنهم مفطورون على القوة والإنجاز ، لا يحبون أن

يصل الآخرون إلى ثمرة الجوز ، يريدون لهم أن يصطدموا بقشرتها ، وهم في الغالب يحترمون القشرة الصلبة في الآخرين ، فالرجل لا يقدم النصيحة غالباً إلا إذا طُلِب منه ذلك ، على الجهة المقابلة فإن المرأة تُقدِّر الإتصال ، وتبادر لإنشاء العلاقات ، وتبادر للبوح ، قد يكون عند الرجل مشكلة مستعصية ولا يخبر بها زميله في العمل ، المرأة تسارع للإخبار عن مشاكلها لا رغبة منها في إشراك الآخرين في حياتها ، ولا رغبة في فضح بيتها ، ولكنها خُلقت هكذا لينة رقيقة ، لا تبني دفاعاً بينها وبين الآخرين ، لا تقيم السدود بقدر ما تُنشىء الجسور ، وعدم تقبل الرجل للنصيحة غالباً مردّه هو أنه يحمي قشرته السميكة ، لا يريد أن يبدو ضعيفاً وليناً ، ومبادرة المرأة إلى النصيحة دون طلب ليس محاولة منها لكسر قشرة الرجل ، ولا إبدائه ضعيفاً أمام نفسه أو أمامها ، إنها تتواصل فقط!

الرجل لا يسعى لتغيير العالم من حوله إلا إذا كان هذا من مهامه ، أو إذا طُلب منه ذلك ، إنه عندما يسمع مشكلة شخص ما ، لا يذهب إليه مباشرة ليقول له افعل هذا ، واترك ذاك ، لو طُلب منه أن يشارك ويُغيِّر فإنه يفعل ولكنه ليس مبادراً بطبعه! على العكس من هذا هي شخصية المرأة ، إنها مفطورة على تحسين الأشياء من حولها ، إنها تشعر برغبة في عقد زر مفكوك في قميص طفل ليس طفلها ، لا تعرف أن ترى شيئاً يمكن إصلاحه ولا تصلحه! يزعجها أن ترى في المكتبة كتاباً من أجزاء ليس مرتباً بحسب الأرقام! أنتَ تنظر إلى المكتبة وترى هذا الكتاب بأجزائه ، هي أول شيء ستفعله

أن تقوم بترتيب هذا الكتاب بطريقة متسلسلة ولو لم تكن هذه المكتبة في بيتها ، أكثر من مرة رأيت النساء يفعلنَ هذا في مكتبة الجامعة ، ولم أفعل أنا هذا مرة واحدة ، ولم أرَ رجلاً قد فعل هذا! لهذا إن إعطاء المرأة النصيحة للرجل هي فطرتها في تحسين الأشياء حتى تلك التي ليست من مسؤوليتها تحسينها!

أغلب الرجال لا يقومون بإصلاح الأشياء التالفة في البيوت على الفور ، وأغلب النساء يتذمرن من أن الرجال لا يصلحون الأشياء! فالرجل يتقبل الأشياء ما دامت تعمل ، بالنسبة للرجل الخزانة في المطبخ صالحة لتكون فيها الصحون والأواني ولو كانت درفتها مخلوعة ، المرأة لا تهتم بوظيفة الأشياء فقط ، إنها تهتم بناحيتها الجمالية أيضاً! وإن إبداء المرأة للنصيحة هو سعي لإضفاء جمالية تراها!

لماذا نشعر نحن الرجال بالغضب من نصائح النساء؟
الجواب بسيط ، نحن نحب أن ننجز بالإعتماد على أنفسنا .

لماذا لا تكف المرأة عن إبداء النصائح؟
الجواب بسيط أيضاً ، المرأة ترى في محاولة تقديم نصيحة ومساعدة لها دون أن تطلب يوماً شيئاً من اللطف والتقدير ، فتلقيها مساعدة أو نصيحة يشعرها أنها محبوبة ، ومحط اهتمام من الآخرين ، وعلى النقيض من ذلك ، تدخّل الآخرين لمساعدة الرجل

دون طلب قد يشعره بالعجز ، والرجل يفضل أن يكون قوياً منجزاً منتجاً على أن يكون محط شفقة ومساعدة ولو لم يُظهر له من قام بمساعدته هذا ، إنه يُفضل أن يُساعِد على أن يُسَاعَد ، المرأة يفرحها الأمرين معاً بذات الحجم ، هذا إن لم تكن رغبتها في تلقي الإهتمام والمساعدة أكبر من تقديمها!

لا يتقبل الرجل نصائح النساء بسهولة لأسباب غير قشرة الجوز السميكة! هناك أسباب أخرى أيضاً منها أنه يشعر أنه مسؤول عن المرأة ، ومفطور لتلبية حاجاتها ، لهذا يصعب عليه أن يتحول من مرتبة المسؤول إلى مرتبة الموظف! عليك أن تفهم أن الأدوار لم تنقلب ، ما زالت القوامة بيدك ، ما زلتَ مسؤولاً عنها ، عندما تنصحك فليسَت تعزلك عن كرسي سيطرتك ، إنها تقدم لك الرعاية وتقول لك : أنا أحبك وأهتم لك!

أيضاً لا يتقبل الرجال نصائح النساء ، لأن النساء أحياناً يخطئنَ في اختيار توقيت النصيحة ، إختيار التوقيت أهم ما في الأمر ، على المرأة أيضاً أن تعرف متى تتدخل ومتى تُحجم ، ولا أقول لكِ : تصرفي ضد فطرتك في تقديم الرعاية ، ولا في تحسين العالم من حولك ، ولستُ أُنكر أن بعض المواقف تحتاج نصيحة فورية ، ما أقوله أن الرجل أحياناً لا يرغب في سماع كلمة مهما بدت رقيقة ، ومهما كانت النية من ورائها طيبة ، وتذكري أن النصح بحضور الآخرين شيء جارح للرجل ، وكما قالت العرب : النصيحة على الملأ فضيحة!

أيضاً لا يتقبل الرجال نصائح النساء أحياناً بسبب الأسلوب ، قد يكون الأسلوب فظاً وإن كان المضمون صحيحاً ، وهذا شيء يشترك فيه الرجال والنساء معاً ، فحتى المرأة التي ترغب في تلقِّي النصيحة وتعتبرها نوعاً من أنواع الإهتمام لا تتقبل النصيحة ما لم تُقدَّم إليها على طبقٍ من اللطف! علينا جميعاً نحن الرجال وأنتم النساء أن نختار مفرداتنا بدقة ، الكلمات القاسية تُفسدُ المشاعر الطيبة!

وأحياناً يكون اختلاف المستوى الثقافي بين الرجل والمرأة عائقاً أمام تقبل نصيحتها ، فإذا كانت أقل منه ثقافة فإنه يستهين برأيها ، وهذه فوقية عليكَ عزيزي أن تتخلى عنها ، لستَ أرفعَ مقاماً من رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم قبل نصيحة زوجته في صلح الحديبية حين أمر أصحابه أن يحلقوا رؤوسهم فأبوا أول الأمر حباً لله ورسوله ولأنهم اعتبروا عدم دخولهم إلى مكة مساس بدينهم ، فقالت له زوجته : قم أنتَ فاحلق!

فقام أمامهم وحلق شعر رأسه ، فما كان منهم إلا أن فعلوا مثلما فعل!

وإن كانت أكثر منه ثقافة سيعتبر أن نصيحتها نوع من الإملاءات والأوامر ، وهذه عقدة نقص عليكَ عزيزي أن تتخلص منها ، إنها تكملك ، وتسد النقص الذي فيك ولا تقول لك : أنا أكثر منك فهماً!

ماذا تفعل المرأة في وضع كهذا؟!

إذا كانت أقل ثقافة منه يُنصح أن تمهد لنصيحتها بالكلام التالي :

أنا أثق بعقلك وفهمك ، وأنتَ تستطيع حل مشاكل كل الناس ، ولكن أحياناً لا يرى الإنسان حلاً لمشكلته ، ما رأيك أن تفعل كذا؟!

بهذه الكلمات يمكن أن تجعل نصيحتها محط اهتمام!

وإذا كانت أكثر ثقافة منه يُنصح أن تمهد لنصيحتها بالكلام التالي :

أنا هنا بجانبك ، وسأبقى دوماً بجانبك ، لا لأني مثقفة ومتعلمة أكثر منك ، بل لأني أحبك ، أنت أهم من شهاداتي كلها ، ما رأيك أن تفعل كذا؟!

عليكَ عزيزي الرجل أن تفهم أن النصيحة ليست نقداً ، إنها محاولة مساعدة فقط!

وعليكِ عزيزتي المرأة أن تفهمي أن بعض النصائح التي تقدمينها مستفزة فعلاً للرجل بغض النظر عن نيتك الطيبة وراءها!

إذا حاول الرجل إصلاح شيء في البيت ولم ينجح على الفور إياكِ وهو غارق في إصلاح هذا الشيء أن تقولي له : لماذا تحاول إصلاحه ، إتصل بالكهربائي!

هذه ليست نصيحة بقدر ما هي اعتداء سافر على رجولته! عندما لا يستطيع إصلاح هذا الشيء بنفسه سيتصل بالخبير بنفسه ، فلا يوجد أمامه إلا هذا! ولكن جملتك تلك مستفزة حقاً ، أنتِ أيضاً عليكِ أن تحكمي فطرتكِ وليس هو الوحيد المطالب أن يتفهم أنك مفطورة على تقديم الرعاية وتغيير العالم!

عندما يكون الرجل على مكتبه ، غارق في إنجاز أعماله ، إياكِ أن تقولي له : مكتبك غارق في الفوضى عليك أن ترتبه! هذه ليست نصيحة لتجميل العالم عزيزتي بقدر ما هي شرارة في كومة قش!

عندما تستعدان للخروج معاً ، ولا يعجبكِ قميصه ، وأنتِ تريدين له أن يكون أجمل وأكثر أناقة لأنك تحبينه ، فلا تقولي له : هذا القميص غير مناسب أبداً لماذا لا تعرف كيف تختار ثيابك! هذه ليست محاولة لتجميل العالم هذه إهانة لذوقه ، محاولة تجميل العالم تكون عن طريق قولك : حبيبي عندك قميص آخر يجعلك تبدو أكثر أناقة من هذا ، رغم أن كل ما ترتديه جميل !

أنت صندوقي... هي متشعبة!

من أكثر الأشياء التي تشكو منها النساء أنَّ الرجال يتضايقون إذا ما تمت مقاطعتهم أثناء القيام بعمل ما ولو كان بسيطاً كقراءة خبر في صحيفة ، أو إصلاح شيء صغير تالف ، ويتساءلن لماذا لا يتحدثُ الرجال إلينا أثناء قيامهم بالقراءة ، أو إصلاح الشيء التالف ، لا يبدو الأمر عسيراً جداً ، وبإمكانهم القيام بذلك!

ومن أكثر الأشياء التي يشكو منها الرجال أن النساء لا يمنحوهم الوقت الكافي للإصغاء ، فهنَّ يستمعن إلى الموضوع دون أن يوقفن تدريس الأولاد ، أو تحريك طبخة على النار ، أو أثناء نشر الغسيل ، وأحياناً يستمعن وهُنّ يقمن بأمرين معاً ، لا شك أنهن لسنَ مهتمات بما يكفي بهذا الحديث ، فكيف يستطعن التركيز في أكثر من موضوع في وقت واحد ، ثم لا يبدو الأمر عسيراً لو توقفنَ قليلاً عما هُنّ فيه واستمعنَ باهتمام ثم عاودن العمل!

هذه المشكلة تحدثُ دائماً في كل البيوت ، والسبب عدم فهم الرجل لطبيعة المرأة ، وعدم فهم المرأة لطبيعة الرجل ، يُخطئ الرجل عندما يفترض أن المرأة يجب أن تتفاعل مع الأحداث بالطريقة التي يتفاعل هو معها ، وتخطئ المرأة عندما تفترض أن الرجل يجب أن يتفاعل مع الأحداث بالطريقة التي تتفاعل هي معها!

لا نحن نشبه النساء في نفسياتنا وعقلياتنا ، ولا هُنَّ يشبهننا في نفسياتهنّ وعقلياتهنّ ، وتحدث المشاكل دوماً بسبب عدم إدراك هذا الاختلاف ، والتعامل معه ، وإن فَهم الطريقة التي يعمل بها الرجل ، وتعمل بها المرأة ، يقلل المشاكل أو يقلل التفسيرات الخاطئة التي تؤدي لنشوء هذه المشاكل!

الرجال لا يكرهون كلام النساء ، ولا يفضلون القراءة على أحاديثهن ، ولا يعتبرون أن إصلاح آلةٍ تالفة أهم من الموضوع الذي تريد المرأة أن تتحدث به ، كل ما يكرهونه هو مقاطعتهم أثناء القيام بعمل ما لسبب يتعلق بهم لا بالنساء!

والنساء لا يكرهن كلام الرجال ، ولا يعتبرن أن حل سؤال رياضيات أثناء حديث الرجل أهم من حديثه ، ولا الطبخة على النار أهم من الموضوع الذي جاء يتحدث به ، حتى عند قيام إحداهن بعملين معاً فليس بالضرورة أنّ انشغالها يعني عدم الاكتراث ، ولكن استمرار قيامهن بأعمالهن أثناء حديث الرجال يرجع لسبب يتعلق بهنَّ ولا يتعلق بحديث الرجال!

السبب وراء هذا الاختلاف أن الرجل صندوقي والمرأة متشعبة!

ما الذي يعنيه هذا الكلام؟!

عـقل الرجل مكوّن من صناديق ، صندوق للعـمل ، صندوق للعائلة ، صندوق لمباريات كرة القدم ، صندوق للسياسة ، وهو إذا أراد أن ينغمس في عمل ما ، أو يعالج قضية ، فإنه ببساطة يفتح الصندوق المخصص لهذا العمل ، أو لتلك القضية ، ويدخل فيه ، ويُبقي الصناديق الأخرى محكمة الإغلاق ، إنه ببساطة لا يجيد فتح صندوقين معاً ، هذا شيء يشعره بالارتباك ، إنه إذا فتح صندوقاً ما ينشغل فيه بكُليّته بحيث لا يعود يرى سواه! وهذا ما يُفسِّر لماذا عندما يكون الرجل في عمله وتتصل به زوجته لتشكو أمور الأولاد ينتهي الأمر غالباً في أن يتذمر ، إنها ببساطة فتحت له صندوقاً آخر غير الذي فتحه لنفسه ، الصناديق المفتوحة معاً تُشعره بالارتباك ، وتُفقده تركيزه ، وهو عندما يتذمر فلا يتذمر من الموضوع الذي فُتح ، ولا من محتوى الصندوق الجديد ، إنه يتذمر من فكرة أنه صندوق ثانٍ فقط! لهذا من الملاحظ كثيراً أنه عندما يعود إلى البيت يطلب من زوجته أن تعيد إخباره بالشيء الذي أخبرته به عندما كان في العمل ، وقد تتفاجأ الزوجة من أن الزوج لم يستمع جيداً لما كانت قد قالته ، ثمة أمور أخبرته بها ، وتفاصيل حدّثته عنها كأنه يسمعها لأول مرة ، الفكرة أنه كان في صندوقه وقد أزعجه فتح صندوق جديد أمامه!

هكذا هو الرجل ، عندما يشاهد مباراة كرة قدم ينسى كل شيء ، لا الأشياء التالفة في البيت تشغل تفكيره ، ولا الضيف الذي سيزوره مساءً يخطر له على بال ، ولا الواجب المنزلي الذي

سيساعد به أحد أولاده يعني له شيئاً في هذه اللحظة ، لقد فتح صندوقاً ودخله وأغلق على نفسه ، وتعتقدُ المرأة إذا ما جاءت بموضوع أثناء المباراة أن المبارة أهم منها ، وليس الأمر كذلك ، كل ما في الأمر أنها تفتح أمامه صندوقاً جديداً عنوة ، إنها تحاول إخراجه من صندوقه ، وإدخاله في صندوق جديد ، المرأة لا تستوعب بحسب طبيعتها المشكلة في أن يكون الرجل في مكانين في آنٍ معاً ، لأنها تفعل هذا بسهولة ، بينما هو فمن العسير عليه أن يفعل ، وهو إذا تفاعل معها فسيكون التفاعل بارداً ، والاجابات مقتضبة ، وكأنه يقول : حسناً ، دعيني حيث أنا!

عندما يجلس الرجل مع أصدقائه ، فهذا يعني أنه موجود على هذا الكرسي في المقهى ولا يستطيع أن يكون في مكان إضافي آخر ، إنه لا يشتاق لصديقه المسافر ، ولا يفتقد أمه التي لم يرها منذ يومين ، وعمل الغد الذي ينتظره في المكتب خارج دائرة اهتماماته الآن ، كل هذه الأشياء في صناديق مغلقة الإحكام لها وقتها كي يفتحها ، أما الآن فصندوقه المفتوح هذا أشغله عما سواه!

على العكس تماماً من هذا ، تحرك المرأة الطبيخ على النار وتُفكِّر بأمها التي لم تزرها منذ يومين ، وبمشكلة صديقتها التي حدثتها بها البارحة ، وبامتحان الغد عند ابنها ، وبعزومة قرر زوجها إقامتها بعد أسبوع ، وبثياب العيد رغم أنه اليوم الثاني من رمضان مثلاً!

فلا حنينها لأمها ، ولا مشكلة صديقتها ، ولا امتحان الغد عند

ابنها ، ولا عزومة زوجها ، ولا ثياب العيد تفقدها التركيز على الطبخة التي تحركها الآن! هكذا هي المرأة متشعبة في طبيعتها! إنها عكس الرجل تجيد التعامل بمهارة مع صندوقين مفتوحين أو أكثر ، إنها بملء إرادتها لا عنوة تفتح أكثر من صندوق! لهذا فهي عندما لا تترك كل ما في يدها أثناء حديثك معها ، فهذا لا يعني أنها لا تهتم ، أنت تفترض هذا بناء على طبيعتك الصندوقية ، بينما هي بطبيعتها المتشعبة تستطيع أن تعمل وتصغي ، تطبخ وترشد ، تكوي وتحل مشكلة ، تُدرِّس ولداً وتحسب فاتورة ، الصناديق الكثيرة المفتوحة لا تُفزعها ، ولا تُشعرها بعدم الارتياح ، حتى إنّ بعضهن من كثرة التشعب يصعب عليهن القيام بعمل واحد فقط في وقت واحد!

ثِق تماماً أن مشاهدتها لمسلسل تتابعه في التلفاز أثناء إرضاعها لابنها أمر يسير بالنسبة إليها ، إنها تتابع أحداث المسلسل بدقة ، وتُرضع ابنها باهتمام ، لا أحداث المسلسل ستفوتها ولا الرضيع سيختنق ، هكذا هي مُعدّة بإتقان للقيام بأكثر من عمل في وقت واحد!

راقب أحاديث الرجال وأحاديث النساء كيف تبدأ وكيف تنتهي ، يبدأ الرجال بالحديث عن الوضع الاقتصادي ، إنهم يستمرون في الحديث بهذا الشأن لوقت طويل ، قلما يخرجون عن الموضوع ، وإن ناقشوا أكثر من ظاهرة ففي الغالب كلها تنضوي تحت

الموضـوع الرئيس قـيـد النقـاش ، الوضع الاقتـصـادي! إنـهم الآن في صندوق جماعي كبير!

راقب حـديثهم عن مبـاراة البـارحة ، إنهم يتحـدثون عن براعـة لاعب ، وإخفاق آخر ، وخطأ التحكيم ، وأرضية الملعب ، ولكنهم لن يتحـدثوا عن سعـر البطاقات ، ولن يتسـاءلوا عن ثمن البـوشـار في الملعب ، ولا من سـيـجـمع علب الكولا الفـارغـة ، حـتى الأشـيـاء الفرعية في الموضوع قيد النقاش قلما يتطرق إليها الرجال!

والآن راقب أحـاديث النسـاء ، يبـدأ الحـديث عن الامـتحـانات المدرسية وعلامات الأولاد ، ثم ينتهي عن طبخة الغد ، لا تركز فقط بما بدأ الحديث به ، ولا بما انتهى إليه ، ركز أيضاً في المنتصف ، لقد تحدثن عن خطوبة فـلانة ، وثيـاب أخـرى ، وطلاق ثالثـة ، ومـشكلة هذه مع حمـاتها ، وما فعلتْ تلك مع جارتها! هكذا هي المرأة تنتقل من حـالة إلى حـالة ، ومن مـوضـوع إلى مـوضـوع برشـاقـة بالغـة ودون أدنى خسائر ، بعيداً عن أي إرهاق عقلي ، وهذا ما لا نستطيعه نحن الرجال!

جرِّب أن تناقشها في مشكلة حديثة طرأتْ لكما ، ستنبش لك الدفـاتر القـديمة كلهـا ، من يوم خطوبتكمـا حتى اليـوم ، وسـتـأتيك بأشيـاء أنتَ لا تفـهم علاقـتـها بالموضوع ، وهي في الغـالـب ليس لهـا علاقة بالموضوع! ولكن ما عليك أن تعرفه أنها لا تقصد الخروج عن

الموضوع ، ولا إحياء مشاكل قديمة ، ولا زيادة الأمر المعقد تعقيداً ، كل ما في الأمر أن دماغها شبكة ، إنها تشبه موضوعاً تتصفحه في الانترنت ، هناك دوماً روابط تحت الموضوع لإثراء الموضوع ، وكلما تابعتَ الضغط على هذه الروابط ، كُلما فُتح أمامك صفحات فيها روابط أخرى ، وهذه هي المرأة ، إنك لن تُغيِّرها مهما حاولت ، هذا شيء في الطبع ، إنه نظام التشغيل الذي جاء معها! عليك أن تتقبلها كما هي ، وتتعامل معها على هذا الأساس ، تماماً كما عليها أن تدرك أن طبيعتك الصندوقية لن تتغير أيضاً مهما حاولتْ تغييرها ، إنه نظام تشغيلك الذي جاء معك ، وعليها أن تتقبلك وتتعامل معك على هذا الأساس ، اعطها هذا الكلام لتقرأه ، أو قم بشيء أجمل ، قوما بقراءته معاً!

هي أيضاً تعمل!

تحدثنا سابقاً أنّ الرجل خُلق من التراب مباشرة ، وأن المرأة خُلقت من ضلع الرجل ، لهذا كان من الطبيعي أن تكون صلة الرجل بالانتاج أقوى مما هي عند المرأة ، وأنّ المرأة في تركيبها النفسي لا مشكلة عندها في أن تكون ربة بيت لا علاقة لها بجني المال وتحصيل الرزق ، في حين يجد الرجل حرجاً في أن يلعب هذا الدور ، وكلاهما في هذا مستسلم لفطرته ، وقد استفضنا في الحديث عن هذا الموضوع ، ولا أريد أن أكرر ما قلته سابقاً ، ولكني جئتُ بهذه التوطئة لأن فيها مربط الفَرس!

يربطُ كثير من الرجال مفهوم العمل بتحصيل المال ، فكل وظيفة درّتْ كسباً ، وكان من ورائها دخل هي عند أغلب الرجال عمل وما عدا ذلك لا يمكن اعتباره عملاً ، وهذا تسطيح لمفهوم العمل ، ومادية مقيتة في التفكير ، في الحقيقة هناك أشياء كثيرة غير العائد المادي تحكم على أي جهد إنساني إن كان عملاً أم لا ، منها أثر هذا العمل ، الجهد المبذول في هذا العمل ، والأهم ما هو شكل العالم لو لم يقم هذا الشخص بهذا العمل؟!

وكي لا يكون الكلام عاماً ، وبعيداً عن أرض الواقع ، تعالَ معي نقرأ هذه القصة :

شعرَ موظفٌ في البنك باكتئاب شديد نتيجة ضغط العمل وروتينه ، فأشار عليه أحد أصدقائه أن يقصد طبيباً نفسياً . تردد صاحبنا أول الأمر في الذهاب ، وبعد أخذ ورد ، وتفكُّر وتدبُّر ، حزم أمره ، وقرر الذهاب إلى طبيب نفسي ذائع الصيت في المدينة . اتصل الموظف بعيادة الطبيب ، وحجز موعداً ، ثم ذهبَ ، وعندما دخل على الطبيب ، دار بينهما الحوار التالي :

الطبيب : ما هي وظيفتك؟

موظف البنك : محاسبٌ في البنك

- ما هي وظيفة زوجتك؟

- زوجتي لا تعمل ، إنها ربة بيت فقط

- من يوقظك وأطفالك في الصبح ويعد لكم الفطور؟

- زوجتي ، لأنها لا تعمل

- متى تستيقظ أنتَ ، ومتى تستيقظ زوجتك؟

- أنا أستيقظ في السابعة صباحاً ، وزوجتي تستيقظُ في الخامسة صباحاً ، فهي التي تقوم بتجهيز الأولاد للمدرسة ، لأنها لا تعمل!

- من يوصل أطفالك إلى المدرسة؟

- زوجتي ، فقد أخبرتك أنها لا تعمل

- ماذا تفعلُ زوجتك عندما تعود إلى البيت بعد توصيل الأولاد؟ وماذا تفعل أنتَ خلال هذه الفترة؟

- بعد توصيل الأولاد إلى المدرسة تعود إلى البيت ، تجلي الصحون ، وتغسل الملابس ، وتكنس الأرض ، وتطبخ الغداء ، وتشتري حاجيات البيت ، ثم تذهب لإحضار الأولاد من المدرسة لأنها لا تعمل ، أما أنا فأبقى في العمل حتى الرابعة عصراً!

- ماذا تفعل أنتَ بعد عودتك إلى البيت؟! وماذا تفعل زوجتك؟!

- آخذ قسطاً من الراحة بعد الغداء لأن الدوام في البنك شاق ومتعب ، أما زوجتي فتُراجع للأولاد دروسهم ، ثم توقظني لنشرب القهوة معا .

- في المساء ماذا تفعل أنتَ وماذا تفعل زوجتك؟

- أنا أتصفّح الصحف ، وأتابع التلفاز وأخبار العالم ، أما زوجتي فتعد لنا العشاء ، ثم تغسل الصحون ، وتنظف البيت ، وتجهز الأولاد للنوم

- هل لديك أيام عطل في الأسبوع؟

- أجل ، يوم واحد

- وزوجتك هل لديها أيام عطل في الأسبوع؟

- لا ، لقد أخبرتك أنها لا تعمل!

والآن بعد قراءتك لهذه القصة عليك أن تنظر في نفسك ، فإن وجدت في داخلك نسخة مصغرة من صاحبنا موظف البنك الذي يرى أن زوجته لا تعمل عليكَ أن تتخلص منه فوراً! مقيت جداً أن نختزل مفهوم العمل بالوظيفة ، وتلقي الأجر ، انظر في الكون

حولك ، كل شيء يعمل دون أن يتقاضى راتباً ، الشمسُ تشرقُ قبل أن تفتح الدوائر الرسمية أبوابها ، والقمر ينير الأرض في الليل مجاناً ، الشجرة لا تتقاضى أجراً مقابل الثمر الذي تعطيه ، النحل يُلقِّح الأزهار ويصنع العسل بلا مقابل ، الطيور تزقزق بلا أجرة ، والثيران تفلح الحقول بلا مُرتّبات ، والأبقار تعطي الحليب بلا فواتير ، حتى البكتيريا التي لا تراها تقوم بعمل رهيب مجاناً ، ولولاها ما استمرت الحياة على سطح الأرض فلا الشمس عاطلة عن العمل ولا القمر بلا وظيفة ، ولا الشجر عالة ، ولا النحل مجرد حشرات تطير ، كل شيء في هذا الكون يعمل ، وله وظيفة ، وربة البيت إنسانة تقوم بأحد أشرف الأعمال الإنسانية قاطبة ، ولا يوجد على الأرض عمل أجلّ من بناء الإنسان!

العمل عزيزي ليس ذاك المرتبط بساعات محدودة يقضيها المرء في الدوام ، وما عداه عطالة! هذا تعريف الوظيفة فقط ، والمرأة التي تعمل في بيتها كالنملة أربعاً وعشرين ساعة في اليوم ، وسبعة أيام في الأسبوع ليست عاطلة عن العمل ، وإن لم يكن لها وظيفة تدرُّ لها دخلاً!

العمل عزيزي ليس هو الذي يرتبطُ بواجبات محددة يقوم بها المرء مقابل عائد مادي ، هذا من تعريفات الوظيفة أيضاً! والمرأة التي تعمل في البيت مدرِّسة لمن عنده واجب منزلي ، وطبيبة للولد الذي يمرض ، وداعية للأولاد الذين يقصرون في العبادات ، ومربية

للكائنات الصغيرة التي تحتاج إلى القيم وغرس الأخلاق حاجتها إلى الطعام والشراب ، وخبيرة اقتصادية تدير راتبك الذي بالكاد يكفي ، ومرشدة اجتماعية للأولاد الذين كبروا ، هي أيضاً لها عمل وإن لم يكن لها وظيفة تدرُّ لها دخلا»!

العمل عزيزي ليس هو الذي له نقابات تطالب بحقوق العاملين فيه ، من تأمين طبي في حالات المرض العادية ، وتأمين طبي أكثر كرماً في حالات إصابات العمل ، هذا من تعريفات الوظيفة أيضاً! ربة البيت التي تجلي الصحون بالماء البارد دون نقابة تدافع عن جلدها وأعصابها وأنوثتها هي أيضاً لها عمل! والمرأة التي تستخدم السكاكين الحادة لتقطيع اللحوم والخضراوات دون جهة رسمية تطالب بحقها في التعويض إذا تعرضت لإصابة عمل هي أيضاً لها عمل! والمرأة التي لا تنام ساعات كافية وليس لها تأمين صحيّ ضد السهر على ولد مريض هي أيضاً لها عمل!

العمل عزيزي ليس هو الذي ارتبط بالحوافز والمكافآت ، ننمقُ فيه أعمالنا ، ونتملق مدراءنا ، فنحصل على مال إضافي ، هذا من تعريفات الوظيفة أيضاً! ربة البيت التي تصنع الحلويات هي إنسان عامل وإن لم تحصل على مكافأة نظير هذا العمل الإضافي ، المرأة التي تقرر تسريح شعر ابنتها بطريقة جديدة هي إنسان عامل وإن لم تحصل على إكرامية نظير هذه اللفتة الجمالية التي أضافتها!

لستَ وحدكَ تعمل . هي أيضاً تعمل!

اعتاد زوج كلما عاد إلى البيت وشكَتْ له زوجته التعب الذي تُلاقيه أثناء عملها في المنزل أن يقابل ذلك بالسخرية ، ويقول لها : ما الذي تفعلينه؟!

وعندما ضاقت به ذرعاً قررت أن تخبره على طريقتها ما الذي تفعله! وذلك اليوم قررتْ أن تشاهد التلفاز طوال اليوم ، من لحظة خروجه إلى العمل حتى عودته ، وعندما عاد من عمله ، وجد البيت كساحة حرب ، الصحون في المطبخ متراكمة تنتظر من يجليها ، الثياب التي خلعها الأولاد بعد عودتهم من المدرسة متناثرة هنا وهناك ، الألعاب بالأرض ، كوب العصير الذي سكبه الصغير ما زال مكانه ، الأرض متسخة ، هذا يحمل كتابه ينتظر من يساعده في حل واجبه ، وتلك شعرها منكوش تريد من يصففه لها ، والأهم أنه لا طعام للغداء اليوم!

صُدم الزوج من حالة البيت ، واعتقد أن أمراً جللاً قد حدث ، نظر إليها فإذا هي بكل هدوء تنظر إلى شاشة التلفاز! سألها : ما الذي حدث؟ فقالت : لا شيء ، غير أني قررتُ أن لا أقوم بما أقوم به كل يوم!

قلتُ لك في بداية الكلام في هذا الموضوع ما يلي :

هناك أشياء كثيرة تحكم على أي جهد إنساني إن كان عملاً أم لا غير العائد المادي ، وهي أثر هذا العمل ، الجهد المبذول في هذا العمل ، وما هو شكل العالم لو لم يقم هذا الشخص بهذا العمل!

والآن دعنا نأخذ هذه الثلاثة واحدة واحدة .

أولاً: أثر هذا العمل

أنتَ تلبسُ ثياباً نظيفة لأن هناك من يغسلها لك ، وتبدو أنيقاً بقميصك لأن هناك من كواه بعد أن قام بغسله ، أولادك كذلك ، برأيك لو لم تقم زوجتك بهذا العمل كيف ستكون الحياة في المنزل!

أنت تأكل طعاماً شهياً لم يطبخ نفسه ، هناك من طبخه ، أولادك صحتهم جيدة لأن هناك من يعرف كيف يطبخ طعاماً صحياً ومناسباً ومتكاملاً ومتنوعاً ، برأيك لو لم تقم زوجتك بهذ العمل كيف ستكون الحياة في المنزل!

يباغتك ضيوفك في بيتك فجأة ، ولكنك لا تشعر بالحرج ، غرفة استقبال الضيوف مرتبة ، الستائر مناسبة للأثاث ، كل شيء مكانه ، يحصل ضيوفك على ضيافتهم ، أكواب الشاي مناسبة للصحون التي تُقدم فيها ، السكر في علبة جميلة ، ملعقة للشاي وأخرى للسكر ، هناك حلوى وفاكهة ، حتى المحارم الورقية ما إن يلتفتُ الضيف حتى يجدها في متناول يده ، من قام بكل هذا ، من أعد خطة طوارئ جميلة لم تخطر على بالك أنت؟!

برأيك كيف سيكون شكل الحياة في منزلك لو لم تقم هي بهذا!

أولادك نظيفون لأن هناك من يهتم ، أصحاء لأن هناك من يكترث ، يحصلون على علامات جيدة لأن هناك من يُدرِّس ، لبِقون في كلامهم مع الآخرين لأن هناك من يُربي ، برأيك كيف سيكون شكل الحياة في منزلك لو لم تقم هي بهذا!

قاطع، وأضعف ما فى هذه الروايات تكرار المكافأة بإسقاط الخراج وهى مكافأة لا توافق جنايات الغدر والغيلة؛ لأنها تتجدد فى كل موعد خراج، ولا يزال السؤال عن سبب إسقاطه متجددًا بين العمال وأصحاب الأمر، حتى تنكشف المكيدة كلها مع الأيام، وما كان معاوية يعاجز عن المكافأة على دس السم للأعداء ببذل المال المعجل والمؤجل فى الخفاء، فلا يسع المؤرخ أن يقبل هذه التهم جازمًا ولا أن يرفضها جازمًا، ولكن الشبهات والأقاويل وحدها تحدثنا بالشىء الكثير عن ظنون الناس بمعاوية ووسائله إلى قضاء ما يبغيه.

* * *

ونحسب أننا فى هذا الفصل قد ألممنا بأفانين الدهاء التى نسبت إلى رأس الدولة الأموية، ويتبين منها جميعًا أن دهاءه من قبيل الدهاء الذى يعول على قضاء المصالح وتبادل المنافع، ويتساوى فيه دهاء الطرفين أو يكون الرجحان من قبل الطرف الآخر. فليس دهاء معاوية من قبيل ذلك الدهاء الذى يسوق الأعوان سوقًا إلى خدمة مقاصده بسلطان القدرة العقلية الخارقة وغلبة الإقناع لا برهان فيه على الحقيقة، ولكنه ضرب من «التنويم المغناطيسى» تعمل فيه المشيئتان بمشيئة واحدة..

وإنما استطاع معاوية أن يستهوى الناس إليه بقضاء المصالح لقيامه على ولاية الشام عشرين سنة واستئثاره بأقطارها جميعًا على أيام عثمان بن عفان، واحتجازه لما شاء من أموالها وخيراتها وولاء أعوانها بغير رقابة عليه بعد أيام الفاروق..

فالرجل على نصيب متوسط من العقل يملى له طبع مفطور على الأناة لم تتعجله الحوادث قط كما تعجلت منافسيه فى الحجاز والعراق، وكان ذلك النصيب حسبه من العدة فى ذلك النزاع الذى لا سواء فيه بين المصاعب والعقبات من الجانبين.

* * *

ولو أنه قورن بينه وبين زملائه فى سعة الدهاء؛ لكان آخر الأربعة صفًا أو لم يكن على اليقين أول الأربعة قبل عمرو بن العاص على الخصوص؛ فإن الفارق بينهما كالفارق بين العبقرية والدربة[٣٠] أو بين العقل المشبع بالقوة والحيوية والعقل الذى قصاراه من الرأى أن يحذر ويتربص ويتجنب حيثما كان.

---

(٣٠) الدربة : المرانة والعادة على الشىء.

وخطب يومًا فقال: «والله لا أحسن السيف على من لا سيف له، وإن لم يكن منكم إلا ما يستشفى به القائل بلسانه فقد جعلت ذلك دبر[1] أذنى وتحت قدمى»..

وحدُ الحلم عنده ألا يكون فى العدوان والتطاول مساس بملكه وسلطانه. أغلظ له رجل فأكثر، فقيل له: أتحلم عن هذا؟ فقال: إنى لا أحول بين الناس وبين ألسنتهم ما لم يحولوا بيننا وبين ملكنا».

ووجه آخر غير هذه الوجوه كان من دواعى اللهج عند معاوية بفضيلة الحلم قبل غيرها من الفضائل التى كان فى وسعه أن يلهج بها كالعطاء والتدبير وعلو الهمة وما إلى ذلك من المناقب التى يسلم له بها الأنصار ولا يجحدها كثير من الخصوم.

كان الحلم دعاية سياسية فى خصومته مع على بن أبى طالب بما اشتهر به من فضائل الشجاعة والأمانة والتقوى.

كان الحلم صفة من أعز صفات الرئاسة عند الأمة العربية، وما نحسبها غالت قط بمحمدة من محامد الرئاسة مغالاتها بالحلم وقرينه «الحكمة»...

وربما مدحوا الكرم والشجاعة فأكثروا فى مديحهما إكثارهم فى القول المعاد من قبيل تحصيل الحاصل..

فأما الحلم فقد كانوا يغالون فى الثناء عليه؛ لأنه محمدة يطلبونها فى الرؤساء ولا تجرى مجرى الصفات المبذولة لسائر المتصفين، ولما اختلف على ومعاوية لم يكن أحد ينكر على علىٍّ شجاعته وتقواه وسابقته إلى الإسلام وقرابته من رسول الله، فإذا شاء معاوية أن يوازيه بصفة من صفات الرئاسة؛ فتلك هى الحلم دون غيره، ودعواه فيها أنه هو صاحب الرأى والحلم والحزم، وأن عليًا صاحب الشجاعة والصلاح، وقد شاعت الموازنة بينهما بهذا المعنى على ألسنة الدعاة من حزب معاوية، وكاد أن يقبلها الناقدون لعلى من حزبه لاشتداده فى الحق الذى لا مثنوية فيه، وأمسك معاوية على كل لجاجة فى أمر التقوى والصلاح ليقول كلما نافس عليًا وابنه الحسن: إن لم أكن خيركم فأنا خيركم لدنياكم.

فالحلم عند معاوية وسيلة من وسائل التحبب إلى الناس، ووسيلة من وسائل الدعاية السياسية يعزز بها حجته ولا يستطيع أن يفخر بصفة غيرها فى مقام المفاضلة بينه وبين الرجل الذى سلم له المنصف والمكابر بفضيلة الشجاعة وفضيلة التقوى.

---

(١) دبر: الدبر من كل شيء عقبه ومؤخره.

والمزاح، والعالم الإسلامى لم يتعود بعد طغيان الملك، ولم يتعود ملوكه أن يسوموا الناس الصبر على ما يكرهون ولا يترقبوا منهم رد الكلام بمثله فى كل مقام..

قدم جارية بن قدامة السعدى عليه فقال: من أنت؟ قال: جارية بن قدامة. قال: وما عسيت أن تكون؟ هل أنت إلا نحلة؟ قال: لا قل. فإنما شبهتنى بها حامية اللسعة حلوة البصاق. ووالله ما معاوية إلا كلبة تعاوى [٦] الكلاب وما أمية إلا تصغير أمة!

ورويت هذه القصة على رواية أخرى، فقيل: إن معاوية بادره قائلاً:

«أنت الساعى مع على بن أبى طالب والموقد النار فى شُعَل – جمع شعلة – تجوس قرى عربية لتسفك دماءهم؟ فقال جارية: يا معاوية، دع عنك عليًا فما أبغضنا عليًا منذ أحببناه ولا غششناه منذ صحبناه. فقال له معاوية: ويحك يا جارية! ما كان أهونك على أهلك إذ سموك جارية، لا أم لك!.. قال جارية: أمٌّ ما ولدتنى. إن قوائم السيوف التى لقيناك بها بصفين فى أيدينا.. إنك لم تملكنا قسرة ولم تفتتحنا عنوة، ولكن أعطيتنا عهودًا ومواثيق فإن وفيت لنا وفينا وإن ترغب إلى غير ذلك فقد تركنا وراءنا رجالاً مدادًا [٧] وأذرعًا شدادًا، وأسنة حدادًا. فإن بسطت إلينا فترًا من غدر دلفنا إليك بباع من ختر... قال معاوية: لا أكثر الله فى الناس من أمثالك.

وما نظن معاوية كان مخاطبًا بذلك الخطاب رجلاً يوصف فى عصرنا هذا بأنه من «آكلى النار» ثم لا يترقب منه جوابًا كجوابه، ولعله كان يرضيه أن يسمع منه تسليمًا واستكانة فيطمئن إلى غلبته ورسوخ سلطانه ولكنه – ولا ريب – لم يغب عن ذهنه أن جارية أهل لأن يسمعه ما سمع، وأن يطرفه بتلك الطرافة اللاذعة التى لا يأباها كثير من الناس، وهى طرافة الجواب السريع المتوقع ممن يحسن رد الكلام بمثله فى هذا المقام..

ومن الجواب المستدعى – أو المستثار – قول خريم بن فاتك وقد دخل على معاوية مشمرًا مئزره، فقال له: «لو كانت هاتان الساقان لامرأة؟» وكان معاوية عظيم الأليتين يهجى فيقال فيه: إنه الجاحظ العين العظيم الحاوية [٨]، فما عتّم [٩] خريم أن أجابه قائلاً: «فى مثل عجيزتك [١٠] يا أمير المؤمنين»!..

(٦) تعاوى: عاوى الكلاب: صايحها، وعوى مثلها. (٧) مدادًا: جمع مديد أى طويل.
(٨) الحاوية: الأمعاء. (٩) عتّم: يقال: ما عتّم أن فعل كذا أى ما لبث وما بطأ.
(١٠) العجيزة: العجز: هو ما بين الوركين، والمؤخرة.

ولا يمترى فيه مسلمان يؤمنان بالحق حيث كان، وأظهره رد العدوان فى غير داعية للعدوان.

كان عنده زيد بن عمر بن الخطاب، وأمه بنت على أم كلثوم. فنال بسر بن أرطأة من الإمام، فما أمهله زيد أن قام إليه فعلاه بالعصا وشج رأسه. فلم يزد معاوية على أن قال لزيد: عمدت إلى شيخ قريش وسيد أهل الشام فضربته؟ ثم التفت إلى بسر فقال: تشتم عليًا على رءوس الناس وهو جده وابن الفاروق ثم تراه يصبر على ذلك؟!

وكل أولئك شبيه أن يكون: بسر بن أرطأة قاتل طفلين باليمن لعبيد الله بن عباس ينال من على فى حضرة معاوية، وزيد بن الفاروق لا يشبه أباه إن صبر على ثلب[15] جده فى مكان حيث كان، ومعاوية يرضى عن سفاهة بسر أن مضت فى سبيلها، ولكنه لا يبطش بزيد أن غضب لجده وأصاب السفيه بجريرة سفاهته، ولا تساوى تلك السفاهة أن يشتريها بالنكال الذى تعود عليه اللائمة فيه ولا تعود عليه منه زيادة فى ملكه، وكل أولئك ـ كما أسلفنا ـ شبيه أن يكون، فلا يحسبه أحد فى ذلك العصر من حلم معاوية، بل يحسبه من جبن زيد إن لم يصنع ما صنع بابن أرطأة.

وإن الأشبه بالصدق فى جملة تلك الروايات أن معاوية كان يحب هذا الملق ويحب هذه الاستثارة؛ لأنها تمتعه بذكرى الشدائد التى تخطاها بعد فوات الغاشية[16]، وتريحه إلى لقاء خصومه وهم فى كنفه ينظرون إليه فى مستقر نجاحه وظفره، ولا يضيرونه بقولة يقولونها لا تحول بينه وبين ملكه كما قال..

وغير بعيد أنه كان يترك جلساءه يتحرشون بذوى اللسن من العلويين ليضحك مما ينالهم كما يفعل ذوو السلطان فى كل زمن وكل أمة، فربما كانت سخريتهم بالأنصار أمتع لهم من صد الخصوم، وقد يطلقون بعضهم على بعض؛ ليسخروا منهم جميعًا إن لم يكن لهم خصوم يعرضونهم للسخرية طائعين أو كارهين.

* * *

وقد اجتمع من سجال[17] بنى هاشم وخصومهم فى مجلسه ما ينعقد به سجل خاص فى مأثورات الحوار فى كل مقام، ويصحح وقوعه فى رأينا أنه لو حدث لما أمكن حدوثه على غير ذلك النمط الذى تناقله الرواة.

(١٥) ثلب : سب وشتم. (١٦) الغاشية: الداهية والقيامة.

(١٧) سجال: ساجل فلان صاحبه: عارضه وباراه وفاخره وصنع مثل صنيعه.

إنها غريبة من معاوية إلا أن تكون مقصودة لغير ظاهرها مع رجل له ظاهر وباطن يستطلع بهذه المفاجئة و لا يستطلع بغيرها، وقد يبدو منه ما تنكشف به جلية الموقف بينه وبين سائر بنى هاشم، وكل بنى هاشم غير عبد الله بن عباس فظاهرهم وباطنهم لا يختلفان إذا سمعوا مثل ذلك النذير..

هذا أو تكون نفثة من نفثات الكظم تنطلق منه حيث يقدر الأمان مع رجل يخفى باللسان ما لا يضمره الجنان.

* * *

وأمثال هذه الردود الخشنة جميعًا لم تكن فى ذلك العصر مما يستكثر فى مناسباتها، وقد سمعها معاوية - أو سمعها جلساؤه معه - متوقعة مستثارة، ولم يتعود الناس يومئذ أبهة الملك وطاعة العبيد للسادة، ولم يتعود الأمير كذلك أن يسوم الناس سكوتًا فى موضع القول، وإغضاء فى موضع الأنفة، وإنما كان الأمير خليفة يتشبه بالخلفاء الراشدين فى حق الطاعة، ولم يعد أحد من هؤلاء الخلفاء أن يخاطب إنسانًا بما يسوءه ثم يستكثر عليه أن يجيبه بمثل خطابه، فهذه «هرقلية» لم يتعودها الرعاة ولا الرعايا، ولم يكن فى طاقة معاوية أن يروِّض رعاياه عليها دفعة واحدة، فإذا تمهل فيها آونة بعد آونة فإنما يكون التمهيل بمثل ذلك الصبر على كره أو على اختيار.

ومن الوقائع التى رويت عنه، وقائع يلتبس فيها الحلم وبطء الغضب وطول الروية والأناة، ومنها ما يتلقى فيه الإساءة أو الوعيد على البعد ويتسع له الوقت قبل الإجابة عنها بما يروى فيه النظر ويرتضيه..

عدا عبيد لمعاوية على أرض ابن الزبير فكتب إليه ابن الزبير: «أما بعد يا معاوية، إن لم تمنع عبيدك من دخول أرضى وإلا كان لى ولك شأن».

وقيل: إن معاوية أطلع ابنه يزيد على كتاب ابن الزبير وسأله: ما ترى؟ فقال له يزيد: لتنفذن إليه جيشًا أوله عنده وآخره عندك يأتوك برأسه.

فقال: بل عندى يابنى خير من ذلك، وكتب إلى ابن الزبير:

«وقفت على كتابك يا ابن حوارى[٢٢] رسول الله ﷺ، وساءنى والله ما ساءك، والدنيا هينة عندى فى جنب رضاك، وقد كتبت على نفسى رقيمًا[٢٣] بالأرض والعبيد وأشهدت على ما فيه، ولتضف الأرض إلى أرضك والعبيد إلى عبيدك والسلام».

(٢٢) حوارى: أحد أنصار النبى.

(٢٣) رقيمًا: كتابًا، ورقم الكتاب: كتبه.

ففى وزن الرجال وتمحيص الأخلاق وفهم الطبيعة الإنسانية – أى فهم الإنسان – لا جدوى من التعويل على ألفاظ الصفات، ولابد من الرجوع إلى الوقائع ومالها من الأثر الطبيعى فى الضمير وما ينم عليه هذا الأثر من خليقة نفسية أو ملكة عقلية.

وهذه الوقائع التى رويت عن معاوية تبدى لنا منه صفة لا شك فيها وهى طول الأناة وبطء الغضب، وليست هى بالصفة التى ترادف الحلم كما يفهم لأول وهلة، إذ كثيرًا ما يكون بطء الغضب شيئًا «سلبيًا» يدل على امتناع الغضب طبعًا أو قلة الاستعداد له فى الخلقة، ولا تكون الفضيلة أبدًا «شيئًا سلبيًا» قوامه غياب أثر من الآثار النفسية وكفى.

فليس معنى الشجاعة – مثلاً – تجرد الطبع من الشعور بالخوف؛ لأن الإنسان الذى يقدم على الخطر وهو لا يشعر به، يندفع اندفاع الجماد ولا فضل له فى اندفاع لا يكلفه الغلبة على خوف يساوره فى ضميره.

* * *

وليس معنى الكرم تجرد الطبع من الشعور بقيمة المال أو قيمة المنحة المبذولة؛ لأن من يتصرف فى شىء لا قيمة له عنده، كمن يتصرف فى التراب والهواء وما إليهما من مبذول العطاء.

وليس معنى العفة تجرد الطبع من الشعور بالشهوات؛ لأن من لا يشتهى لا يطلب ولا يقاوم الإغراء ولا تحسب له عفة.

وليس معنى الحلم تجرد الطبع من الشعور بالغضب؛ لأن التجرد من هذا الشعور قد يأتى من بلادة فى الطبع وركود فى حركة النفس ومقابلة العوامل الطبيعية بما يناسبها من الانفعال.

وإنما الحلم أن يغضب الإنسان وأن يحكم غضبه بإرادته؛ إيثارًا لأمر يفوق الغضب فى قيم الأخلاق..

فمن الحلم أن يأنف الإنسان من الاستسلام للغضب؛ لأنه يرتفع بكرامته أن تصيبها إساءة المسىء.

ومن الحلم أن يصفح الإنسان عن الإساءة؛ إيثارًا للخير وعطفًا على المسىء كما يعطف الأب الرحيم على الولد الجاهل بما يصنع فى حق أبيه.

ما رأيت أجهل منكم. إن معاوية يقدر فيحلم وأنا أحلم ولا أقدر، فكيف أقاس عليه أو أدانيه؟

فإذا سمع السامع المتعجل هذا فحرى أن يتقرر لديه رجحان معاوية فى الحلم بشهادة الرجل الذى يضرب به المثل فى حلمه، وأى شهادة عسى أن تكون أصدق من هذه الشهادة..!

وما هى إلا معاودة لحظة فى السؤال والجواب حتى يتقرر على خلاف ما تقدم أن السؤال كان لا يحتمل جوابًا غير ذلك الجواب، لو أنه سؤال ما كان ينبغى أن يتوجه للأحنف ويترقب سائله أن يقول له: بل أنا أحلم من معاوية!.. وقد كان الأحنف خاصة يرى من عرف الحلم أن يستصغره، وأن يقول عن نفسه كما نقل صاحب العقد قبل ذلك بسطر واحد: لست حليمًا ولكننى أتحالم.

* * *

ولو أن الأحنف قال برأيه ذاك اعتقادًا ولم يقل به تواضعًا أو تحالمًا؛ لكان على خطأ لا يخفى عند النظرة اليسيرة فى أسباب تفضيله معاوية على نفسه.. فما هى القدرة التى كانت مطلوبة من الأحنف فى مقامه؟ لقد كان يكفيه أن يقدر على كلمة لا يعجز عنها أحد، وكان يكفيه أن يمسك تلك الكلمة فيكون أقوى الناس على نفسه كما وصفه خالد بن صفوان، وأما الملوك فالمطلوب منهم أعمال لا يقدرون عليها فى كل وقت ولا مع كل أحد، إلا أن يكون المقصود بالقدرة طياشة جامحة تخبط ما تشاء بغير مبالاة، وليس قصارى الحليم أنه غير الطياش وغير الخابط الذى لا ينظر إلى عقباه.

ويوزن الراوى فى روايته هذه، فلا نجهل موقع الهوى فيما يشاع عن حلم معاوية، ويسر انتقال الإشاعة من قائل إلى قائل ومن ناقل إلى ناقل. فما فى هوى الأندلسيين لبنى أمية من خفاء ودولتهم الأولى أموية فى أساسها، وابن عبد ربه نفسه حفيد لسالم القرطبى مولى هشام بن عبدالرحمن الداخل بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان، وأقل ما يقال فى نقل ابن عبد ربه لكلمة الأحنف أنها تزكية لرأس الدولة الأموية رحب بها ووافقت هواه.

ونعود إلى تاريخ معاوية فيما قاله وفيما سكت عن قوله منذ نشأته الأولى فلا نجد فيه أثرًا واحدًا لطبيعة الغضب التى تمتحن بها فضيلة الحلم كما امتحنت فى نفس الرجل الحزين فى صدمة الثكل وهو المقتحم المغوار فى الجاهلية والإسلام.

ولسنا نفهم من ذلك أن معاوية كان فى حكم القاصر فى شبابه وكهولته، ولكننا نفهم أن أباه كان يعرفه، وكان يعرف أنه لا يحتكم إلى طبيعة تغضب من الأمور بمقاديرها.

حدث صاحب العقد الفريد فى الجزء الأول عن أبى حاتم عن العتبى قال: «قدم معاوية من الشام وعمرو بن العاص من مصر على عمر بن الخطاب، فأقعدهما بين يديه وجعل يسائلهما عن أعمالهما إلى أن اعترض عمرو فى حديث معاوية فقال له معاوية: أعملى تعيب وإلىَّ تقصد؟! هلم تخبر أمير المؤمنين عن عملى وأخبره عن عملك. قال عمرو: فعلمت أنه بعملى أبصر منى بعمله، وأن عمر لا يدع أول هذا الحديث حتى يصير إلى آخره، فأردت أن أفعل شيئًا أشغل به عمر عن ذلك، فرفعت يدى فلطمت معاوية. فقال معاوية: إن أبى أمرنى ألا أقضى أمرًا دونه. فأرسل عمر إلى أبى سفيان، فلما أتاه ألقى له وسادة، وقال: قال رسول الله ﷺ: إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه، ثم قصَّ عليه ماجرى بين عمرو ومعاوية، فقال: لهذا بعثت إلىَّ؟ أخوه وابن عمه، وقد أتى غير كبير. وقد وهبت ذلك له».

وصاحب العقد ـ على هواه الأموى ـ يسوق هذه القصة فى سياق الثناء، ولسنا نفهم من ذلك أن أباه كان يعرف وكان يُعرف أنه لا يحتكم إلى طبيعة تغضب من الأمور بمقاديرها، وأنه إذا غضب يتغاضب بالرأى والاختيار فيخطئه التقدير.

وموقفه مع حجر وأصحابه ظاهرة نفسية معهودة فى الطبائع التى تصدم فتقبل الصدمة وتحذر من الاندفاع، ولكنها إذا تركت بلا صدمة تردها لم تعرف حدود الارتداد ولا تأبى أن تستسلم للاندفاع.

تلك الظاهرة من مورثات طبيعة المطاردة فى الإنسان وفى الحيوان أو السبع من قبله.. فقد علم المراقبون لطبائع الحيوان أن المطاردة عنده تقوم على حركات متتابعة، ولا تقوم على حركة واحدة. فإذا لمح الحيوان من خصمه أنه يجفل منه أخذ فى الهجوم، وإذا عدا خصمه أمامه أخذ فى العدو وراءه، وإذا أدركه ولم يجد منه مقاومة تمادى فى صرعه وافتراسه، و لعله لو وقف أمامه رابط الجأش من مبدأ الأمر لم تتنبه فيه حركة الهجوم، فحركة المطاردة، فحركة اللحاق والافتراس. وعرف صادة الأسود – وهى أخطر السباع – أنها تتردد إذا واجهها الإنسان ثابت النظر، راسخ القدمين.

* * *

خليقة أموية

تميزت لبنى أمية فى الجاهلية وصدر الإسلام خلائق عامة يوشك أن تسمى - لعمومها بينهم - خلائق أموية، وهى تقابل ما نسميه فى عصرنا بالخلائق الدنيوية أو النفعية، ويراد بها أن المرء يؤثر لنفسه ولذويه ولا يؤثر عليها وعليهم فى مواطن الإيثار.

وهذه الخلائق أعون لنا على التعريف بمعاوية من الخلائق التى ينسبها إليه المادحون والقادحون؛ لأن المادحين والقادحين قد يصدرون عن غرض، وقد ينوون الصدق، ولكنهم يخطئون فى أمر الرجل الواحد، أما الأخلاق التى تعم قبيلاً بأسره فى أجيال متتابعة فهى أصعب تلفيقًا على الملفقين، وأصعب خطأ على المخطئين، فإن الإجماع على الخطأ نادر فى أخبار الناس كالإجماع على الصواب.

وهذه الخلائق الأموية دنيوية نفعية كما قدمنا، تميل بالمتخلقين بها إلى مناعم الحياة وتحبب إليهم العيش الرغد والمنزل الوثير[1]، وتغريهم بالنعم واللذات يغدقونها على أنفسهم وعلى الأقربين ، فهى عندهم قسطاس البر بمن يحبون كما يحبون.

وقد عرف خيارهم، دينًا وصلاحًا، بهذه الخلائق الأموية كما عرف بها كثيرون منهم لم يشتهروا بدين ولا صلاح.

فما عرف من بنى أمية أحد أصلح من عثمان بن عفان وعمر بن عبد العزيز رضى الله عنهما، وما تكلم متكلم عن هذين العلمين الرفيعين من بنى أمية فاستطاع أن يسكت عما طبعا عليه من حب النعمة ووجاهة الدنيا على أحسن ما يروى عن الأمويين.

كان عثمان رضى الله عنه يقول عن نفسه كما جاء فى كتاب الرياض النضرة: «كنت رجلاً مستهترًا[2] بالنساء» وكان استهتاره بهن أن يكثر من الزواج..

وحب عثمان لاتخاذ المبانى والعمائر مشهور، وحبه لاختصاص ذوى قرباه وإغداق النعمة عليهم مشهور كذلك، وكله مما أحصاه عليه الثائرون ووجدوا فيه متسعًا للتزيد والادعاء.

(١) الوثير: الوطيء اللين من الفرش.

(٢) مستهترًا: استهتر الرجل: اتبع هواه فلا يبالى بما يفعل، وبفلانة: أولع بها فلا يبالى بما قيل فيه لأجلها.

العرف أن تروض بيوت الرئاسة أبناءها على نظام كالنظام العسكرى، فى صباهم وبعد بلوغهم مبلغ الشباب الذى يندب للقتال أو لتصريف الأمور، وسواء اختاروا البادية لتدريب الأبناء على هذه الرياضة أوعهدوا بها إلى المربين فى المدن والدور فلا ينشأ الناشئ منهم إلا على رياضة من هاتين الرياضتين، وكذلك فعل عبدالعزيز بن مروان فى تربية ابنه عمر فاختار له المؤدب الذى يثقفه ويأخذه بفرائض دينه ودنياه، ولما بلغه من هذا المؤدب – صالح بن كيسان – أن الفتى الصغير يتأخر عن موعد الصلاة لاشتغاله بترجيل شعره أرسل إليه من قِبَله رسولاً خاصًا، فأمره ألا يكلمه حتى يقص شعره ويبلغه غضب أبيه، ولا نحسب أن أحدًا من رؤساء البيت غفل عن مثل هذه الرياضة فى تنشئة بنيه، ولكنها رياضة تنتهى إلى القدوة البيتية فلا يبقى لها من أثر أو لا يبقى لها إلا الأثر الضعيف. وكان عبدالعزيز يعاقب عمر ذلك العقاب وهوينزع فى الترف منزعًا لا يستطيع ابنه – وإن أسرف – أن يذهب إلى مدى أبعد من مداه، فاقتنى الدور فى مصر وجملها بالأثاث الفاخر، وجعل يهديها إلى أبنائه وذويه، واشترى أرض حلوان بعشرة آلاف دينار ليقيم عليها قصره المنيف الذى موه جدرانه بالذهب وأنفق على فراشه وأثاثه عشرات الألوف، وكان له كل يوم ألف جفنة للقرى بدار الضيفان وكانت أيامه كلها كأنها أيام أعياد كما جاء فى معجم البلدان :

كل يوم كأنه عيد أضحـــى عند عبدالعزيز أو يوم فطر

وله ألف جفـــنة مـــترعات كل يوم يمـــدها ألف قدر

* * *

وشهد هذا البذخ كله عمر وتقلب بين أعطافه، فلولا عرق من الفاروق أدركه؛ لما تحول من هذا البذخ إلى النسك الذى ضارع به أزهد الخلفاء الراشدين..

وليس عبدالعزيز – على هذا – بالمثل الذى يقال عنه: إنه «نموذج» للخليقة الأموية فى الكلف بالنعمة الدنيوية والعجب بالزينة والشارة[٧] وبالقسامة[٨] والوسامة، بل كانت هذه الخليقة على أتمها فى سليمان بن عبدالملك أكلفهم بنعمة العيش حيث كانت فى طعام أو كساء أو ترف أو سرف أو خيلاء..

كان نهمًا لا يشبع ولا يرجع الخوان من بين يديه وعليه بقية، وكان يلبس

---

(٧) الشارة: الهيئة واللباس الحسن.

(٨) القسامة: الجمال والوسامة.

والريف والشهوات» فقال عمر: «سأحدثك أنا.. ما بك إلا إلطافك نفسك بألطف الطعام وتصبحك حتى تضرب الشمس متنيك[١٤] وذوو الحاجات وراء الباب؟ فقال معاوية: يا أمير المؤمنين، علمنى أمتثل، قال راوى الخبر: فلما جئنا ذا طوى أخرج معاوية حلة فلبسها، فوجد عمر منها ريحًا كأنه ريح طيب، فقال: يعمد أحدكم فيخرج حاجًا مقلاً حتى إذا جاء أعظم بلدان الله حرمة أخرج ثوبيه كأنهما كانا فى الطيب فلبسهما؟ فقال معاوية: إنما لبستهما لأدخل بهما على عشيرتى وقومى. قال عمر: والله لقد بلغنى أذاك هنا وفى الشام».

وزاد راوى الخبر فقال: «والله يعلم أنى لقد عرفت الحياء فيه. ثم نزع معاوية ثوبيه ولبس ثوبيه اللذين أحرم فيهما».

وروى عمرو بن يحيى بن سعيد الأموى عن جده قال: «دخل معاوية على عمر وعليه حلة خضراء، فنظر إليها الصحابة، فلما رأى ذلك عمر وثب إليه بالدِّرَّة[١٥] فجعل يضربه بها، وجعل معاوية يقول: «الله الله فىَّ يا أمير المؤمنين. فرجع عمر إلى مجلسه، فقال له القوم: لم ضربته يا أمير المؤمنين، وما فى قومك مثله؟ فقال: والله ما رأيت إلا خيرًا وما بلغنى إلا خير، ولو بلغنى غير ذلك؛ لكان منى إليه غير ما رأيتم، ولكن رأيته – وأشار بيده – فأحببت أن أضع منه ما شمخ».

* * *

ولم يكن زهوه بسمته وسماته دون زهو سليمان، فكان يصفر لحيته كأنها الذهب.. وقد أصابته لوقة فى آخر عمره – وهى كأثر الضربة فى الجلد – فكان يستر وجهه ويقول: «رحم الله عبدًا دعا لى بالعافية فقد رميت فى أحسنى، ولولا هواى فى يزيد لأبصرت رشدى».

وهواه فى يزيد لون من ألوان هذه الخلة الأموية، فكل الآباء يحبون الأبناء.. ولكن القوم لا يحسبون الأب بارًا بابنه إلا إذا «نعمه» أو شغل بتنعيمه فيما ينظر فيه الآباء من رغد أبنائهم وفيما يتركونه لهم ويتغاضون عنه كأنهم يجهلونه. وقد أرسل معاوية ابنه يزيد إلى بادية بنى كلب – أخواله – ليتربى بينهم على الفروسية والبلاغة العربية، ولكنه فعل ذلك كأنما يفعله قيامًا بما تقتضيه مراسم السلف ولم يتبعه بما هو ألزم ليزيد من ضروب التربية والرياضة على كبح الأهواء ولاسيما الهوى الذى ينظر إلى حرمات الناس وأعراض الرعية، فقد علق

(١٤) متنيك: المتنان جانبا الظهر.

(١٥) الدرة: بكسر الدال المشددة: سوط يُضرب به.

روى الواقدى أن عمرو بن العاص «دخل يومًا على معاوية بعدما كبر ودق ومعه مولاه وردان، فأخذا فى الحديث وليس معهما أحد غير وردان، قال عمرو: يا أمير المؤمنين! ما بقى مما تستلذه؟ فقال: أما النساء فلا أرب لى فيهن، وأما الثياب فقد لبست من لينها وجيدها حتى وهى بها جلدى فما أدرى أيها ألين، وأما الطعام فقد أكلت من لذيذه وطيبه حتى ما أدرى أيه ألذ وأطيب، وذكر مثل ذلك عن الطيب وغيره من مناعم الحياة. ثم قال: فما شىء ألذ عندى من شراب بارد فى يوم صائف، ومن أن أنظر إلى بنى وبنى بنى يدورون حولى.

وعطف معاوية سائلاً: فما بقى منك يا عمرو؟

قال عمرو: مال أغرسه فأصيب من ثمرته ومن غلته.

فالتفت معاوية إلى وردان فقال: ما بقى منك يا وردان؟

قال وردان: صنيعة كريمة سنية أعلقها فى أعناق قوم ذوى فضل واصطبار لا يكافئوننى بها حتى ألقى الله تعالى، وتكون لعقبى فى أعقابهم بعدى.

فقال معاوية: تبًا لمجلسنا سائر اليوم.. إن هذا العبد غلبنى وغلبك..».

خليقة أموية عربية. مضى الرجل على سجيته فلم يخطر له أن يستبقى من متاع الدنيا الذى عجز عنه إلا شيئًا يذاق، وشيئًا يسره من النظر إلى ذريته، ثم نبه المنبه إلى المكرمات المأثورة فلم يجحدها ولم يعزب عنه حميد أثرها.

وإن شئت فقل: خليقة أموية وكفى.. فإن من أثرة ما يوحى إلى صاحبه ألا ينزل طواعية عن مأثرة يرتفع بها غيره، ولا يسعه أن ينكرها.

وهكذا كانت الخليقة الأموية مع المروءة العربية فى كل مأثرة محمودة بين عشائر العرب الكبرى وبين العرب خاصة وعامة، وأولها مناقب الشجاعة والكرم والنخوة، فما كان فى وسع بنى أمية أن يغمضوا أعينهم عن هذه المناقب، ولا أن يصغروا من حقها، ولكن التسليم للمنقبة شىء، والجهد فى تحصيلها شىء آخر.. ولهذا مضى تاريخ بنى أمية فى الجاهلية وليس بينهم واحد معدود حين يعد العرب فرسانهم المقدمين وأجوادهم المشهورين وذوى النجدة من صفوة عشائرهم ونخبة ساداتهم، وظهر فيهم الشجعان فى صدر الإسلام كيزيد بن أبى سفيان، وهو أخ غير شقيق لمعاوية، ولكنه لا يحسب عندهم ولا عند غيرهم من فرسان هاشم فى جيل واحد، كعلى وحمزة.

موقف معاوية من قضية عثمان

كل خبر من أخبار العصر لازم مطلوب لفهم تاريخه وأعمال رجاله، ولكن الأخبار المقدمة على غيرها فى حوادث العالم الإسلامى التى أفضت إلى قيام الخلافة الأموية، إنما هى الأخبار التى لها مساس بموقف معاوية من عثمان قبل مقتله وبعد مقتله والمبايعة لعلى بالخلافة فى الحجاز.

فبغير هذه الأخبار التى تكشف عن موقف معاوية لا يستطيع المؤرخ أن يتثبت من حقيقة البواعث التى كمنت وراء الحوادث والحروب والخصومات، ولا يستطيع أن يعرف ماهو صحيح منها وما هو مصطنع من تدبير السواس والدعاة.

فما هى حقيقة المسائل التى أثارت معاوية على علىٍ وجنحت به إلى سلوك المسلك الذى اختاره هو ومعاونوه؟ ماذا منها قد حدث فعلاً، وماذا منها لم يحدث، وقيل إنه حدث للانتفاع به فى الدعاء ورد الادعاء.. وفى الاتهام ورد الاتهام؟ أو ماذا منها قد حدث فعلاً وحرفه الدعاة إلى غير وجهته وأولوه بغير معناه؟ وماذا من تلك الحوادث جميعًا كان خليقًا أن يتغير لو تغير الموقف وتغيرت النيات والمساعى؟

كل أولئك مرهون بالنفاذ إلى حقيقة موقف معاوية من عثمان قبل مقتله، وبعد مقتله، ومبايعة على بالحجاز.

وكل ما وصل إلينا من أخبار ذلك الموقف يدل على شيء واحد لا محل فيه للخلاف الطويل بين الناظرين إليه من الوجهة التاريخية الخالصة، وهو عمل معاوية لنفسه فى كل مطلب طلبه من عثمان، وكل نصيحة أسداها إليه، وكل مشورة أشار بها عليه، فليس فى هذه المطالب والنصائح أو المشورات شيء قط تجرد من منفعة ينظر إليها معاوية فى حاضره أو مصيره، وكل ما عدا ذلك فقد يكثر فيه الخلاف ويؤول فيه التأويل.

كان معاوية فى عهد الفاروق قانعًا بعطائه السنوى وهو ألف دينار، وكان الولاة والرعية لايشكون إجحافًا ولا محاباة فيما يرجع إلى أرزاق العمال الكبار والصغار ومنهم الولاة. فلما انقضى عهد الفاروق كثرت الشكوى من تقسيم هذه الأرزاق ومن إيثار بعض الولاة بالولايات لقرابتهم من الخليفة، وكانت هذه

وعلى اختلاف الروايات فى تنقل هذه الفئة بين الكوفة والشام، وفيما قالوه وقيل لهم، لم يتغير موقف معاوية فى جميع هذه الروايات، وهو موقف الرجل الذى لا يبالى بعد أمانه على ولايته أن تنجم الفتنة حيث نجمت، وأن يبتلى بها الخليفة بنجوة منه.

وقد تفاقم الخطب ونظر الخليفة المحصور حوله يطلب الرأى من ذوى الرأى بين خاصته وخاصة المسلمين. واجتمع عنده رهط منهم يومًا أشاروا عليه بما بدا لهم، ثم خرجوا فأمسك عثمان بابن عباس فقال له: يابن عمى ويابن خالتى. إنه لم يبلغنى عنك فى أمرى شيء أحبه ولا أكرهه، وقد علمت أنك رأيت بعض ما رأى الناس فمنعك عقلك وحلمك من أن تظهر ما أظهروا، وقد أحببت أن تعلمنى رأيك فيما بينى وبينك، فاعتذر.. قال ابن عباس: يا أمير المؤمنين إنك قد ابتليتنى بعد العافية وأدخلتنى فى الضيق بعد السعة. ووالله إن رأيى لك رأى من يجل سنك ويعرف قدرك وسابقتك. ووالله لوددت أنك لم تفعل ما فعلت مما ترك الخليفتان قبلك. فإن كان شيئًا تركاه لأنه ليس لهما، علمت أنه ليس لك كما لم يكن لهما، وإن كان ذلك لهما فتركاه خيفة أن ينال منهما مثل الذى نيل منك، تركته لما تركاه له، ولم يكونا أحق بإكرام أنفسهما منك بإكرام نفسك.

قال عثمان: فما منعك أن تشير علىَّ بهذا قبل أن أفعل ما فعلت؟.. قال ابن عباس: وما علمى أنك تفعل ذلك قبل أن تفعله؟.. قال: فهب لى صمتًا حتى ترى رأيى.

وخرج ابن عباس وبقى معاوية فسأله عثمان، فأجاب كما جاء فى الإمامة والسياسة: «الرأى أن تأذن لى بضرب أعناق هؤلاء القوم. قال: من؟ قال: على وطلحة والزبير.. قال عثمان: سبحان الله!.. أقتل أصحاب رسول الله بلا حدث أحدثوه ولا ذنب ركبوه؟! قال معاوية: فإن لم تقتلهم فإنهم سيقتلونك.. قال عثمان: لا أكون أول من خلف رسول الله فى أمته بإهراق الدماء.

قال معاوية: فاختر منى إحدى ثلاث خصال!

قال عثمان: ماهى؟

قال معاوية: أرتب لك هاهنا أربعة آلاف من خيل أهل الشام يكونون لك ردءًا[٣] وبين يديك يدًا.

---

(٣) ردءًا: بكسر الراء: العون والناصر.

يا لها من رحمة ويا له من دين ، يخطئ العبد ضعفاً وشهوة ، ويستره اللهُ كرماً ومنة ، ويعفو ما دام العبد منكسراً لا يُفاخر ولا يجاهر ، ولكن ما إن ينقل هذه المعصية من باب الأسرار إلى باب الفضائح يُخرج نفسه من عفو الله!

فإذا كُنا في أعمال الخير نزداد أجراً على الكتمان ، وفي أعمال الشر نكون تحت عفو الله وستره ما دُمنا لا نجاهر ، فلماذا علينا أن نبوح بأسرار الماضي ، لماذا علينا أن ندخل في التفاصيل ونخبر كل شيء سواءَ كانت العلاقة السابقة في حلال أو في حرام ، لِتَبقَ أشياؤنا بيننا وبين الله ، الله يغفر ويصفح ، والناس يتذكرون ولا ينسون!

٣- إن الزواج رباط مقدس بين الزوجين ، يصبحُ هذا الرباط ساري المفعول في اللحظة التي يُعقد فيها القران ، ويصبح كل طرف منهما ملكاً للآخر إن جاز التعبير ، أو يصبح مطالباً بالاخلاص ونسيان كل حياته وتجاربه السابقة ، أو عدم إنشاء علاقات لاحقة ، ولكن قبل العقد ، وقبل مجيء كل طرف إلى حياة الآخر فكل واحد منهما ماضيه ملكه ولا يحق له نبش ماضي شريكه ، فهو بهذا يتدخل في شيءٍ ليس من ملكه ، وليس من حقه أن يتدخل فيه .

من قواعد الميراث في الشريعة الإسلامية أن الابن الذي يموت في حياة والده لا إرثَ له بعد وفاة الوالد ، والسبب أن الإرث هو

نصيب الحي من الميت ، وعلاقة كل من الزوجين السابقة هي موت في حياة الوالد! ليس لأحدهما أن يطالب بأن يرث! من حقه أن يسأل عن حقه ما دام موجوداً أما الغائب الذي كان بحكم الميت فليس له من الماضي شيء!

بمثل أيسر وأقرب إلى الواقع خذ عندك القضية التالية :

عندك تلفاز أردتَ أن تبيعه ، وجاءك مشترٍ واتفقتما على السعر ، وتمت الصفقة ، ثم بعد أسبوع قررتَ أن تبيع منزلك بكل ما فيه من أثاث ، فهل من حق المشتري الجديد أن يطلب منك أن تذهب إلى الرجل الذي اشترى منك التلفاز وتحضره له؟!

بالطبع لا ، لأن بيع التلفاز صفقة قديمة قد تّمتْ وانقضتْ قبل مجيئه ، والتلفاز أساساً ليس مدرجاً في الصفقة الجديدة التي أبرمتها معه!

ماضي كل من الزوجين هو هذا التلفاز الذي تم بيعه قبل إبرام الصفقة الجديدة ، فليس من حق أحدهما أن يُطالب الآخر بإحضاره ، وليس من واجب أحدهما أن يجيبه في طلبه هذا!

الزواج عقد حاضر ومستقبل وليس عقدُ ماضٍ ، هذه النقطة يجب أن ننتبه إليها جيداً!

٤- قلنا أنه من أهم الأسس التي يقوم عليها الزواج هو الثقة ، والزوجان مطالبان بالأعمال والمواقف التي تعزز ثقة كل منهما

بالآخر ، ولا أعتقد أن البوح بالماضي والتجارب السابقة عامل من عوامل إرساء الثقة وتعزيزها ، على العكس تماماً إنه في أحسن أحواله كشف صفحة من الماضي ليس من وراءها هدف إلا البوح والمعرفة فقط ، فإذا كان نسيان الماضي بكل ما فيه ، وطويه جانباً ، والاقبال على الحياة الجديدة بإخلاص يعزز الثقة ، فإن العكس هو الصحيح ، كشفه قد يكون القشة التي تقسم ظهر الزواج ، فحفاظاً على جمال الحاضر يجب كتمان الماضي!

٥- المحافظة على مشاعر شريك العمر هي واجب الشريكين تجاه بعضهما ، فالإنسان ليس لحماً ودماً فقط ، نحن مشاعر وانفعالات وأحاسيس ، فهل في كشف الماضي محافظة على المشاعر ، وابعاد للأذية ، أم أن فيه من الأذية وجرح المشاعر الكثير؟!

لا شك أنه فيه الكثير ، ومن هنا كان كتمان الماضي برمته ، ونسيانه ، ليس معروفاً نسديه لأنفسنا فقط ، وإنما معروف نسديه إلى شريك العمر أيضاً!

٦- أخيراً نسأل ما هو الهدف من البوح بالماضي؟

- إذا كان الاخلاص كما يعتقد البعض فإن الاخلاص يكون في الحياة المعاشة لا في الحياة الماضية ، كيف نُخلص في فعل قد انقضى ، الأطباء في المستشفيات لا يتوجهون إلى براد الموتى ليعالجوا جروحهم ، إنهم يتوجهون إلى غرفة العمليات ، وقسم

الطوارئ ، الميت ماضٍ لا ينفع فيه العلاج ، والجريح حاضر يجب الانتباه له ، إذاً ، لا يندرج الاعتراف بالماضي في باب الاخلاص!

- إن كان الهدف هو إخبار الشريك أنه ماضٍ وانتهى ، فلماذا نخبر أساساً عن شيء قد انتهى ، إن الناس في حياتهم اليومية يتحدثون عن غلاء المحروقات التي حدثتْ ، لا أحد يتحدث عن غلاء الخبز في السنة الماضية ، فلماذا نتحدث عن شيء لنقول أنه انتهى ، العكس هو الصحيح لأنه انتهى لا يجب أن نتحدث عنه!

- أسوأ هدف يدفع إلى التحدث عن الماضي هو المباهاة والتفاخر ، فإياك إياك أن تفعل هذا! هذا ليس بوحاً إنه تهديد مبطن! وقد جعلتُ له فصلاً خاصاً سبق الحديث عنه فلا داعي لتكراره .

نصل الآن إلى السؤال الثاني :

هل من حق الشريك أن يسعى جاهداً إلى نبش ماضي شريكه على اعتبار أنه قد صار له؟!

أعتقدُ أننا أجبنا على هذا السؤال ضمناً ونحن نجيب على السؤال الأول ، ولكن تأكيداً على الفكرة ، وبضابط لا بد منه ، ما دام الشريك لا يشعر أن ثمة ماضٍ لا يزال حياً في حياة شريكه ، فالسعي لعمل المحققين ، وأجهزة الاستخبارات ، وجهات جمع المعلومات ، هو تجسس ، أجل تجسس ، إن كل محاولة معرفة ليست من حقك معرفتها ، وفيها أذية لإنسان ما إن عرفتها ، خصوصاً أنك لا تنوي معرفتها إلا لاستخدامها ضده هي تجسس ولو كان شريك عمرك «ولا تجسسوا» آية في القرآن!

اخفِضْ سقف توقعاتك!

كثيراً ما يقع الناس ضحايا التوقعات سواءً تلك التي ننتظرها من الآخرين ، أو تلك التي ينتظرها الآخرون منا ، إننا عندما نرفع سقف توقعاتنا نفترض أنها ستُلبّى ، ومن هنا تأتي خيبتنا بالآخرين ، أو لعل الآخرين طبيعيون وهذا سقف الناس المفترض ، ولكن لأننا رفعنا السقف عالياً سقط علينا!

لتوضيح هذه الفكرة بشكل أكبر دعنا نقرأ هذه القصة الخيالية الطريفة :

في إحدى المدن تم افتتاح متجر لبيع الزوجات ، حيث يمكن للرجل الذهاب واختيار زوجة له . ووُضع على مدخل المتجر قانون عمله الذي يحكم الزبائن! وكان القانون كالتالي :

١- لا يسمحُ للزبون أن يدخل المتجر أكثر من مرة واحدة في العمر

٢- الاختيار يكون من الطوابق بالترتيب ، إذا لم تعجبك الزوجات في الطابق الأول يمكنك الصعود إلى الطابق الثاني أو الثالث وهكذا

٣- يُمنع النزول إلى الطابق الأدنى بعد مغادرته إلى طابق أعلى منه

أحد طالبي الزواج أعجبته فكرة المتجر ، وقرر أن يذهب ليختار زوجة له ، قرأ الشروط على المدخل وفهمها ، فصعد مباشرة إلى الطابق الأول ، وقرأ على بابه مواصفات الزوجات المتوفرات فيه ، وكانت :

النساء هنا لديهنّ عمل ، ومؤمنات بالله!

فقال في نفسه : وأي شيء مميز هنا ، النساء في الخارج لديهن أعمال ، والمؤمنات كثيرات ، لا ضير في الصعود إلى الطابق الثاني!

وصل إلى الطابق الثاني ممنياً نفسه بمواصفات أفضل ، وبالفعل قرأ على باب الطابق الثاني مواصفات الزوجات المتوفرات فيه ، وكانت :

النساء هنا لديهن عمل ، ومؤمنات بالله ، ويحببن أزواجهن!

فقال في نفسه : لم تختلف الأمور كثيراً ، والأمر ليس مغرياً بالدخول ، في الخارج النساء لديهن أعمال ، ومؤمنات بالله ، وكل الزوجات يحببن أزواجهن ، لا ضير في الصعود إلى الطابق الثالث!

وصل إلى الطابق الثالث ، وقرأ على بابه مواصفات الزوجات المتوفرات فيه ، وكانت :

النساء هنا لديهن عمل ، ومؤمنات بالله ، ويحببن أزواجهن ، وجميلات أيضاً!

فقال في نفسه : يبدو أن المواصفات تتحسن وتزيد كلما صعدنا إلى الأعلى ، لقد كانت النساء في الطابق الأول لديهن أعمال ومؤمنات ، ثم في الطابق الثاني صرن فوق هذا يحببنَ أزواجهن ، والآن فوق هذا هُنَّ جميلات ، لماذا لا أصعد إلى الطابق الرابع؟!

وبالفعل شدَّ صاحبنا الرحال إلى الطابق الرابع ممنياً نفسه بمواصفات أفضل مما هي عليه في الطابق الثالث ، وبالفعل كان ظنه في محله! لقد قرأ على باب الطابق الرابع مواصفات الزوجات المتوفرات فيه ، وكانت :

الزوجات هنا لديهن عمل ، ومؤمنات بالله ، ويحببنَ أزواجهنَّ ، وجميلات ، ويحببن أهل الزوج!

فقال في نفسه هذه مواصفات جيدة فعلاً ، ولكن لا شك أن النساء في الطابق الخامس أفضل ، هذه هي سياسة المتجر ، الأمر لا يحتاج إلى تفكير كثير سوف أصعد إلى الطابق الخامس!

وصل إلى الطابق الخامس ، وابتسم ابتسامة عريضة ، لقد كان ظنه في محله ، فقد قرأ على بابه مواصفات الزوجات المتوفرات فيه ، وكانت :

النساء هنا لديهن عمل ، ومؤمنات بالله ، ويحببن أزواجهن ، وجميلات ، ويحببن أهل الزوج ، ويساهمنَ في مصروف البيت!

فقال في نفسه : يا إلهي الزوجات هنا رائعات ، ولكني سأصعد إلى الطابق السادس الأمور دوماً أفضل في الأعلى!

وبالفعل عندما وصل إلى الطابق السادس صدق ظنه ، فقد كُتب على باب الطابق مواصفات الزوجات المتوافرات فيه ، وكانت :

الزوجات هنا لديهن عمل ، ومؤمنات بالله ، ويحببن أزواجهنَّ ، وجميلات ، ويحببنَ أهل الزوج ، ويساهمنَ في مصروف البيت ، ورومانسيات أيضاً!

قال في نفسه : ماذا عساه يكون أفضل من هذا ، النساء هنا مثاليات ، ولكني سأصعد إلى الطابق السابع ، الأمور في الأعلى دوماً أفضل!

وعندما وصل إلى الطابق السابع قرأ على بابه العبارة التالية :

عزيزي :

أنتَ الزائر رقم ٦٥٣٢٤١٩٨ ولا يوجد نساء هنا ، هذا الطابق برهان أنَّ الرجال لا يمكن ارضاؤهم! شكراً للتسوق في متجر الزوجات ، وانتبه لخطواتك وأنتَ تغادر ، ونتمنى لك يوماً سعيداً!

هذه القصة وإن كانت خيالية ، فإنها تضع يدها على واقع تفكير كثير من الرجال في الحياة المعاشة! ولكن هل هذا الأمر حكر على الرجال دون النساء ، بالطبع لا ، ما يوجد في الرجال بخصوص سقف التوقعات المرتفع يوجد مثله في النساء أيضاً! وإن كانت هذه القصة تظهر الرجال متطلبين ، فمن السهل أن يصوغ رجل قصة مشابهة لها ، ليقول أن النساء يستحيل ارضاؤهنَّ ، الأمر ليس عسيراً ، أنا بسهولة يمكنني أن أفعل هذا الأمر ، حسناً اقرأ إذاً واحدة على شاكلتها :

في إحدى المدن تم افتتاح متجر لبيع الأزواج ، حيث يمكن للمرأة الذهاب واختيار زوج لها ووضع على باب المتجر قانون عمله الذي يحكم الزبونات ، وكانً القانون كالتالي :

١- لا يسمح للزبونة أن تدخل المتجر أكثر من مرة واحدة في العمر

٢- الاختيار يكون من الطوابق بالترتيب ، وإذا لم يعجبكِ الأزواج في الطابق الأول يمكنكِ الصعود إلى الطابق الثاني فالثالث وهكذا

٣- يُمنع النزول إلى الطابق الأدنى حال مغادرته إلى طابق أعلى منه

إحدى طالبات الزواج أعجبتها فكرة المتجر ، فقررت أن تذهب لتختار زوجاً لها ، وقرأت الشروط على باب المتجر ، وفهمتها ، فصعدت مباشرة إلى الطابق الأول ، وقرأت عند بابه مواصفات الأزواج المتوفرين فيه ، وكانت :

الأزواج هنا لديهم عمل ، ومؤمنون بالله!

فقالت في نفسها : وأي شيء مميز هنا ، الرجال في الخارج لديهم أعمال ، والمؤمنون كثيرون ، لا ضير من الصعود إلى الطابق الثاني!

وصلت إلى الطابق الثاني ممنية نفسها بمواصفات أفضل ، وبالفعل قرأت على باب الطابق الثاني مواصفات الرجال المتوفرين فيه ، وكانت :

الرجال هنا لديهم عمل ، ومؤمنون بالله ، ويحبون زوجاتهم!

فقالت في نفسها : لم تختلف الأمور كثيراً ، والأمر ليس مغرياً بالدخول ، وفي الخارج الرجال لديهم أعمال ، ومؤمنون بالله ، ويحبون زوجاتهم ، لا ضير في الصعود إلى الطابق الثالث!

وصلت إلى الطابق الثالث وقرأت على بابه مواصفات الأزواج المتوفرين فيه ، وكانت :

الرجال هنا لديهم عمل ، ومؤمنون بالله ، ويحبون زوجاتهم ، ووسيمون أيضاً!

فقالت في نفسها : يبدو أن المواصفات تتحسن وتزيد كلما صعدنا إلى الطابق الأعلى ، لا ضير من الصعود إلى الطابق الرابع!

وبالفعل شدّتْ صاحبتنا الرحال إلى الطابق الرابع ممنية نفسها بمواصفات أفضل مما هو عليه الحال في الطابق الثالث ، وبالفعل كان ظنها في محله ، لقد قرأت على باب الطابق الرابع مواصفات الرجال المتوفرين فيه ، وكانت :

الرجال هنا لديهم عمل ، ومؤمنون بالله ، ويحبون زوجاتهم ، ووسيمون ، ويحبون أهل الزوجة!

فقالت في نفسها : هذه مواصفات جميلة فعلاً ، ولكن لا شك أن الرجال في الطابق الخامس أفضل ، هذه هي سياسة المتجر ، الأمر لا يحتاج إلى كثير من التفكير سوف أصعد إلى الطابق الخامس!

وصلت إلى الطابق الخامس ، وابتسمت ابتسامة عريضة ، لقد كان ظنها في محله ، فقد قرأت على بابه مواصفات الأزواج المتوفرين فيه ، وكانت :

الأزواج هنا لديهم عمل ، ومؤمنون بالله ، ويحبون زوجاتهم ، ووسيمون ، ويحبون أهل الزوجة ، ويساعدون في الأعمال المنزلية!

فقالت في نفسها : يا إلهي ، الأزواج هنا رائعون ، ولكنني سأصعد إلى الطابق السادس ، الأمور دوماً أفضل في الأعلى!

وبالفعل عندما وصلت إلى الطابق السادس صدق ظنها ، فقد كُتب على بابه مواصفات الأزواج المتوفرين فيه ، وكانت :

الرجال هنا لديهم عمل ، ومؤمنون بالله ، ويحبون زواجاتهم ، ووسيمون ، ويحبون أهل الزوجة ، ويساعدون في الأعمال المنزلية ، ورومانسيون أيضاً!

قالت في نفسها : ما عساه يكون أفضل من هذا ، الأزواج هنا مثاليون! ولكني سأصعد إلى الطابق السابع ، الأمور دائماً أفضل في الأعلى!

وعندما وصلت إلى الطابق السابع قرأت على بابه العبارة التالية :

عزيزتي :

أنتِ الزائرة رقم ٦٥٣٢٤١٨٩ ولا يوجد رجال هنا ، هذا الطابق برهان أن النساء لا يمكن ارضاؤهنّ! شكراً للتسوق في متجر الأزواجِ ، وانتبهي لخطواتك وأنتِ تغادرين ، ونتمنى لكِ يوماً سعيداً!

أرأيت؟ من السهل حياكة القصص ، كل قصة يُقصد منها النيل من الرجال يمكن بسهولة حياكة قصة مثلها في النساء ، وكل قصة يُقصد بها النيل من النساء يمكن بسهولة حياكة قصة مثلها في الرجال ، الأمر ليس صعباً أبداً لمن أراد ، ولكن تبقى حقيقة لا مفرَّ منها ، وهي أن كل القصص المحاكة على هذه الشاكلة تحمل في طياتها شيئاً من الحقيقة وتحاكي واقعاً ما موجود بالفعل على أرض الواقع وفي ثنايا الحياة!

عندما ضربتُ قصة متجر الزوجات ، ثم صُغتُ قصة متجر الأزواج على شاكلتها ، لم أقصد أن على الرجل في الحياة أن يختار دوماً من الطابق الأول ويمضي إلى حياته ، ولم أقصد أن على المرأة أيضاً أن ترضى بأول خاطب يطرق بابها كي لا تكون متطلبة! على العكس تماماً ، من حق كل إنسان أن يرسم في مخيلته صفات لشريك العمر ، لا يُلام الرجل الذي يشترط الجمال في رفيقة العمر ، وليست سُبةً ولا شتيمة أن تريد الفتاة زوجاً وسيماً ، نحن على البر ما زلنا ولم نرتبط ، وخياراتنا بيدنا ، صحيح أن المغالاة في شروط شريك العمر بحيث يكون مثالياً أمر غير منطقي وإن كان حلماً مشروعاً ، فلا أحد فينا مثالي حتى يطلب شريكاً مثالياً ، لا يوجد إنسان إلا وينقصه شيء ما ، الكمال لله وحده ، ولكن ما دام بإمكان الإنسان أن يحقق في شريك العمر أكبر قدر من المواصفات التي منّى نفسه بها ، فليكن ، ليس هذا هو المقصود برفع سقف التوقعات وخفضه ، وإن كان فيه القليل منه!

ما أعنيه بخفض سقف التوقعات هو بعد الارتباط والانتقال للعيش معاً تحت سقف واحد ، علينا أن نفهم أن المرأة لن تكون ملاكاً مهما حاولت ، وأن الرجل لن يكون ملاكاً مهما حاول ، نحن نهاية المطاف بشر ، لا نكف عن ارتكاب الأخطاء ، نغضب ، ونحزن ، ونفرح ، ونمرض ، وكل هذه المواقف الحياتية تُؤثر على علاقتنا بالآخرين وتحكمها ، التصرفات التي نتقبلها في موقف نفسي ما ، قد لا نتقبلها في موقف نفسي مغاير مع أن التصرفات

هي التصرفات ، ولكننا نحن لسنا نحن دوماً! فأول سقف توقُّع علينا خفضه هو أن نعرف أننا ارتبطنا بإنسان وليس بملاك!

لا يوجد إنسان لا يغضب وإن كنا نتفاوت في حدة غضبنا ورَدّات أفعالنا أثناء الغضب ، فبدل أن نتوقع أننا ارتبطنا بإنسان لا يغضب ، ونشعر بالحزن إذا غضب ، ونعتقد أننا قد وقّعنا عقد زواج فاشل ، علينا منذ البداية أن نعرف أن الغضب يقع ، وأن نتهيأ للتعامل معه متى وقع ، الاستعداد لممارسة الحياة فعلاً واقعاً يدفعها إلى الأمام ، ويهبها فرصة الاستمرار ، أما بناء حياة في الخيال وانتظارها لتكون واقعاً فهو أول أسباب انهيار البيوت!

نحن نصنع خيباتنا بأنفسنا نتيجة التوقعات العالية التي نضعها سواءً في علاقتنا بأنفسنا ، أو في علاقتنا بالآخرين!

فعلى سبيل المثال يعتقد إنسان أن حياته ستنقلب رأساً على عقب بمجرد أن يتخرج من الجامعة ، ويحصل على عمل ، ويتصور أنه فور إعلان النتيجة النهائية سيحصل على عمل حتى قبل أن تصدر شهادته من الجامعة! مثل هذا التصور ظلم للنفس وعدم فهم للواقع ، وهذا هو الأمر نفسه في سقف توقعاتنا التي نرسمها لأنفسنا ، والتغيرات المنشودة التي ستطرأ علينا بمجرد أن نتزوج!

أما بخصوص علاقتنا بالآخرين ، فالأمر لا يقل سوءاً ، إن رفع سقف التوقعات من الآخرين ، مرهق لنا ، ومرهق لهم أيضاً!

لتقريب هذه الفكرة خذ هذه القصة :

عانى أحد الموظفين من ضائقة مالية ، فطلب من مديره زيادة في مرتبه على اعتبار أنه يعمل بإخلاصٍ وتفانٍ ، وكان رد المدير مفرحاً له ، حيث وعده أن يدرس الأمر ، وسيحصل خير إن شاء الله!

رفع الموظف سقف توقعاته ، وقال في نفسه ، ستكون الزيادة بنسبة خمسين بالمئة على الأقل ، أنا واثق من ذلك!

وبعد أيام اتصل المدير بموظفه وأخبره أنه بعد مراجعة الحسابات والإمكانيات فإنه سيزيد له مرتبه بنسبة عشرة بالمئة!

شعر الموظف بإزعاج شديد ، واعتقد أن المدير لا يقدر جهده ، ولا يعطيه حقه! في الحقيقة إن المدير حاول ، وفعل ما استطاع ، أو على الأقل قدم يد المساعدة وكان متفهماً ، ولكن الذي أدى لهذا الشعور السلبي عند صاحبنا الموظف ، أنه رفع سقف توقعاته ، وألزم نفسه ومديره بها ، فلمّا لم تتحقق شعر هو بالحزن والغضب ، وشعر أن مديره مقصر معه!

هذا بالضبط ما يحصل معنا في الزواج ، نحن نرفع سقف توقعاتنا في الآخرين ، وعندما لا تتحقق نشعر بالحزن والغضب في قرارة أنفسنا ، ونشعر أيضاً أن الآخرين مقصرين بحقنا ، بينما في الحقيقة إن الكثير من مشاكل الحياة سببها النظرة المثالية للحياة ، أو بالأحرى انتظار حقنا من الآخرين قبل أن ننظر في واجباتنا تجاههم!

كُن واقعياً !

لا ضير في السعي للمثالية ، ولكن إياك وأنتَ تسعى لها أن تقع ضحيتها ، وتذكر دوماً أن حياةً واقعية واحدة في بيت مع شريكة العمر ، هي أفضل من ألف حياة مثالية هي كمدينة أفلاطون الفاضلة لا يمكن أن تصبح واقعاً وستبقى إلى الأبد حبراً على ورق!

الخلافات تقع دوماً !

جدتي امرأة حكيمة جداً على الرغم من أنها لا تعرف كيف تفكُّ الحرف! ومنها تعلّمتُ أنَّ الحياة أكبر مدرسة ومن لم تُعلمه الحياة فلن تُعلمه جامعات العالم كلها ، هذه الحياة تعطينا كل لحظة درساً في شيء ما ، ما عليك إلا أن تكون تلميذاً نجيباً وتستخلص العبر من كل ما يقع معك ، أو ما تراه ، أو تسمعه ، فالحكيم يستفيد من تجارب الآخرين كما يستفيد من تجاربه الشخصية!

من جدتي تعلمتُ أيضاً أن الشهادة للوظيفة وأن الحكمة للحياة!

في الحياة ليس مهماً مستوى الشهادة التي تحملها ، ولا مقدار المال الذي تجنيه ، المهم أي أثر تركته هذه الشهادة فيك ، ما الذي أضافته لتفكيرك وتعاملك مع الآخرين ، فالطلاق يقع في فئات المثقفين والمتعلمين بالمقدار نفسه الذي يقع في فئات البسطاء والأميين! لأن السر في العقلية وليس في الشهادة ، ولا أنتقص من قدر الشهادات ، بالعكس المتعلم أكاديمياً من المفترض أنه مؤهل أكثر لفهم الحياة ، والتعامل مع الناس ، ولكن كما تعلمون في الحياة لا يقع دوماً كل ما هو مفترض أن يقع!

جداتنا وأجدادنا نرى في حياتهم لمسة طيبة ورغبة في العيش تفتقدها البيوت اليوم ، لأنه وكما قلت السر يكمن في العقلية ، وبنظرتنا لهذه العلاقة ، وليس في وجود مؤهل أكاديمي أو غيره!

كذلك الأمر بالنسبة للمال ، المال وحده لا يكفي لبناء زواج سعيد كما يعتقد كثير من الناس ، ولستُ أنتقصُ من قيمة المال كما لم أنتقص من قيمة الشهادات من قبل ، المال عجلة الحياة ، وأحد وسائل تحقيق السعادة ، ولكنه ليس كل وسائلها ، وكما تعرفون جميعاً ، فإن الطلاق يقع في فئات الأثرياء وميسوري الحال بالمقدار نفسه الذي يقع في فئات الفقراء ، فوجود المال في يد شخص كوجود الحجارة أمام مهندس معماري في أحد الممالك القديمة ، يستطيعُ أن يبني بها جسراً للوصل ، ويستطيعُ أن يبني بها جداراً للفصل ، فالسر إذاً ليس فيما نملك ، وإنما فيما نفعله بما نملك!

وقد يسأل سائل ما علاقة جدتي بكل هذا؟!

أو ما علاقة الشهادات والمال بهذا المبدأ الذي أسميته : الخلافات تقع دوماً؟!

أما بالنسبة السؤال الأول : ما علاقة جدتي بكل هذا؟

فالجواب أنها كانت رحمها الله قاصة بارعة تحفظ مئات القصص ، تصلح أن تكون دروساً في الحياة أكثر مما تفيد شهادة الاقتصاد والفيزياء والرياضيات والأدب العربي والهندسة لإنجاح علاقة زوجية!

أما بالنسبة للسؤال الثاني : ما علاقة المال والشهادات بأن الخلافات تقع دوماً؟!

فالجواب أن الزواج هو الزواج ، والبيوت هي البيوت ، وأن الخلافات تقع لأننا بشر لا لأننا أثرياء أو فقراء ، ولا لأننا متعلمون أو أُميون!

قد تقول لي : ولكن المتعلمين أقدر على حل مشاكلهم الزوجية!

أقول لك : هذا هو المفترض ، ولكن إن كنت تعتقد أن الطلاق في باريس نسبته أقل من قرية في صعيد مصر مثلاً ، فأنت واهم ، الأرقام تثبت العكس ، لا ثقافة باريس وثراها يحمي البيوت ، ولا قلة علم الصعيد وفقره يحمي البيوت ، إنها رغبة العيش ليس إلا ، القدرة على التمسك بالآخر ، الابتعاد عن الأنانية والعنجهية ، فهم أن الخلافات الزوجية جزء من الحياة الزوجية وليست بالضرورة مرضاً فتاكاً أصابها ، هو الذي يدفع البيوت إلى الاستمرار!

عندما يغلق الزوج والزوجة عليهما الباب في باريس لن يؤثر في نجاح زواجهما طول برج ايفيل ، ولا كثرة السياح عنده! وعندما يغلق الزوج والزوجة عليهما الباب في صعيد مصر لن يؤثر في نجاح زواجهما المحصول الوافر من الذرة أو القطن! بالمقابل لن تؤثر سلباً قلة السياح في باريس على العلاقة ، ولا قلة محصول العام في الصعيد على العلاقة!

لا شيء يجعل الزواج ينجح أو يفشل إلا نحن! كل الأشياء الخارجية هي أشياء مساعدة ، على الاستمرار أو على الترك ، ولكن الحقيقة التي علينا جميعاً أن نعرفها أنه لا يوجد قوة في الدنيا تفشل زواج زوجين يريدان الاستمرار ، ولا يوجد قوة في الدنيا تُنجح زواج زوجين يريدان التوقف!

الخلافات تقع دوماً حتى وإن كنتَ لا تسمع أنها تقع ، ولا يوجد بيت إلا وفيه بعض المشاكل والخلافات ، ولكن بعض الناس حياتهم كتاب مفتوح ، وبعضهم يرى أن مشاكله شيء موغل في الخصوصية ليس لأحد الحق في الاطلاع عليها!

حدثتني جدتي تقول :

كان يا ما كان ، في قديم الزمان ، زوجة ضاقت ذرعاً بزوجها ، ورأت أن الحياة معه لا تُطاق ، وشعرت برغبة في عدم الاستمرار ، فتوجهت إلى شيخ القرية تطلب منه أن يساعدها في الحصول على الطلاق! لاحظ الشيخ أنه لا شيء يستدعي طلب الطلاق ، الأمور عادية ، وهذا شأن البيوت ، وهذه الزوجة قليلة خبرة في الحياة ، وقليلة الاختلاط بالناس ، فحاول أن يثنيها عن طلب الطلاق ، ولكنه لم ينجح ، فما زادها كلامه إلا إصراراً على موقفها!

كان شيخ القرية حكيماً وأراد أن يعطيها درساً عملياً في الحياة ، لأنه فهم أن المواعظ الشفهية لا تُجدي نفعاً ، فقال لها : حسناً سوف أساعدكِ في الحصول على الطلاق إن طبختِ لي «مناقيش اللحم بالعجين»!

- قالت له : ما هذا الطلب الغريب يا مولانا الشيخ ، وما علاقته بمشكلتي مع زوجي؟!

- هذا شرطي الوحيد

- حسناً لكَ هذا ، الأمر بسيط ، اليوم تكون «مناقيش اللحم بالعجين» عندك!

- ولكن عندي شرط آخر

- ما هو؟

- عليكِ أن تجمعي مكونات هذه الطبخة من بيوت الجيران ، حتى الملح ، ممنوع أن تستخدميه من بيتك ، كل مكونات الطبخة عليكِ أن تطلبيها من بيوت الجيران

- ولكن يا مولانا الشيخ ، أنا لم أعتد أن أطلب شيئاً من الجيران فنحن ميسورو الحال ، وسيبدو طلب هذه الأشياء البسيطة من بيوتهم أمراً مستغرباً

- مهما يكن من أمر ، لا بد من تنفيذ الشروط ، الأمر واضح ، تطبخين لي «مناقيش اللحم بالعجين» وتجمعين مكوناتها من بيوت الجيران ، وإلا فلن أساعدكِ في الحصول على الطلاق!

- حسناً ، كما تريد يا مولانا!

خرجت الزوجة من بيت الشيخ وهي عازمة على تنفيذ طلبه الغريب ، فالمهم أن تحصل على الطلاق نهاية المطاف!

قصدت بيت أول جارة لها ، وطلبت القليل من الطحين

قالت لها جارتها : من عيوني يا جارة ، ولكن عفواً ألستم ميسوري الحال وفي بيتكم الكثير من الطحين؟!

- بلى ، نحن ميسورو الحال والحمد لله ، وعندنا الكثير من الطحين

- فلماذا تريدينه من عندي إذاً؟

- لأن الشيخ لن يطلقني من زوجي إلا إذا صنعتُ له «مناقيش اللحم بالعجين» وقد اشترط عليَّ أن أجمع مكونات هذه الطبخة من بيوت الجيران ، وأنتِ أول جارة أطرق بابها!

- ولِمَ تريدين الطلاق من زوجكِ؟

بدأت الزوجة تحدث جارتها عن أسباب طلبها للطلاق ، وعلى الفور سارعت الجارة للحديث عن زوجها ، وأنها أيضاً تعاني من المشاكل معه ، وأنها ليست أفضل حالاً منها ، ثم قالت لها : ولكن الجميع مثلنا!

أخذت الزوجة الطحين ، وانصرفت شاكرة جارتها على اعطائها الطحين ، وعلى حُسن اصغائها لها ، وتوجهت إلى بيت جارتها الثانية!

في بيت الجارة الثانية دار حديث طبق الأصل تقريباً عما دار في بيت الجارة الأولى ، فقد قالت لها الزوجة : أريدُ أن تعطيني بعض البصل

قالت الجارة الثانية : من عيوني يا جارتي العزيزة ، ولكن عفواً للسؤال ، ألستم ميسوري الحال ، وعندكم الكثير منه!

- بلى ، نحن ميسورو الحال والحمد لله وعندنا الكثير من البصل

– فلماذا تريدينه من عندي إذاً؟!

– لأن الشيخ لن يطلقني من زوجي إلا إذا صنعتُ له «مناقيش اللحم بالعجين» وقد اشترط عليَّ أن أجمع مكونات هذه الطبخة من بيوت الجيران ، وأنتِ ثاني جارة أطرق بابها بعد جارتنا فلانة!

– لِمَ تريدين الطلاق من زوجكِ؟

بدأت الزوجةُ تحدث جارتها عن أسباب طلبها للطلاق ، وكما حدث مع الجارة الأولى ، سارعت الجارة الثانية للحديث عن زوجها ، وأنها تعاني من المشاكل معه ، وأنها ليست أفضل حالاً منها ، ثم قالت : ولكن الجميع مثلنا!

أخذت الزوجة البصل ، وانصرفت شاكرة جارتها على كرمها ، وعلى حُسن اصغائها لها ، وتوجهت إلى بيت جارتها الثالثة طلباً لبعض الزيت!

وهكذا بقيت تتنقل من بيتٍ إلى بيت ، من البيت الثالث طلبت الزيت ، ومن الرابع الملح ، ومن الخامس اللحم ، ومن السادس الخميرة!

وفي كل بيتٍ تدخله كان يجري الحوار نفسه الذي جرى مع الجارة الأولى تقريباً ، كل الزوجات يردنَ أن يعرفنَ سبب الطلاق ، وكل الزوجات لديهن مشاكل مع أزواجهنّ!

وعندما انتهت الزوجة من جمع مكونات الطبخة التي طلبها مولانا الشيخ ، اكتشفت أن زوجها ما هو إلا واحد من الناس ، فيه ما في بقية الناس ، وأن بيتها ما هو إلا واحد من البيوت فيه ما في بقية البيوت!

طبخت الزوجة «مناقيش اللحم بالعجين» للشيخ ، وذهبت إلى بيته ، وأعطته إياها ، وقالت له : مأكول الهنا يا مولانا ، ولكني أريد أن أبقى مع زوجي!

ابتسم الشيخ ابتسامة النصر ، وسألها عن السبب ، فبدأت تحدثه عما سمعته في بيوت الجيران ، وكيف اكتشفت أن زوجها لا يختلف عن بقية الأزواج ، وأن بيتها لا يختلف عن بقية البيوت!

عندها قال لها الشيخ : يا ابنتي ، ليس لي في هذا الطعام حاجة ، كل ما أردتُه هو أن تدخلي بيوت الناس ، وتسمعي من الجارات ، وتعرفي أنكِ واحدة من الناس!

أليست قصة عظيمة فيها درس بليغ في الحياة لا نتعلمه في الجامعات!

قد لا تكون هذه القصة قد وقعتْ فعلاً ، وهذا هو حال أغلب قصص الجدات ، ولكن لا شك أن المهم هو الدرس المستفاد منها ، والدرس المستفاد لا ينكر أحد أنه صحيح ، لا يوجد بيت إلا وفيه بعض المشاكل وإن تفاوتت نسبتها واختلفت طبيعتها بسبب اختلاف الناس ، وتفاوت أوضاعهم ، ولكن يبقى لكل بيتٍ مشاكله!

ثم إن القصص هذه لم تُوجِد نفسها ، الأدب الشعبي هذا أوجده الناس لا من مخيلاتهم وإنما من تجاربهم!

بالمقابل قد يسأل سائل : ولكن ألا ترى أن القصة تثبت أن المشاكل تقع دوماً من الأزواج ، فالأزواج في هذه القرية كلهم متشابهون!

الجواب : لا!

هذه القصة تثبت فقط أن المشاكل تقع في كل البيوت! ولكننا رأينا أن المشكلة في الأزواج بسبب طبيعة الحكاية وسير أحداثها ، وبطلتها ، ورواتها ، وإلا فإننا اتفقنا في المبدأ السابق ، أن كل قصة عن الرجال الغرض منها تقديم الدرس والعبرة والعظة ، من السهل جداً تأليف قصة عن النساء تشبهها تماماً ، وتقدم الدرس ذاته! وقد قمتُ بتأليف قصة «متجر الأزواج» تقليداً لقصة «متجر الزوجات» لأريكم أنه من السهل تأليف القصص ، فلا تهتموا لواقعية القصة من عدمه ، بقدر ما تهتمون بالحكمة من ورائها!

ما رأيكم أن نؤلف قصة مشابهة لقصة الزوجة مع مولانا الشيخ ، والسبب هذه المرة ليس إثبات سهولة تأليف القصص ، هذا شيء انتهينا منه ، وإنما ليكتمل المشهد!

قررتُ أن أؤلف لكم هذه القصة :

كان يا ما كان ، في قديم الزمان ، شاب متزوج منذ سنة تقريباً ، عانى هذا الشاب من مشاكل مع زوجته ، ورأى أن حياته الزوجية وصلت إلى طريق مسدود ، وأنه لم يعد بإمكانه الاستمرار بسبب الصدامات بينه وبين زوجته ، فقرر أن يطلقها!

ذهب إلى والده وأخبره بما عزم عليه ، وحدثه عن استحالة الاستمرار في زواج كهذا ، ومع زوجة كزوجته ، ولكن الأب لم يرَ سبباً موجباً للطلاق ، الأمر عادي من وجهة نظره ، ولا يوجد زوج إلا وله مشاكل مع زوجته ، فأخذ يعظ ابنه ويخبره أن عليه أن يصبر وأن ما يجده من زوجته هو شأن كل الأزواج مع زوجاتهم ، ولكن الابن لم يقتنع ، وبقي مصراً على رأيه!

عندها أراد الأب أن يعطيه درساً عملياً بدل هذا الوعظ الذي لم يُجدِ معه نفعاً!

– فقال له : حسناً ، سأقبل أن تطلق زوجتك ولكن بشرط!

قال الابن بسرعة : أنا موافق حتى قبل أن أسمع هذا الشرط ، أريد أن أنهي الأمر بيني وبينها

– الشرط هو أن تشتري لي ثياباً جديدة للعيد تماماً كما كنتُ أشتري لك ثياب العيد وأنتَ صغير

– ولكن ما علاقة ثياب العيد بموضوع طلاقي من زوجتي يا أبي؟!

– هذا هو شرطي

– حسناً ، لكَ هذا يا أبي ، الأمر يسير!

– ما زال هناك شرط يا بُني

– وما هو يا أبي؟

– لا تشترِ لي الثياب من مالك الخاص ، وإنما عليك أن تأخذ المال من الجيران ، لا على سبيل الاستدانة ، بل عليك أن تخبرهم

أنك ستشتري لي ثياباً للعيد ، وأنك لن تعيد إليهم هذا المال ، وأيضاً عليكَ أن لا تأخذ من أحدهم أكثر مما تحتاج لشراء قطعة واحدة من الملابس

– ما هذا الشرط الغريب ، أنا أملك الكثير من المال ، ويمكنني أن أشتري لك ما تشاء ، لماذا عليَّ أن أطلب المال من الناس ، أنت تضعني في موقف محرج!

– هذا هو شرطي الوحيد ، الأمر واضح وبسيط ، ثياب جديدة للعيد ، تأخذ ثمنها من الناس ، ولا تأخذ من أحد أكثر من ثمن قطعة واحدة

– حسناً ، أمري لله!

كانت شروط الأب غريبة ، لم يفهم الابن ما علاقتها بموضوعه مع زوجته ، ولكن بما أنّ هذا هو أمله الوحيد في الخلاص من زوجته ومشاكلها ، فسيتحمل أي شيء . . .

وبالفعل قصد بيت جاره الأول وطلب منه ثمن قميص يرتديه والده يوم العيد!

قال له جاره : من عيوني يا جارنا العزيز ، ولكن اعذرني على السؤال ، ألستَ ميسور الحال ، ووالدك كذلك

– بلى ، نحن ميسورو الحال والحمد لله

– اعذرني على السؤال مرة أخرى لماذا تطلب ثمن قميص أنتَ تملك ثمنه أصلاً ، وفوق هذا تخبرني أنك لن تعيد المال إليَّ

– كان هذا شرط أبي ليوافق على طلبي في أن أطلق زوجتي!

– ولِمَ تريد أن تطلق زوجتك

أخذ الشاب يحدثُ جاره عن مشاكله مع زوجته ، وطباعها ، وما يلقى منها وعلى الفور بدأ الجار يحدث الشاب عما يجده من زوجته أيضاً ، وأنه ليس أفضل حالاً منه ، ثم قال له : على حد علمي الجميع مثلنا يا جاري العزيز ، وفي نهاية الأمر أعطى الجار للشاب ثمن قميص جديد يشتريه لوالده ليلبسه يوم العيد كما هو شرط الوالد!

أخذ الشاب المال ، وشكر جاره على حسن اصغائه وتفهمه ، وعلى مساعدته له كي يحل مشكلته ، وتوجه فوراً إلى بيت جاره الثاني وهناك دار حوار يكاد يكون طبق الأصل عما دار مع جاره الأول فقد قال لجاره : أريد منك أن تعطيني ثمن بنطلون أشتريه لوالدي ليرتديه يوم العيد ، ولن أعيد هذا المال لك ، وإنما هو تقدمة منك لي!

قال الجار الثاني : من عيوني يا جاري العزيز ولكن اعذرني للسؤال ، ألستَ ميسور الحال ، ووالدك كذلك؟

- بلى ، نحن ميسورو الحال والحمد لله

- إذاً لماذا تطلب مني ثمن بنطلون ما دمتَ تملكه ، وهو بالأساس مبلغ قليل؟

- كان هذا شرط أبي ، أن أشتري له ثياباً للعيد ، آخذ ثمنها من بيوت الجيران ، وإلا فلن يساعدني في طلاقي من زوجتي!

- ولِمَ تريدُ أن تُطلق زوجتك؟!

مجدداً بدأ الشاب يحدث جاره الثاني عما يلقاه من زوجته ، وكيف أنه يواجه المشاكل معها ، وكيف هي حياته لا تُطاق ، وكما فعل الجار الأول ، سارع الجارُ الثاني إلى الحديث عما يلاقيه هو

أيضاً من زوجته ، ثم أردفَ قائلاً : على حد علمي كل البيوت فيها مشاكل ، والآخرون مثلنا يا صديقي العزيز!

أخذ الشاب المال من جاره الثاني ، وشكره على حسن اصغائه وتفهمه ، وتوجه فوراً إلى بيت جاره الثالث ، وهكذا ظل ينتقل من بيت إلى بيت ، يطلب من هذا ثمناً لحزام ، ومن ذاك ثمناً لحذاء ، ومن آخر ثمناً للجوارب ، وفي كل بيت يحكي لصاحبه عن مشاكله مع زوجته ، ويسمع من صاحب البيت عن مشاكله مع زوجته ، وما أتم جمع المال لثياب العيد ، حتى أدرك أنه واحد من الناس ، وزوجته واحدة من الناس ، وبيته واحد من البيوت فيه مشاكل زوجية بمقدار ما في بيوت الناس!

توجه إلى السوق واشترى الثياب لوالده ، ثم توجه إليه وأعطاه إياه وقال له : لبس الهنا يا أبي ، ولكنني قررتُ أن أبقى مع زوجتي!

ابتسم الأب ابتسامة النصر ، وعرف أن ما أراده قد تحقق ، ولكنه سأله : ما الذي دفعكَ أن تعدل عن طلاق زوجتك؟

حدث الابن أباه عما سمعه من الجيران ، وكيف اكتشف أن المشاكل هي جزء من حياة الناس ، وأنه لا يوجد بيت يخلو منها!

عندها قال الأب لابنه : أنتَ تعلم أنه ليس لي حاجة في ثياب جديدة ، وتعلم أيضاً أني أملك الكثير من المال ويمكنني أن أشتري ما أريد ، ولكني أردتك أن تدخل بيوت الناس ، وتسمع من الرجال ، لتعرف أنك واحد من الناس!

الخلافات الزوجية شيء طبيعي في حياة أي زوجين ، تفرضها هموم الحياة اليومية ، وصعوباتها ومتطلباتها ، ولا علاقة لها بمنسوب الحب بين الزوجين ، صحيح أن الحب هو من أهم العوامل التي تدفعنا للقفز عن المشاكل وتجاوزها ، والتمسك بالطرف الآخر ، وهذا هو ما تحتاجه المشاكل الزوجية بالضبط ، ولكن حتى في البيوت التي فيها الكثير من الحب يقع فيها بعض المشاكل!

هل تخيلتَ يوماً أن المشاكل الزوجية تقع في بيوت الأنبياء أيضاً؟!

لعلكَ استغربتَ ، وقلتَ في نفسك : ما الذي يقوله هذا؟ أتقع الخلافات الزوجية في بيوت الأنبياء أيضاً!

أجل عزيزي تقع الخلافات الزوجية في بيوت الأنبياء أيضاً!

روى الإمام أحمد في مسنده ، والنسائي في السنن الكبرى ، وأبو داوود في صحيحه ، والذهبي في سير أعلام النبلاء :

«استأذن أبو بكر على النبي صلى الله عليه وسلم ، فسمع صوت عائشة عالياً ، فلما دخل تناولها ليلطمها ، وقال : لا أراكِ ترفعين صوتكِ على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجعلَ النبي يحجزه ويمنعه عنها ، فخرج أبو بكر مغاضباً ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعائشة بعد خروج أبي بكر : كيف رأيتِني أنقذتكِ من الرجل!

فمكث أبو بكر أياماً ثم استأذن على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فوجدهما قد اصطلحا فقال لهما : ادخلاني في سلمكما كما أدخلتماني في حربكما!

فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : قد فعلنا ، قد فعلنا!

عائشة واحدة من أكمل نساء هذه الأمة إيماناً ، ولكنها نهاية المطاف إنسانة وزوجة ، وهو رسول الله ، خير من مشى على الأرض يوماً ، ولكنه أيضاً نهاية المطاف إنسان وزوج ، وها هو خلاف زوجي يقع بينه وبين زوجته ، فترفع صوتها كما تفعل أي امرأةٍ في هذا العالم ، وينزعج أبوها الصِّدِّيق من الأمر ، حتى أراد أن يضربها لشدة حبه لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكنه رغم الخلاف أبى أن ينالها ضرب من والدها ، فحال بينه وبينها ، ثم مازحها وذكرها كيف دافع عنها ، ثم مضت أيام وعادت المياه إلى مجاريها ، وحلت الابتسامة مكان الدمعة ، والهمس مكان الصوت العالي!

مشكلتنا أننا ننسى أننا بشر ، الزوج يريد زوجة ملائكية ، والزوجة تريد زوجاً ملائكياً وهذا لن يكون أبداً ، المشاكل سوف تبقى تقع بين أي زوجين ، ولو عُصم منها بيت واحد في الأرض لعُصم منها بيت رسول الله عليه وسلم ، هذا وهو المعصوم الذي يُوحى إليه!

ولكن انظر إلى أدب الخلاف ، إنه لم يقم ليضرب زوجته ويدميها ، حتى أنها ما هانت عنده أن يضربها أبوها أمامه رغم أنها

رفعت صوتها ، على العكس حماها ووقف بينها وبين أبيها ، بل وفي شدة المشكلة أراد أن يخبرها أنها لا تهون عنده ، وأنها عزيزة عليه ، يذكرها كيف حال بينهما!

علينا أن نعرف كيف نختلف ، تماماً كما نعرف كيف نتفق ، النبيل يظهر في الخصومة ، في ساعات الوفاق الجميع نبلاء ، فجهز نفسك على تفادي الصراعات والخلافات قبل وقوعها ، واعلم أنها شيء طبيعي ، فلا أنتَ رسول الله ، ولا زوجتك عائشة ، وها هما كما رأيتَ حدث بينهما ما يحدث بين أي زوجين!

ولستُ أبالغ إذ أقول أن للخلافات الزوجية أثر طيب على الحياة الزوجية ، بشرط أن تبقى ضمن أدب الاختلاف ، فلا تُهان فيها الكرامات ، ولا يتعرض فيها شخص للإذلال ، فالماء الراكد يأسن ، والخلافات الزوجية هي جريان للماء وتخليص له من رتابته ، وهي كالملح في الطعام القليل منه يضبطه ويهبه مذاقه الشهي ، والكثير منه يفسده!

انظر إلى الأمر من هذه الزاوية ، إن الخلافات الزوجية تقع في كل البيوت ، ولكن الفرق بين الناس في نظرتهم للأمر ، وتعاملهم ، وكل بيت استمر قرر أصحابه القفز عن المشاكل ، وحلها ، ولا يعني أن المشاكل لم تقع فيه أصلاً ، فهذا محال ويخالف الواقع والمنطق ، ويجافي حقيقة كوننا بشراً!

في كتابي حديث الصباح ، قلتُ مرةً :

سألتهما الصحفية باهتمام : كيف استمر زواجكما لخمسةٍ وستين عاماً؟

فقالت الزوجة : نحن من جيل إذا فسد فيه شيء نصلحه ولا نرميه!

طبِّقْ حكمة العجوز هذه ، اصلح الأشياء مرة بعد مرة ، تمسك بزوجتك ، فالحُر من راعى وداد لحظة كما تقول العرب!

وأنتِ عزيزتي الزوجة إن صادف وقرأتِ هذا الكلام ، فأنتِ أيضاً مطالبة أن تطبقي حكمة العجوز ، وتصلحي الأشياء ، وتتمسكي بزوجك ، فالزواج لا ينجح إلا إذا أراد له الإثنان معاً أن ينجح ، يد واحدة لا تصفق ، وبجناح واحد لا يطير الطائر ، وبشفرة واحدة لا يقطع المقص القماش ، والدراجة الهوائية لا تسير بدولاب واحد ، أمسكا أيدي بعضكما ، وامشيا ، تسلحا برغبة العيش والاستمرار ، فستعيشان وتستمران!

ما الذي تريده منك؟!

من المؤكد أنكَ قد اشتريتَ جهازاً كهربائياً جديداً من قبل ، ومن المؤكد أنك فور إدخال هذا الجهاز إلى البيت ، وقبل استعماله فإنك بحثتَ في العلبة عن دليل الاستخدام الذي وضعَتْه الشركة في هذا الجهاز الكهربائي ، جميعنا نفعل هذا ، وهذا هو الأمر الصائب بالمناسبة ، والسبب أننا نعرف أنه كي نستفيد من هذا الجهاز لا بد أن نفهم كيف يعمل ، فاستخدام جهاز لا نعرف أسراره قد يؤدي إلى إحدى نتيجتين :

الأولى : الجهاز لن يعمل بالكفاءة القصوى التي من المفترض أن يعمل بها لأن هناك قدرات وميزات فيه خفي علينا الاستفادة منها

الثانية : الجهاز قد يتلف نهائياً ، فأحياناً الاستخدام الخاطئ للأشياء قد يؤدي إلى خرابها وليس إلى عملها بكفاءة متدنية

قد تستغرب حين أقول لك : نحن البشر أيضاً معنا دليل استخدام! ونحن في حياتنا اليومية نتعامل مع الآخرين وفقه ، ولكننا لا ننتبه أنه يشبه دليل استخدام الأجهزة الكهربائية ، فعلى سبيل المثال :

كلنا لدينا أصدقاء نحادثهم و نتواصل معهم عن طريق «تطبيق الواتساب» ، وكلنا نرسل الرسائل ونتلقاها كذلك ، ولعلك لاحظتَ أن بعض الأصدقاء قد يتحسس من تأخرك في الرد عليه ، بينما لا تجد هذه الحساسية عند الآخرين ، ومن المؤكد أنك عندما عاتبك هذا الصديق ولاحظت انزعاجاً منه لعدم ردك السريع ، فإنك صرت في المرات القادمة تحاول أن تراعي حساسيته هذه ، وترد عليه بسرعة قبل أن ترد على الآخرين الذين لم تلحظ عندهم انزعاجاً من هذا التصرف رغم أنه نفسه!

أيضاً هناك أشخاص يرسلون إليك أشياء عامة للقراءة ولا ينتظرون منك الرد ، أساساً يكون الموضوع لا يحتاج رداً ، أنا شخصياً أرسل الكثير من الأشياء بهدف مشاركتها مع الآخرين ، ولا أنتظر رداً ، ولكن البعض لو أرسلوا شيئاً عاماً فإنه يزعجهم أن لا تقول لهم هذا موضوع جميل وشكراً لإرساله لي ، وربما التقيتما وجهاً لوجه فوجّه إليك عتاباً أنك لا تعلق على منشوراته رغم أنها منشورات عامة! ولا شك أنك في المرات القادمة التي تتلقى فيها منشوراً منه ستقول له : شكراً على هذا المنشور الجميل! وأحياناً قد تقول له هذا حتى حين تمنعك انشغالاتك عن قراءة منشوره ، إنك هنا تتعامل معه وفق دليل استخدامه دون أن تشعر ، أنت في عقلك الباطن ، ومن خبرتك السابقة معه ، تفهم أنه حساس تجاه عدم التعليق ، ومن خلال تعاملك مع غيره تفهم أن عدم التعليق ليس أمراً كارثياً كما عند صديقك الأول!

خـذ عندك مـثـلاً آخـر لدليل اسـتـخـدام الناس ، كنتَ تعـملُ وصـديقـاً لك في شـركـة ، أو مـدرسـة ، أو مكتب ، ثم افـتـرقـتـمـا ، وانتـقلتَ إلى عـمل جـديد ، وبعـد سنة ترك زمـيلك عـمله القـديم والتـحق للعـمل حـيث تعـملُ أنت الآن ، لا شـك أنك وبحكم معرفتك السابقة به ستقوم بمساعدته ليندمج معكم ، تبدأ تشرح له طبيعة العمل ، ثم تُعرِّج في الحديث عن زملاء العمل ، أنتَ مثلاً تخبره عن طبع مديرك ، وربما تطلب منه أن يحذر فلاناً ، وربما تخبره أن زمـيلكمـا فـلان إنسـان ممتـاز وبإمكانه طلب المسـاعـدة منه ، والاعـتمـاد عليـه ، أنتَ هنا تعطيـه دليل اسـتـخدام النـاس ، لأنك تعرف أن المعرفة بطباع الناس توفر علينا الكثير من المشاكل ، كما أنها تحقق لنا راحة وفائدة!

الكثـيـر من المشـاكل تقع بين الرجـال والنسـاء بسـبب جـهل الرجال بدليل استخدام النساء ، وجهل النساء بدليل استخدام الرجال! يعتـقد الرجل أن ما يرضـيه من المفتـرض أن يرضي المرأة ، وأن ما يراه سطحياً هو كذلك عند المرأة ، وبالمقـابل هذا مـا تعـتقـده النساء ، فالمرأة تعتقد خطأً أن الرجل يجب أن يهتم بما تهتم هي به ، أو أن يُعبر عن مشاعره بالطريقة التي تُعبر هي بها عن مشـاعرها ، بينمـا في الحـقـيـقـة عـالم الرجل الداخلي يخـتلف عن عـالم المرأة الداخلي ، ولأنك المعني بهـذا الكـتـاب فـقـد حـاولتُ أن أصـوغ لكَ دليل استخدام النساء!

١- لا تخجل بها:

تحبُّ المرأة أن تشعر أن زوجها ليس نادماً على الارتباط بها ، وليس بالضرورة أن تقول لها : لقد تورطتُ بكِ! لتعرفَ أنك قد تورطتَ بها فعلاً ، هناك كثير من الأمور التي يمارسها الرجال تجعل المرأة تعتقد أنها ورطة في حياة الرجل وأنه يخجل بها ، حتى وإن لم تكن هذه هي الحقيقة ، ولكن من المنطقي تفسير التصرفات غير الطبيعية تفسيراً سلبياً ، فعندما لا تصطحبها معك إلى منازل أصدقائك ، وتعرفها إلى زوجاتهم ، عندما تعاملها ببرود في حضرة أهلك ومعارفك ، ستعتقد حتماً أنك تخجل بها ، وإنها ورطة في حياتك!

صحيح أن العلاقة الزوجية هي علاقة خاصة بينكما ، ولا أقول لك أنك عليك أن تنظم فيها قصيدة تلقيها على مسامع الحضور ، ولا أن تقوم وتعانقها أمام الناس ، ولكنك لا شك تعرف ما أعنيه ، التجاهل ، التجاهل ولا شيء غيره في حضرة الآخرين يشعرها بالأذى وأنها غير كافية لك!

هناك تصرفات صغيرة تقومُ بها أنتَ أمام الناس في حضورها يشعرها أنك فخور بها :

- أخبرْ الآخرين على مسامعها أنها طاهية جيدة

- أخبرهم أنها تقوم بتدريس الأولاد مما يسمح لك بقضاء وقت أطول في عملك أو مع أصدقائك أو في ممارسة هوايتك

- أخبرهم عن هدية أهدتك إياها ، هذا يشعرها أنك ممتن لها

ولو كانت الهدية من مالك أنت ، فلو أهدتكَ قميصاً ولبستَه في مناسبة عائلية اسأل أختك عن رأيها بهذا القميص ، ثم امدحْ ذوق زوجتك وأنها تعرف كيف تختار لك أشياء جميلة

- امدحْ أهلها في حضرتها وعلى مسمع من الناس ، هذا يشعرها أنك تفخر بكل ما يمت إليها بِصِلة!

جميعنا نريد أن نسمع أن الآخرين يعجبهم ما نقوم به ، اسمع هذه القصة الطريفة :

ذهبَ طفلٌ في الثانية عشرة من عمره إلى بقالة ليستخدم الهاتف ، رفعَ السماعة وطلبَ الرقم ، وبدأ مكالمته .

لفتَ هذا المشهد صاحب البقالة فأخذ يسترقُ السمع!

قال الطفل : سيدتي هل يمكنني أن أعمل عندكِ في تهذيب أعشاب حديقتك فأنا بارع في هذا!

قالت السيدة : لديَّ من يقوم بهذا العمل ، شكراً لك

- سأتقاضى نصف أجر العامل عندكِ!

- شكراً لكَ مرةً أخرى ، أنا راضية عن عمل من يعمل عندي ولا أريد أن أستبدله بآخر

- سأنظفُ أيضاً ممر المشاة والرصيف أمام منزلكِ ، وسأجعلُ حديقتكِ أجمل مما هي عليه الآن!

- لاَ شكراً أنا راضية عن عمل من يعمل في حديقتي!

أقفلَ الطفل سماعة الهاتف ، وابتسامة عريضة تعلو وجهه ، فقال له صاحب البقالة : أعجبتني همتك العالية ، ورغبتك في الحصول على عمل ، ما رأيكَ أن تعمل عندي وتقوم بإيصال الأغراض إلى بيوت الزبائن؟ وسأقوم بإعطائك الراتب الذي كنت ستأخذه من السيدة!

فقال له الطفل : شكراً لعرضك الكريم يا سيدي ، كنتُ فقط أتأكد من أدائي لعملي ، أنا الذي أعمل في حديقة السيدة التي كنتُ أحادثها!

تخيَّل شعور هذا الطفل بعد أن سمع رضى السيدة عن عمله ، ثم تخيل لو أنها قالت : حسناً تعال لتعمل عندي أنا غير راضية عمن يهتم بأمر حديقتي ، إنه الفرق بين شعور المرأة حين تشعر أنك لا تخجل بها وبين شعورها أنك تخجل بها!

٢- لا تنتقدها أمام الناس:

قد يوجد تشابه طفيف بين هذه الفكرة ، والفكرة التي قبلها ، ولكن هناك اختلاف أيضاً لهذا آثرتُ الفصل بينهما .

في الحالة الأولى تحدثنا عن الخجل بها أمام الناس ، الأمر هنا مختلف فقد يكون الزوج يعيش حياته الزوجية بطريقة اجتماعية سليمة ، فهو يصحبها معه إلى منزل العائلة ، يعرفها على أقربائه ، يزور منازل أصدقائه المتزوجين برفقتها ، كذلك لا يشعرها بعدم الرضى عنها ، ولا أنها ورطة كما في النقطة التي قبلها .

ولكن المشكلة هنا أنه حضور اجتماعي منقوص ، أو أليم بتعبير أدق ، فهو يوجه لها الملاحظات أمام الناس مع أن هذه الملاحظات يمكن تأجيلها حتى ينفرد بها في البيت .

إذا كانت النصيحة على الملأ فضيحة كما تقول العرب ، فكيف بالانتقاد على الملأ ، نحن في السر ، نقبل النقد والنصيحة ، إذا جاء بطريقة حلوة ، وأسلوب جميل ، ولكن لا نتقبل لا النصح ولا النقد أمام الناس مهما كان الأسلوب الذي يُقال بهما عذباً!

إن اختيار التوقيت المناسب لأداء النصح أو النقد هو الذي يجعله مقبولاً بالإضافة إلى الأسلوب كما أسلفنا .

ألا ترى أن كل ما في الكون حولنا يعمل وفق توقيت دقيق ، الشمس تشرق في موعد محدد وتغرب في موعد محدد ، الفصول لا تتأخر ولا تأتي باكراً ، كل فصل له وقت مجيء ، الأشجار تزهر في الربيع ، وتنضج ثمارها في الصيف ، الفلاحون يضعون البذور في التربة في وقت محدد ولو وضعوها في غير وقتها لا يجنون محصولاً ، الدوام يبدأ في وقت محدد وينتهي في وقت محدد ، الحصص الدراسية تبدأ في وقت محدد وتنتهي في وقت محدد! العالم كله ، سواءً ذاك الذي خلقه الله كحركة الكواكب والشمس والقمر والفصول ، أو ذاك الذي تولى البشر تنظيمه كمواعيد الدوام والحصص الدرسية ، كله يعمل وفق توقيت ، عدم الالتزام بالتوقيت يعني أن اضطراباً ما سيحدث ، وهذا بالضبط ما سيحدث عندما تخرج الشمس من مغربها ذات يوم كما نؤمن ، سيبدأ توقيت الكون كله يخرب بإذن من ضَبَطه ، وهذا مؤشر على خرابه!

النقد أو النصيحة في غير وقتها هي خروج الشمس من مغربها ، وحضور فصل قبل آخر ، وبذر القمح في غير وقته ، وقطف الثمر قبل أن ينضج ، ثمة خراباً سيحدث!

لنفترض أنك دعوتَ عائلتك إلى طعام الغداء ، ولاحظتَ أن أحد الأطباق التي أعدتها زوجتك مالحاً ، وقلت لها : أنتِ لا تنتبهين إلى مقدار الملح الذي تضعينه على الطعام!

كن على ثقة أن هذا نقد جارح ، بل نقد مدمر ، يترك في نفسيتها أذى ، وفي كرامتها جرحاً لا يمكن علاجه بسهولة ، الأمر بالنسبة لها أبعد من قضية ملح وطعام ، إنها مسألة كرامة بالدرجة الأولى! والإنسان نهاية الأمر كرامة! نحن لسنا لحماً ودماً فقط ، نحن كتلة من المشاعر والأحاسيس والعواطف ، وكسر القلب موجع ككسر العظم ، فإنه وإن كان لا يُحدثُ صوتاً إلا أنه لا يقل عنه ألماً!

والآن دعنا نتعامل مع الموقف بطريقة أخرى :

لاحظتَ وأنتم تتناولون الطعام أن أحد الأطباق مالح أكثر مما يجب ، تابعتَ تناول الطعام كأن كل الأمور طبيعية ، انتهى الغداء ، وانصرف الضيوف ، وأنتما الآن وحدكما ، وقلت لها : شكراً لهذه المائدة اللذيذة التي طهوتِها لنا ، فعلاً أنتِ طاهية ماهرة ، وربة بيتٍ محترمة ترفع الرأس أمام الناس ، ولكن لاحظتُ أن الطبق الفلاني مالح قليلاً ، لو تنتبهي للأمر في المرة القادمة ، إنه يزعجني جداً أن يخرج أحد من بيتنا فلا يعجبه شيء قد قمتِ به ، أنا أهتم أن تكوني مثالية وخارقة في عيون الآخرين!

أنتَ هنا لا تنتقدها ، ولا تنصحها ، أنتَ هنا تحلقُ بها إلى الفضاء ، تنسيها كل لحظة تعب تعبتها وهي تعد العدة لاستقبال ضيوفك!

ما الذي فعلته أنت هنا؟!

لقد راعيتَ أمرين :

الأول التوقيت ، والثاني الأسلوب!

لقد اخترتَ توقيتاً مناسباً ، أنتما الآن وحدكما ، وهذا بحد ذاته يجعلها مؤهلة في أن تتلقى أي نقد أو نصيحة ، لأن كل شيء يدور بينك وبينها .

كذلك لقد اخترتَ أسلوباً جميلاً ، أحياناً ما نقوله لا يلقى صدى وترحيباً عند الآخرين رغم أنه صادق وحقيقي ، ويحتاجون أن يسمعوه ، ولكن لا يلقى ترحيباً لأننا نقوله بقسوة وفظاظة ، فالأسلوب هو جزء من الكلام وليس شيئاً إضافياً وكمالياً له!

خذ عندك هذه القصة :

رأى أحد الملوك في منامه أن جميع أسنانه سقطت أمامه وهو ينظر إليها ، تضايق من هذه الرؤيا وأرسل في طلب معبِّر ليقوم بتعبير هذه الرؤيا له ، فقال له : سيموتُ جميع أقاربك وأنت تنظر إليهم!

غضب الملك من هذا التعبير ، وأمر بحبس المعبر! ثم بقي يفكر في هذه الرؤيا ، لقد كانت مزعجة مخيفة ، وتعبير مفسر الأحلام لها زادها رعباً! فأرسل في طلب معبِّر آخر .

حضر المعبِّر الجديد ، وقص عليه الملك الرؤيا ، فقال له : هذه رؤيا سيئة يا جلالة الملك ، سيموتُ جميع أقاربك وأنتَ تنظر إليهم!

غضب الملك من المعبر الثاني ، وأمر بحبسه أيضاً!

ثم ما لبثَ أن طلبَ مفسراً ثالثاً!

حضر المفسر الثالث ، وقص عليه الملك الرؤيا ، ابتسم المفسر الثالث ، وقال للملك : هذه رؤيا جيدة يا جلالة الملك ، ستكون بإذن الله أطول أهلك عمراً!

فرح الملك بهذا التعبير ، وأمر بمكافأة كبيرة للمفسر الثالث!

لو لاحظنا أقوال المفسرين الثلاثة ، سنكتشف أنها لا تختلف من حيث المضمون فيما بينها ، فما دام الملك سيكون أطول أهله عمراً ، فهذا يقتضي بالضرورة أن يموت جميع أقاربه قبله ، ولكن الفرق بين المفسر الثالث والمفسرين الأول والثاني هو الأسلوب!

حتى الأشياء السيئة يمكن أن نقولها بطريقة جميلة ، كما أننا يمكن أن نقول الأشياء الجميلة بطريقة سيئة!

فاخترْ توقيتك وأسلوبك!

٣- لا تهز رأسك فقط:

قلنا سابقاً أن المرأة حين تشكو إلى زوجها فليست بالضرورة أنها تطالبه بحل فوري لهذه المشكلة التي تشكو منها ، هي في أغلب الأحيان تعرف أنك لا تستطيع حلها ، أو لا تحتاج حلًا من الأساس ، فحين تخبرك أنها وجدت فستانًا أعجبها في جولتها التسوقية

الأخيرة ، وأن اللون الذي أحبّته من ذلك الفستان لم يكن يوجد منه ما يلائم قياسها ، فهي لا تتوقع منك أن تقوم بخياطة فستان ملائم لها بذات اللون وذات الموديل ، إنها فقط تريد أن تفضفض!

مشكلة الكثير من الأزواج أنهم يعتقدون أن مجرد السكوت أثناء فضفضة المرأة هو استماع كافٍ!

لهذا قد يقول أحدهم : ما الذي تقوله؟ أنا أسمع لها ، وأتركها تقول كل ما يجول بخاطرها ، أليس الاستماع هو السكوت!

لا يا عزيزي الاستماع ليس هو السكوت! ثمة إصغاء سلبي وإصغاء إيجابي!

عندما تبدأ الزوجة بالكلام عما يزعجها ، يقوم بعض الأزواج بهز رؤوسهم فقط ، هذه الحركة عند الرجال تعني نعم أنا أسمعكِ ، ولكن هذا بالنسبة إلى المرأة استماع سلبي ، إن المرأة تترجمُ هذه الحركة بالكلمات التالية : حسناً متى تنتهين!

وعندما تبدأ الزوجة بالكلام عما يزعجها ، يقوم بعض الأزواج بترديد كلمة «نعم» ، هذه الكلمة عند الرجال تعني حسناً أنا أفهمكِ ، ولكن هذا بالنسبة إلى المرأة استماع سلبي أيضاً ، إن المرأة تترجم هذه الكلمة على الشكل التالي : ألم ينتهِ هذا الموشح بعد!

الاستماع السلبي برغم أنه إصغاء ، والمرأة تحتاج إلى الإصغاء في وقت كهذا ، إلا أنه يعطيها انطباعاً أنك لا تعيرها اهتماماً كافياً ،

وأنك تشعر بالملل من كلامها ، وتنتظر بفارغ الصبر اللحظة التي تسكتُ فيها!

إنها لا تحتاج إلى مجرد الإصغاء ، إنها تحتاج الإصغاء الإيجابي!

عندما تبدأ زوجتك بالكلام عما يزعجها ، حاول أن تتفاعل دون أن تقطع كلامها ، هي تريد دعماً منك ، ولكنها بالمقابل تريد أن تقول هذه الكلمات الجاثمة على صدرها كصخرة كبيرة ، وقد تبدو لك المسألة التي تشكو منها تافهة وبسيطة ، وقد تبدو كذلك للعالم أجمع ، ولكن هذا لن يغير من حقيقة أنها عندها مهمة وعظيمة!

بين فترة وأخرى قل لها : حسناً معكِ حق - لا تقلقي كل الأمور ستكون على ما يرام - سأقوم بحل هذا الأمر- أنتِ غالية عندي ولا أرضى بهذا!

هذه الكلمات تمتص غضبها كما تمتص الإسفنجة الماء! وتشعرها أنك مهتم ومكترث ، ولا تشعر بالملل من شكواها!

لا يكفي أن تستمع ، عليك أن تعرف أن الاستماع ليس هو السكوت ، وأن السكوت هو إصغاء سلبي يشعرها بوجود فجوة بينك وبينها ، أو يشعرها أنك لستَ في صفها! عليك أن تمارس الإصغاء الإيجابي ، جمل قليلة ، مقاطعات خفيفة طارئة كفيلة بإنهاء الموضوع ، متى ما فعلتَ هذا قد لا تضطر لحل مشكلة ، لأنه لا

يوجد مشكلة أساساً ، والأمور في سياقها الطبيعي ، لكنها مُتعَبة ومُرهَقة ، وبحاجة إلى التقدير والتفهم والإصغاء ، أكثر من حاجتها إلى الحلول ، خصوصاً في مشاكلها مع الأولاد!

تخيل أن مشكلتها التي تفضفض بشأنها هي عدم اهتمامهم بغرفهم ، وإعادة الأشياء إلى أماكنها ، تسعون بالمئة من أطفال العالم إن لم يكن أكثر يفعلون هذا الشيء ، وقد كنا أطفالاً وفعلناه ، وسيأتي أطفال آخرين إلى هذا العالم وستكون غرفهم أشبه بساحات المعارك ، أنت لن تقوم بأكثر من توجيه الملاحظات لهم ، وهذا شيء قد تكون فعلته من قبل ، ولكن الأمور بحاجة إلى متابعة ، وقد يكون كل الأمر أنها تريد أن تشعر أنك موجود في حياتها وتقدم لها الدعم!

٤- لا تنسَ مناسباتها الخاصة:

المناسبات الخاصة عند النساء أشبه بأعياد الاستقلال عند الدول يجب أن لا يمر هكذا مرور الكرام ، لا بد من مراسيم وإحياء هذه المناسبة ، بينما المناسبات الخاصة عند الرجال ليست بهذه الأهمية ، القليل اليسير من الاحتفاء يفي بالغرض!

فعلى سبيل المثال إنها طامة كبرى أن تنسى تاريخ ميلاد زوجتك ، ولا تقدم لها هدية في هذه المناسبة ، بغض النظر عن قيمة هذه الهدية ، فكرة تجاهل الموضوع تماماً وأن لا تتذكره فكرة مزعجة بالنسبة لها ، مزعجة جداً ، الأمر لا علاقة له بالهدية بطريقة

مباشرة ، الهدية هي طريقة تعبير بالنسبة لها تترجمها بأنك تقول لها : أنا أتذكر وأهتم!

ومن باب المخالفة فإن عدم تذكر هذه المناسبة ، أو تمريرها دون مراسيم خاصة ولو كانت بسيطة جداً وغير مكلفة ، لا يمكن أن تترجمها بطريقة أخرى غير : أنا لا أتذكر ، ولا أهتم!

الأمر عند الرجال ليس بهذه الأهمية ، طبعاً لا ينزعج الرجال من تذكر زوجاتهم لتواريخ ميلادهم ، ولا ينزعجون أيضاً من تقبل الهدايا ، لا أحد أساساً ينزعج من هدية ، ما أعنيه أن الرجال لا يترجمون عدم الاحتفاء على أنه قلة اهتمام أو عدم رغبة بهم!

أيضاً الذكرى السنوية للزواج ، هذا تاريخ مقدس عند الزوجات ، وتذكره ، وإعطاؤه أهمية ما ، يعني في أذهان النساء أنه تجديد بيعة لها ، بالحب والقبول ، إنه أشبه بما يقوم به الملوك عندما يتلقون تجديد البيعة بالذكرى السنوية للجلوس على العرش!

الرجال ما يعنيهم من الزواج هو الزواج نفسه ، إنه عقد قد أُبرم وانتهى الأمر ، ولا يفهم كثير من الرجال لماذا علينا إحياء هذا التاريخ كل عام كأنه تاريخ جلاء الجيوش المحتلة عن البلاد!

إذاً فالرجال حين لا يهتمون بالذكرى السنوية للزواج فهذا لا يعني أنه لا يهتمون بالزواج أساساً ، على العكس تماماً ، ولكن علاقة الرجال العاطفية مع المناسبات أقل منها بكثير مما هي الحال عند النساء!

وعندما لا يكترث الرجال كثيراً بالمناسبات الخاصة ، فإنهم لا يكترثون لأنهم يؤمنون أن الأمر ليس بغاية الأهمية ، حتى أن غالبية الأزواج لا يحفظون أساساً تاريخ الزواج ، وجزء من الرجال الذين يحفظونه إنما يحفظونه لأنهم يعرفون أن زوجاتهم ينزعجهن جداً أن يُنسى تاريخ عقد الزواج!

المسألة فارق في الاهتمام ، وليس فارقاً في الحب ، بمعنى آخر ، المرأة تتذكر وتهتم بهذه
المناسبات ليس لأنها أكثر حباً للزوج ، بل لأنها تهتم بأثر الأشياء ، فيما يهتم الرجل بالأشياء ، المرأة فيها من الروحانيات وما تعنيه الأشياء أكثر من الرجل ، والرجل فيه من العلاقة بالأشياء بحد ذاتها أكثر من المرأة!

وعندما يكون الخلاف بسبب الفرق في الطبع ، والتركيبة النفسية والذهنية ، فلا يكون حل الخلاف بمحاولة أحدهما أن يقنع الآخر بوجهة نظره ، لأن الأمر أقرب إلى الفطرة وليس أقرب إلى وجهة نظر أو قناعة قد يستطيع نقاش أن يغيرها!

لهذا عزيزي الزوج ، عليكَ أن تراعي فطرتها في هذا الأمر ، أن تحاول أن تتذكر وتهتم لأن هذا شيء يشعرها بالسعادة ، واجب كل شخص أن يقوم بالأعمال التي تسعد شريكه ولو لم يرَ أهميتها!

وأنتِ عـزيزتي الزوجـة ، عليكِ أن تراعي فطرته وعـقليتـه بالمقابل ، هو لا ينسى أحيانـاً هذه المناسبات لأنكِ لستِ مهمة عنده ، وإنما قد ينسى لأن صلته وعلاقته بالتواريخ من هذا النوع أقل بكثير من علاقتكِ وصلتكِ أنتِ بها!

مشكلة بعض الزوجات في هذه المناسبات ، أنها تتذكر المناسبة جداً ، تحفظ تاريخها ، ولكنها لا تخبر زوجها بها ، تسكت وتكتم الأمر ، تريده أن يتذكر وحده ، ويهتم من تلقاء نفسه ، طبعاً لا شيء أجمل من اهتمام الإنسان بشيء من تلقاء نفسه ، ولكن لماذا عليكِ أن تنصبي فخاً له ، وتنظري هل سيسقط فيه أم سينتبه ويتخطاه؟! الزوجة الذكية لا تفعل هذا أبداً ، وإنما قبل المناسبة تلمح له بشيء أعجبها وتتمنى الحصول عليه في عيد ميلادها الذي اقترب ، أو في ذكرى زواجها الذي يصادف اليوم الفلاني ، وهو لا شك سيهتم حينها ، نحن مطالبون بإنشاء الجسور في علاقتنا الزوجية لا بإقامة الجدران!

وأنتَ عزيزي الزوج ، لا يتطلب الأمر منك كثيراً ، كلنا نملك هواتف وجوالات ، ضع عندك تنبيهاً على هذه التواريخ ، وبمجرد أن تتذكر ، احتفاء بسيط ، هدية ، باقة ورد ، عناق ، أي شيء من هذا يفي بالغرض! كثيرة هي الأشياء التي نفعلها في الحياة لأجل الآخرين ، في العمل نقوم بأشياء عن غير اقتناع والسبب أن طبيعة العمل تتطلب هذا ، أو هذا ما يريده المدير ليرضى ، نحن نراعي

الجيران ، الأصدقاء الحساسون ، الأقارب الذين نعرف أن «زعلهم قريب» فأين المشكلة أن نتصرف بهذه العقلية في البيت أيضاً؟!

٥- لا تمنعها من صديقاتها:

الزواج هو عقد شراكة وليس عقد تملك!

نحن عندما نرتبط علينا أن نعرف أنه يجب أن نتخلى عن كثير من نظام حياتنا في العزوبية ، فالرجل مثلاً صار مطالباً أن ينظم وقته بين عمله وبيته وأصدقائه وهوايته ، فليس من المعقول أن يعيش بالعقلية ذاتها ، وبالطريقة ذاتها التي كان يعيش فيها عندما كان أعزباً! والمرأة أيضاً كذلك ، بمجرد انتقالها إلى بيت زوجها صارت مطالبة أن تفهم أنها أمام وضع جديد يفرض عقلية جديدة في التعامل مع الحياة!

وعلى كل من الزوج والزوجة أن يعرفا أنه من الجيد أن تبقى مساحة خاصة لكل واحد منهما ، فليس من الصحي أبداً أن يطالب الزوج زوجته أن تنسى كل ماضيها من أصدقاء وأهل ومعارف وتبدأ معه من جديد كأنها وُلدت يوم تزوجها ، وكذلك ليس من الصحي أبداً أن تعتقد الزوجة أن لها الحق في استرقاق زوجها ، على التأكيد أن لكل منهما الحق في الآخر ، الوقت ، والاهتمام ، والحب ، والرعاية ، ولكن كل هذه أشياء لا تتنافى مع أن يكون للإنسان أصدقاء!

الزوجات أكثر تقبلاً لوجود الأصدقاء في حياة الزوج من تقبل الأزواج لوجود الصديقات في حياة الزوجة ، وانزعاج الزوجات من هذا الأمر سببه في الغالب إمضاء الزوج أكثر وقته مع أصدقائه وليس بسبب وجود أصدقاء يحب أن يقضي معهم بعض الوقت!

العلاقة الزوجية أشبه بالإمساك بعصفور ، إذا أمسكته بقوة سيختنق ويموت ، وإذا أمسكته باستخفاف سيفلت من يدك ويطير ، وإذا أمسكته برفق سيبقى في يدك سليماً معافى!

وهذا هو المطلوب أن نمسك برفق ، ومن الرفق أن نفهم أن وجود الأصدقاء في حياتنا أمر صحي وجيد ، وله أثر بالغ على نفسيتنا ، واحتفاظ كل منا بأصدقائه بعد الزواج مع مراعاة أننا قد ارتبطنا له فائدة طيبة على الزواج .

من المفهوم أن ينزعج الزوج من صديقة من صديقات زوجته لسبب ما ، ولكن ليس من المفهوم أن ينزعج لمجرد أن يكون لها صديقة!

لا تحرمها من صديقاتها ، لا تغِبْ هذه الفكرة عن بالك أبداً!

أما الاتفاق على إدارة وقت الأسرة ، ومادياتها ، ومتطلباتها فهذه فكرة أخرى ، ولكن حرمانها من صديقاتها أمر سيء جداً ، سيؤثر على نوعية العلاقة بينكما وإن لم يؤثر على استمرارها ، ونحن لا نريد مجرد علاقة مستمرة ، وإنما نريد علاقة ناجحة مفعمة بالحب والقبول والتراضي! المريض في غرفة العناية وتحت الأجهزة إنسان

حي ولم يمت بعد ، ولكن حياته منقوصة ، لا هي حياة ولا هي موت! وهكذا نحن لا نريد مجرد علاقة!

٦- لا تمنعها من أهلها:

نحن عندما نتزوج فإننا نرتبط بأشخاص لهم أهل وأقرباء ، وليس بأشخاصٍ مقطوعين من شجرة ، ومن النبلً أن لا نكون سبباً في قطيعة الرحمٍ ، ولا على جعل بعضنا مقطوعين من شجرة!

بر الوالدين ، وصلة الرحم ، عبادة كالصلاة والصيام ، ويجب على كل من الزوج والزوجة أن يهتم كل منهما بآخرة الآخر كما يهتم بدنياه ، هذا من زاوية دينية ، أما من زاوية دنيوية فالذي لا خير فيه لأهله لا خير فيه للناس! والذي ينسى معروف أهله معه فلن يحفظ معروف أحد ، لأن الناس مهما أحسنوا إلينا فلن يحسنوا إلينا معشار ما أحسن أهلنا إلينا!

الزوج العاقل لا يخاف من الزوجة البارة بأهلها ، وإنما يخاف من العاقة! فهذه التي لم تحفظ فضل أهلها عليها كيف ستحفظ فضله؟!

والزوجة العاقلة لا تخاف من الزوج البار بأهله ، وإنما تخاف من العاق! فهذا الذي لم يحفظ فضل أهله كيف يحفظ فضلها؟ الذي نسي تضحية أمه ، هل سيتذكر تضحية زوجته!

إن البررة لا يُخيفون ، العاقون هم المخيفون!

حدثتني جدتي مرة أن شاباً تقدم لخطبة فتاة من قرية مجاورة ، فوافق الأهل وتم الزواج ، ويوم صباحية العروسين نهض الشاب باكراً ، وتوجه إلى السوق ، وأحضر نوعين من اللحم نوع جيد ونوع رديء!

وعندما عاد إلى البيت سألته زوجته : لماذا أحضرتَ نوعين من اللحم ، أرى نوعاً جيداً وآخر رديئاً!

فقال لها : النوع الجيد سنأكله أنا وأنتِ وحدنا ، أما النوع الرديء سنطعمه لأمي حين تأتي اليوم لزيارتنا!

لم تقل الزوجة شيئاً ، وعندما حضر أهلها ليطمئنوا عليها في أول يوم لها في الزواج كما هي العادة ، أخبرت أباها وأمها بالأمر ، وقالت لهم : طلقوني منه إني أخاف أن أنجب منه ولداً عاقاً مثله ، لقد ربيتموني أن من لا خير فيه لأهله لا خير فيه للناس!

أستغرب إصرار بعض الأزواج على منع زوجته من أهلها! لا أفهم أين المشكلة في أن يكون للمرء أهل ، على العكس المشكلة أن يكون له أهل فيدفنهم على قيد الحياة ويتصرف كأنهم أموات!

النبيل يحث زوجته على صلة أهلها ولا يكون هو سبباً للقطيعة!

نحن سكان الجنة ولسنا سكان هذا الكوكب ، نحن هنا في زيارة ستنتهي يوماً ما ، ويجب أن نتصرف ونحن في هذه الزيارة بما يساعدنا على العودة إلى مكاننا الأصلي الذي ننتمي إليه ، فأي انتماء للجنة عند العاق ، أو عند من يريد من الناس أن يكونوا عاقين!

تنظيم العلاقة مع الأهل بشأن الزيارات والاستقبال لا شيء فيه ، الحياة أيضاً تحتاج إلى نظام ، ولكن الحرمان أمر مقيت ولا أخلاقي أبداً ، فضلاً على أنه معصية!

بعد صلح الحديبية ، جاءت أم أسماء بنت أبي بكر إلى المدينة لزيارتها ، وكانت يومها على الكفر لم تُسلم بعد ، فاعتقدت أسماء أن في استقبال أمها وهي مشركة معصية ما ، فأرسلت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم تسأله في الأمر أتستقبل أمها وتصلها أم لا؟!

فأرسل إليها يقول : صلي أمكِ!

تخيل معي ، أم مشركة وبنت على الإيمان ، ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يرضَ بعقوق أم مشركة ، فكيف نريده نحن ونأمر به!

المفترض أن يزعجك العقوق لا البر! أن تخاف من العاقة لا من البارة!

بالمقابل أي عدل وأي منطق حين تريد منها أن تحترم أهلكَ وتصلهم وتقطع هي صلتها بأهلها ، وكل إنسان أهله عزيزون عنده! ثم برأيك كيف هي نفسية المرأة التي حُرمت من أهلها وليس هناك سبب إلا تكبير الرأس وحب التملك والتجبر ، حتى وإن حصل بينك وبين أهلها خلاف ، وهذا أمر لا يجب أن يحصل لأنهم أهلك

أيضاً ، فيجب أن لا تمنعها من أهلها ، اترك للصلح مطرحاً ، لا تحرق غابة لأن نملة فيها قد عضتك من طرف إصبعك ، ولا تهدم بيتاً لأن ذبابة قد دخلته ، علينا أن نتصرف بعقل ، ونختلف بأدب ، الإنسان الذي لا يعرف كيف يختلف مع الآخرين لا يعرف كيف يتفق معهم!

٧- لا تمدح جمال امرأة أخرى أمامها:

مدح الآخرين ليس أمراً سيئاً بالمناسبة ، على العكس الإنسان النبيل يقدر الصفات النبيلة في الآخرين ، ويتحدث عنها في حال اقتضت الضرورة ، أو سمح سياق الحديث ، يعجبني الإنسان الذي يتلقى اتصالاً هاتفياً من شخص لا أعرفه وهو جالس معي ثم بعد الانتهاء من المكالمة يقول : هذا فلان صديق قديم ، أو زميل عمل ، خلوق ومؤدب وشهم ، فأجمل من كتمان سيئات الآخرين في غيابهم هو التحدث عن حسناتهم في غيابهم .

من الجميل أن يحفظ الرجل لأصدقائه صفاتهم الجميلة في غيابهم ، ومن الجميل أيضاً أن تحفظ المرأة لصديقاتها صفاتهن الجميلة أيضاً .

إذاً أين المشكلة؟!

المشكلة في مدح صفات ليس من حقك أساساً أن تمدحها أمامها ، هذا إن كان بالأساس من حقك أن تمدحها في غيابها!

هناك مـديح للجنس الآخـر يُعـدُّ مـقـبـولاً ولا شيء فيـه ، على سبيل المثال :

تلتـقي بزمـيلتك في العـمـل في مكان عـام ، تعـرفـهـا على زوجتك ، وبعد انصرافها ، تخبر زوجتك أن زميلتك في العمل هذه خلوقة ومؤدبة وتساعد الجميع ، صبرتْ على زوجها عندما مرض وبقيت إلى جانبه حين احتاج إليها . هذا مديح لا شيء فيه ، أنت هنا تُشعرها أنك تُقدِّر أخلاقها ، وحسها الإنساني ، تُقدس مفهوم العائلة ، وتحب الوفاء في الناس ، ويعجبك أن ترى الأوفياء!

ولكن مـديحك لجـمـال زميلتك جارح جداً لزوجتك ، تخيل مثلاً أن تقول لها بعد انصرافها : هل رأيتِ كم هي ناعمة وجميلة؟!

أنت هنا لا تجرحها فقط ، أنت تخبرها دون أن تعرف أنها أقل جمالاً من زميلتك في العمل! وكذلك تخبرها أنها غير كافية لك إلى الحد الذي دفعك أن تلتفت لغيرها ، وكذلك تملأ نفسها بالشك وعدم الاطمئنان تجاهك!

لنفترض أن امرأة ما غير زوجتك بدت في عينيك جميلة ، ما الداعي لتخبرها أن فلانة جميلة ، وما الفائدة من إشراكها بهذه المعلومة ، ليس كل ما يُعرف يُقال كما قالت العرب قديماً! ومن واجبك أن تحافظ على كرامة زوجتك تماماً كما هي من واجبها أن تحافظ على كرامتك!

أنتَ ربما تتقبل فكرة أن تخبرك أن زوج صديقتها فلانة خلوق ومؤدب ويعاملها بلطف ويحترم أهلها ، ولكنك لن تتقبل فكرة أن تقول لك إن زوج صديقتها وسيم! فلماذا عليها هي أن تتقبل منك ما لا تتقبله أنتَ منها؟! تخيل أنها قامت بإخبارك بمدى وسامة زوج صديقتها ، أي جرح في كرامتك قد أثارته ، أي إحساس بالنقص فيك قد أشعلته ، هذا هو بالضبط شعورها حين تمدح أنت جمال الأخريات!

إذا كان العالم مليء بالجميلات ، فهو أيضاً مليء بالوسيمين ، وكما أنت تلاحظ جمال النساء ، هي أيضاً لديها عيون وتلاحظ وسامة الرجال ، رؤية الجمال في النساء ، والوسامة في الرجال هو حدث يومي عادي ، ولكن هل يبقى هذا الحدث العادي عادياً عندما نتحدث به أمام شريك العمر!

بالطبع إن الرجال هم الذين يمتدحون جمال الأخريات ، النساء لا يفعلن في ٩٩٪ من الحالات ، وللأسف هم مسلحون بفكرة أنا رجل ، والرجل لا يعيبه إلا جيبه ، من قال هذا ، من أرسى هذا المبدأ العقيم ، ما يعيب المرأة يعيب الرجال أيضاً! والحكم على الرجل بجيبه فقط هو مبدأ التجار في الأسواق ، لا مبدأ البشر النبلاء في الحياة!

بعض الأزواج يمتدحون جمال النساء الأخريات أمام زوجاتهم من أجل إثارة غيرتهن فقط ، إنهم يستمتعون برؤية نار الغيرة تأكل

قلوبهن ، وهذا برأيي مـرض نفـسي ، إنهـا الـسـادية في وجـه من وجوهها ، تحقيق لذة من خلال رؤية الألم والأذى ينزل بالآخرين!

واجبك كزوج هو أن ترمم كل نقص تشعر به زوجتك ، كلنا مع العمر نكبر ، ونفقد شيئاً من نضارتنا وبهائنا ، والمرأة أكثر حساسية من الرجل تجاه فقد شيء من جمالها ، وهي بحاجة إلى أن تزرع فيها ثقة لا أن تقضي عليها ، لا شيء أكثر إيذاءً من إخبار شريك العمر أنه لم يعد كافياً! وإخبار شخص أنه لم يعد كافياً ليس بالضرورة أن يُقال مباشرة ، إن مدحك جمال النساء الأخريات على مسامعها هو إخبار غير مباشر أنها لم تعد كافية!

٨- احترمْ عقلها:

تحبُّ المرأة أن تسمع على الدوام أنها جميلة ، ولكن هذا لا يعني أنها جسد فقط! المرأة مثلك تماماً ، فيها كرامة ، وإحساس ، وضمير ، تحبُّ التقدير والاحترام ، والشعور بالأمان!

إنك حين تشاورها في أمرك فلستَ تتخلى عن رجولتك ، أنتَ تمارسها! هي شريكتك وليست عدوك ، رفيقتك وليست خصمك ، أنتما في بحر الحياة على مركب واحد ، تنجوان معاً وتغرقان معاً ، لديكما مصير مشترك ووحدة حال ، فلماذا تريد أن تفرض عليها مصيرها ، كل قرار تتخذه أنتَ يؤثر على حياتها ، تماماً كما كل قرار تتخذه هي يؤثر على حياتك ، ومؤذٍ جداً للإنسان أن يشعر أنه تابع لا شريك ، أنتَ حين تقرر وحدك ، وتخططُ وحدك ، تخبرها دون أن تدري أنها تابع لا شريك!

لستُ أقول أن احترام عقلها يعني أن تنفذ كل ما تقوله لك ، هذه أيضاً تبعية منك ، وأنا لا أريدك تابعاً لها ، أريدك شريكها ، أن تناقشها في قراراتها ، تخبرها بالخطأ ، وتثني على الصواب ، كذلك أن تدعها تناقشك في أمرك ، فحتى لو لم تأخذ برأيها بعد نقاش يتسم بالاحترام ، والتفهم لوجهة نظرها ، فلن تشعر أنها مجرد تابعة لك ، بالنهاية لا بد من أخذ قرار ، وقد يكون قرارك هو الصائب!

في المقابل قد يكون قرارها هو الصائب ، وقد ترى في قضية ما لا تراه أنتَ ، فأين العيب في أن تأخذ برأيها!

لا أعرف من الذي زرع في أذهان الرجال أنه من تمام الرجولة مخالفة النساء؟!

حتى إن بعضهم يتشدق ويقول : شاوروهن وخالفوهن! يقولونها ملء الفم ، وبكل ثقة وكأنها آية في المصحف ، أو حديث في صحيح البخاري ، وهي في الحقيقة ليست إلا مقولة أنتجتها الذكورية المريضة!

ولنا في رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة ، سيد الرجال هو ، ولم يكن يجد حرجاً في سماع رأي زوجته ، والأخذ به ، ليس في القضايا الشخصية التي تخص بيته وحده ، بل في القضايا المصيرية العامة التي تخص الأمة بأكملها!

كانت أمنا أم سلمة رضي الله عنها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في رحلته إلى مكة حيث تم صلح الحديبية . وسأروي قصة الصلح باختصار لأن الذي يعنينا موقف أم سلمة وتعامل النبي صلى الله عليه وسلم معه .

خرج النبي صلى الله عليه وسلم برفقة أصحابه بثياب الإحرام يريدون العمرة ، وعندما وصلوا إلى مكان قريب من مكة يقال له الحديبية حطوا رحالهم يستريحون من عناء السفر قبل الاتجاه إلى مكة ، ولكن قريشاً كانت قد حزمت أمرها في منع المسلمين من البيت الحرام ، رغم أنهم جاؤوا معتمرين في ثياب إحرامهم بلا سلاح ولا عدة حرب ، وجرت بين الطرفين مفاوضات مطولة ، قضتْ في النهاية أن يرجع المسلمون هذا العام عن مكة ويعودون في العام القادم ، وشروط كثيرة ليس هذا موضعها!

المهم أن النبي صلى الله عليه وسلم أخبر صحابته أن عمرتهم قد تمتْ ، وأن الله قد قبل منهم ما جاؤوا لأجله ولو لم يفعلوه حقاً ، فإنما الأعمال بالنيات! ولكن المسلمين من حبهم لله ورسوله ، وغضباً منهم للإسلام لأنهم اعتبروا عودتهم نصراً لقريش عليهم شعروا في قرارة أنفسهم بشيء من الهزيمة!

أمرهم النبي صلى الله عليه وسلم بذبح خراف الهَدي ، وحلق رؤوسهم فالعمرة قد تمتْ ، ولكن أغلبيتهم لم يفعلوا ، وليس عن معصية للنبي صلى الله عليه وسلم وإنما عن حب أن يروا العزة لله ورسوله!

دخل النبي صلى الله عليه وسلم يخبر زوجته أم سلمة برفض أصحابه ذبح هديهم وحلق رؤوسهم ، وقال لها : هلكَ المسلمون! فعصيان الأنبياء مهلكة لا شك ، لأن طاعتهم من طاعة الله سبحانه! وهنا برز عقل أم سلمة ، ونطقت بالحكمة قائلة له : يا رسول الله ، أتحب ذلك؟ أُخرجْ ثم لا تُكلم أحداً منهم كلمة حتى

تنحر خرافك ، وتحلق رأسك ، فإنهم إذا رأوك فعلتَ هذا فعلوا!

فخرج النبي صلى الله عليه وسلم يعمل بنصيحة زوجته ، فلم يكلم أحداً منهم ، حتى ذبح خرافه ، ودعا الحلاق فحلق له شعره!

ثم لما رأى الصحابة هذا ، قاموا إلى خرافهم فذبحوها ، وإلى رؤوسهم فحلقوها!

فهل نقصتْ رجولة النبي صلى الله عليه وسلم حين أخذ برأي زوجته ، حاشاه بأبي هو وأمي سيد الرجال! هذا قدوتنا فدعْ عنك أقوال الذكوريين المريضة ، وخُذ بفعل الرجال!

٩- كُنْ لطيفاً:

بين الرجل الغني والرجل المرح ، تسعون بالمئة من النساء سيخترن الرجل المرح! العشرة بالمئة الباقية مضطرات! حتى الوسامة التي هي مطلب أنثوي في الرجال ، ستجد أكثر من نصف النساء يفضلن العادي المرح ، على الوسيم الغارق في جديته حد النكدية!

طبعاً لا أعني بالرجل المرح أنه هو الرجل المهرج الخفيف الذي يكون بلا شخصية ، هذا تهرب منه النساء هروب العرب القدماء من أرض وقع بها الطاعون ، وهروب الأعراب من أرض جفّ ماؤها! ولكن الرجل المرح هو خفيف الظل ، لطيف ، يرسم ابتسامة على وجه امرأته ، ولا يحمل السلم بالعرض! ولا يتنافى مع المرح أبداً وضع الجدية حيث يجب ، هذا من تمام الرجولة أيضاً!

وقد تسألني سؤالاً منطقياً ما الذي يدفع النساء لتفضيل الرجل المرح على الرجل الثري الذي ينظر إلى الحياة كصفقة تجارية ، فاسمع

إذاً الإجابة من النساء ، ولكن قبلها يجب أن تعلم أنه لا يتنافى المرح مع الثراء ، تماماً كما يمكن أن يجمع رجل بين الفقر والنكد!

من استبيان حول الرجال المرحين ، أعطت النساء أسباباً لإعجابهن بهذا النوع من الرجال ، وكان أبرز ما قلنه :

- الرجل المرح له قدرة على إسعاد امرأته ، رغم ما يقع عليه من التزامات وأعباء الحياة ، فهو دوماً مجتهد لرسم البسمة على شفاه شريكة العمر!

إذاً هو ليس إنساناً حالماً يعيش على غير أرض الواقع ، بالعكس تماماً ، لديه حياة ، ووظيفة ، ومسؤوليات ، ولكنه يخرج من دائرة نفسه إلى دائرة امرأته ، ويجد لذة وسعادة في رؤية ابتسامة على فمها ، ويطير فرحاً بصوت ضحكتها ، بالمناسبة أشياء بسيطة تفي بالغرض ، نكتة حلوة طريفة ، باقة ورد في غير مناسبة ، هدية بلا ميعاد ، دعوة على عشاء حين يلاحظ انشغالها وتأخرها في إعداده ، مشاركتها شيئاً تقوم به ، لتكون مرحاً لا يعني أن تكون مهرجاً!

- الرجل المرح متفائل!

التفاؤل إذاً من صفات الرجل المرح ، وهناك فرق بين الرجل الذي يرى الحياة عبارة عن مشكلة كبيرة ، وبين من يراها حياة جميلة رغم وجود بعض المشاكل فيها ، لا شيء أصعب من الرجل النكدي الذي لا يرى إلا سلبيات الحياة ، يرى أشواك الوردة قبل لونها ورائحتها ، ومتاعب الإجازة قبل حجز تذاكر السفر ، وزحمة

المطاعم قبل الذهاب إليها! المتفائل على عكس ذلك تماماً ، يرى الأشواك شيء طبيعي في الوردة وهي رغم أشواكها لها لون جميل ورائحة عطرة ، لا يرى مشكلة إن كان المطعم مزدحماً ، وأن صعوبة الحصول على تذاكر للسفر شيء يستحق العناء لأنه يسعدها ، هو شخص محفز وداعم ، يشاركها أفكارها ، ويشجعها على المبادرة ، يفتح لها الفضاء إذا شعر برغبتها في الطيران ، يفتح لها نافذة الحياة ولا يدفنها وهي على قيد الحياة!

- الرجل المرح يساعد المرأة للحفاظ على جمالها!

قد يقول قائل : ما علاقة هذا بجمال المرأة؟!

في الحقيقة هناك علاقة وثيقة بين الأمرين ، وليست مجرد علاقة فقط!

إن ما نعيشه ونحسه في داخلنا ينعكس على وجوهنا ، فعلى سبيل المثال كلنا كان لنا أصدقاء في المدرسة ، ثم فرقتنا الحياة بعد ذلك ، وانطلق كل منا في حال سبيله ، ولكنك لا شك ما زلت تعرف بعض أصدقاء طفولتك ، برأيك هل جميعهم يبدون في سن واحدة؟!

قطعاً لا ، بعضهم تجد له ملامح عمره الطبيعي ، بعضهم أصغر كثيراً من عمره الحقيقي ، وبعضهم يبدو أكبر من عمره بسنوات!

العمل الشاق ، المسؤوليات الجسام ، تعب النفسية ، النكد ، الأحزان ، غياب التشجيع ، البيئة الهادمة للمعنويات ، كل هذه أشبه بعوامل التعرية التي تنحت الصخر ، وتغير شكل الجبال بمرور

السنوات ، فإذا كانت عوامل التعرية تنحت الصخر فكيف لا تنحت عوامل الإنسان!

والمرأة أولاً وأخيراً إنسان ، هناك امرأة تراها مشرقة وفي نفس سنها امرأة تكاد تنطفئ ، لا أتحدث عن مستحضرات التجميل ، أتحدث عن سعادة الروح التي متى حضرت صرنا معها أقل عمراً وأكثر إشراقاً ، وعن شقاء الروح التي متى حضر لم تستطع كل مستحضرات التجميل في العالم إزالة آثاره ، إن الابتسامة الخارجة من أعماق القلب لا ترسمها على ثغر المرأة ألوف أحمر الشفاه ، ولمعة السعادة في العين لا تأتي بها أقلام كحل العالم كله ، نحن نشرق من الداخل ، ومن الداخل ننطفئ أيضاً!

- الرجل المرح قصير النفس في الخصومات!

قلنا أن المشاكل تقع دوماً ، وأنها ليست بهذا السوء الذي يعتقده الناس ، وأن لها في كثير من الأحيان أثراً طيباً على العلاقة الزوجية ، ولكن كل هذا مرهون بكيفية تعاملنا معها ، وبنظرتنا إلى شريك العمر!

هناك رجل يتعامل مع امرأته في المشاكل الزوجية كأنها عدو احتل أرضه ، ويتصرف على هذا الأساس ، إما قاتل أو مقتول ، لا يترك للصلح مطرحاً ، لا يتنازل ، ولا يراجع نفسه ، بل ورأسه عنيد حتى حين تبادر هي إلى مصالحته!

وهناك رجل يتعامل مع امرأته في المشاكل الزوجية كأنها صديق حميم حصل معه اختلاف في وجهات النظر ، يراعي الحب الذي كان بينهما أيام الوفاق ، والحر من راعى وداد لحظة كما قالت العرب! يترك للصلح مطرحاً ولا تكون ردات أفعاله أكبر من أفعالها ، أليس من قوانين نيوتن أن لكل فعل ردة فعل تساويه! فإذا كانت هذه الحياة الجامدة ، المنزوعة من العواطف ، تتعامل مع الأمور بمقدارها ، فلماذا لا يتصرف المحبون مثلها على الأقل ، أو على الأجمل وهو امتصاص الأفعال عن طريق ردات أفعال أكثر حكمة واتزاناً ، إن الحكمة تقتضي أنه إذا بدأ إنسان بإشعال النار في غابة أن نرمي فوق ناره دلواً من الماء ، لا دلواً من البنزين ، وهذا هو الرجل المرح له عقلية الإطفائي! كذلك هو يشعرها أنها عزيزة حتى في أحلك لحظات خلافهما ، فيحفظ كرامتها وإن خاصمها ، ولا يجرحها وإن لم يكلمها ، كذلك هو شخص مبادر ، الخصام يجعل بيننا وبين شريك العمر مسافة ، على أحدهما أن يبدأ الخطوة الأولى تجاه الآخر ، والرجل الذي يبدأ الخطوة الأولى لا يسقط من عين امرأته كما يرى الذكوريون ، وإنما يرتفع كما يرى الرجال!

بالمقابل هو يُقدِّر الخطوة التي تخطوها امرأته نحوه ، ويعتبر أن هذا دليل على أنه غالٍ عندها ، وأن غضبه وحزنه يزعجها وتريده أن يرضى ، إنه لا شيء أسوأ من الذي لا يبادر إلى الصلح ، إلا الذي يرفض مبادرة الصلح حين يقوم بها الطرف الآخر!

- مع الرجل المرح لا مجال للملل والرتابة!

الأنهار الجارية ، البحار التي يهدر فيها الموج ، دوماً مياهها نقية متجددة ، إنها لا تقف مكانها ، وحياتها ليست على وتيرة واحدة ، الماء الآسن ، قبيح الرائحة هو الماء الراكد الواقف مكانه ، وهكذا هي الحياة الزوجية!

الزوج المرح كالنهر الجاري ، وكالبحر المتجدد الموج ، دوماً لديه طقس جديد ، وعنده دوماً مشروع سعادة ، ومفاجأة!

على العكس من هذا هناك أزواج رتيبون ، حياتهم عبارة عن يوم واحد يتكرر ، وكما يقول خبراء الإدارة : لا تعمل خمسين سنة في وظيفة بنفس الآلية والعقلية ، وترضى بنفس النتائج ثم تقول عندي خبرة خمسين سنة ، لا يا عزيزي أنت عندك خبرة سنة واحدة تكررت خمسين مرة!

الرتابة تقتل الناس ، الرجال والنساء على السواء ، بعض المرح ، بعض التغيير ، لن يحميها وحدها ، سيحميك أنتَ أيضاً ، اجر كالأنهار وتجدد ، اهدرْ كالموج وتخلص من رتابتك ، لا تكن ماءً راكداً ، الماء الراكد يأسن!

١٠- كُن مبادراً:

لا تحب المرأة أن تطلب دائماً ، وترغب أن يكون الرجل مبادراً ، وهذه في الحقيقة ليست خصلة نسائية فحسب وإنما خصلة بشرية بشكل عام ، نحن البشر نحب أن نشعر بالاهتمام لا أن نطلبه!

لا أحد يقول للناس أنا مريض في المستشفى تعالوا لزيارتي ،

رغم أنه يحب أن يأتي الناس للاطمئنان عليه ، عندما يكون أحدنا ممداً على سريره في المستشفى ويدخل عليه زائر ما فإنه ينتشي فرحاً ، لأن الاهتمام دون طلب يشعرنا بقيمتنا عند الآخرين!

لا تقول الأم لأبنائها بعد أيام يصادف عيد الأم احضروا لي الهدايا ، ولكنها تنتشي فرحاً عندما يبادر أولادها لذلك!

هناك فارق كبير بين زيارتك لأختك المتزوجة في بيتها بعد عتبها عليك لأنك لا تزورها وبين مجيئك لزيارتها من تلقاء نفسك ، الأول طلب والثاني مبادرة!

أعتقد أن هذه نقطة بديهية نعرفها جميعاً ، نعيشها ، ونشعر بها ، ولن يزيد طرح أمثلة عليها شيئاً ، إن توضيح الواضحات يؤدي أحياناً إلى تعقيدها! وما نعرفه جميعاً في الحياة عامة هو نفسه في الحياة الزوجية ، فكن مبادراً :

ليس عليها أن تطلب منك إخراجها من المنزل لتناول العشاء مثلاً ، بادر أنت ، قل لها ما رأيك أن أدعوك غداً لتناول العشاء في المطعم . هذا شيء يسعدها كثيراً ، لأنه اهتمام دون طلب ، ولأنه يشعرها أنك ترغب في قضاء وقتٍ معها من تلقاء نفسك!

قل لها رتبي أمورك سنزور أهلكِ مساءً ، كل النساء يحببن زيارة بيوت أهاليهن بعد الزواج ، ولكنهن لا يرغبن أن يشعرنَ أنهن يقمن بجر الأزواج جراً لهذا ، وأنت عندما تبادر فإنك تخبرها أنك تحب كل ما يمتُّ إليها بصلة ، وأنك تقوم بأشياء تسعدها!

كونها لا تطلب شيئاً فهذا لا يعني أنها لا تريده ، حتى في

الحياة الزوجية هناك كرامة ، ونحن البشر يعز علينا أن نطلب دوماً ولو من شريك العمر ، كن ذكياً ولماحاً واعرف ما الأشياء التي تسعدها وبادر بفعلها ، الناس في الحُب كالعبيد في الرق! إنك كلما أحببت إنساناً أكثر امتلكته أكثر ، والحُب كالدين معاملة!

مغارة علي بابا !

لا شكَّ أنك تعـرفُ قـصـة علي بابا والأربعين حـرامي! هذه القصة الجميلة الساحرة التي شدتنا وجذبتنا وسلتنا ونحن صغار ، لا أحسبُ أحداً لا يعرفها ، هي قصة شعبية تكاد ترويها جميع شعوب الأرض وليس العرب فقط ، وكل شعب يضيف على القصة شيئاً ويحذف منها شيئاً ولكن يبقى الحدث الرئيس هو المشترك بين روايات الشعوب ، ففي النسخة الغربية من الحكاية هناك إضافة جميلة نحتاجها في هذه المقدمة!

ولعلكَ تسألُ نفسك الآن : ما علاقة علي بابا بكتاب مفترض أنه للرجال فقط؟!

سؤال محق ، ولكن لا تكن عجولاً!

تقول الحكاية أن علي بابا كان حطاباً فقيراً ، يقصد الغابة يومياً حاملاً فأسه ، يقطع الحطب على مقدار حمولة حماره ، ويعود إلى السوق ليبيعه للناس ، ثم يشتري بالمال ما يلزم بيته من طعام وشراب وثياب . وكانت حياته تسير على هذا المنوال من الرتابة اليومية ، إلى أن حدث أمر طارئ ذات يوم قلب حياته رأساً على عقب!

ففي أحد الأيام ، وبسبب شح الحطب ، قصد علي بابا مكاناً نائياً في الغابة لم يكن يقصده عادة ، وعندما وصل بدأ بعمله اليومي المعتاد ، وما إن انتهى ، وأمسك بالحبل الذي يربط به حماره يريد أن يجره ويعود به إلى السوق ، حتى شاهد مجموعة من الرجال الأشداء يأتون مسرعين يكادون يشقون الأرض من كثرة الغبار الذي تخلفه أحصنتهم وراءهم .

اختبأ علي بابا وأخذ ينظر ما الذي يريد أن يفعله هؤلاء الرجال الذين توقفوا أمام مغارة . . . نزل زعيمهم عن حصانه وقال مخاطباً باب المغارة : افتح يا سمسم! وكم كانت دهشة علي بابا كبيرة عندما رأى باب المغارة يُفتح ويدخل الرجال ويغلق باب المغارة وراءهم . عرف علي بابا أن هؤلاء الرجال هم اللصوص الذين ذاع صيتهم في البلد ، إنهم أربعون لصاً كما يقول الناس ، فبالغ بالاختباء خشية أن يروه ويصيبه منهم مكروه ، ولم يمضِ وقتٌ طويل حتى صاح زعيم اللصوص من الداخل : افتح يا سمسم! ففتح باب المغارة وذهب اللصوص ، وعندما تأكد علي بابا من رحيلهم تقدم باتجاه الباب وقال : افتحْ يا سمسم! فإذا بباب المغارة يفتح ، ليجد نفسه أمام أكياس الأموال والذهب المكدسة! دخل وأُغلِق باب المغارة ، فحملَ كيساً كبيراً من العملات الذهبية ، وقال للباب : افتح يا سمسم ، فانفتح في الحال!

عاد إلى بيته ، وحدّث زوجته بالأمر . فرحت الزوجة فرحاً كبيراً فلم تر هذا المقدار من الذهب في حياتها فضلاً عن امتلاكه! وسألت علي بابا عن وزن هذا الذهب الذي صار لديهما ، فأخبرها

أنه لا يهم ، المهم أنهم يملكون الكثير وأن حياتهم لن تعود إلى سابق عـهـدها! ولكن الزوجـة أصـرتْ على مـعـرفـة وزن الذهب ، لذلك قصدت بيت أخ علي بابا تستعير ميزانهم لتزن ذهبها ، ولكن شقيق علي بابا وزوجته ارتابا من هذا الطلب ، فهما يعرفان أن علي بابا لا يملك شيئاً يستحق الوزن ، فهو يعمل يوماً بيوم ولا يجني أكثر مما يحتاج ليوم واحد ، لهذا اتفقا على أن يضعا مادة صمغية أسفل كفتي الميزان علَّ شيئاً يعلق فيهما فيعرفان سر علي بابا!

أخذت زوجة علي بابا الميزان ، وزانت ذهبها ، وأعادت الميزان دون أن تنتبه إلى القطعة الذهبية التي علقت أسفل كفة الميزان!

هنا قـال أخـو علي بابا لزوجـتـه : ترى كم يملك علي بابا من الذهب ليستخدم ميزاناً لإحصائه بدل عده!

فقالت له زوجته : لا شك أنه يملك الكثير منه ، ولكن من أين حصل أخوك على هذا الذهب ، الجميع يعرفون أنه فقير ، هناك سر حتماً ويجب أن نعرفه!

قال لها زوجها : سنعرفه بالتأكيد!

حـملَ أخو علي بابا الميزان دون أن ينزع قطعة الذهب العالقة في كفته وقصد علي بابا وفاتحه بالأمر ، حاول علي بابا التهرب من الإجابة خصوصاً أنه يعرف أن أخاه جشع جداً ، ولكنه هدده بإخبار الوالي بأمره ، فلم يجد علي باباً بداً من إخباره بالقصة!

انطلق أخو علي بابا إلى المغارة ، وقف أمام الباب وصاح : افتح يا سمسم! فتح باب المغارة ودخل ، انغلق الباب تلقائياً كما هي عـادته ، وفي الداخل بدأ أخـو علي بابا يحـمل أكـيـاس الذهب ،

وعندما قصد باب المغارة ليخرج نسيَ كلمة السر! كل ما كان يذكره أنها طعام ما ، فبدأ يصرخ : افتحْ يا عدس ، افتح يا حمص ، افتح يا قمح ، ولكن باب المغارة بقي مغلقاً!

حضر اللصوص ودخلوا كعادتهم ليجدوا أخا علي بابا في الداخل ، فأبرحوه ضرباً حتى كاد أن يموت ، ثم ربطوه في المغارة ومضوا!

جاءت زوجته إلى بيت علي بابا تخبره أن أخاه لم يعد إلى البيت رغم أن الظلام قد حلَّ وأنها تخشى أن يكون قد أصابه مكروه!

ذهبَ علي بابا إلى المغارة ، ليجد أخاه مربوطاً يكاد يفارق الحياة من شدة الضرب ،

فأخذه إلى البيت مع بعض أكياس الذهب واقتسماه وتعاهدا أن لا يعودا إلى تلك المغارة!

الذي يعنينا من القصة : افتح يا سمسم! هذه الكلمة التي حفظها علي بابا هي التي ضمنتْ له حياة مرفهة! بينما نسيها أخوه فكاد أن يموت ، ولم تنقذه كلماته الخاطئة : افتح يا حمص ، افتح يا قمح ، افتح يا عدس!

ثمة كلمات تفتح قلوب النساء كما تفتح «افتح يا سمسم» باب المغارة! وثمة كلمات على شاكلة افتح يا عدس كلام لا يجدي نفعاً ، بل إن ضره أكثر من نفعه!

سأقسمُ هذا المبدأ إلى قسمين :

١- افتح يا سمسم للكلام الذي يجب أن تقوله لتضمنَ أن تفتحَ لك قلبها

٢- افتح يا عدس للكلام الذي سيقود علاقتكما إلى الخراب أو إلى حياة زوجية غير مستقرة

أولاً : افتح يا سمسم

١- أحبكِ :

هذه ليست مجرد كلمة من أربعة حروف ، هي أجنحة تحمل المرأة وتحلق بها عالياً ، هي ذراعان تضُمّانها ، أجل يمكن أن يكون لكلمة ما حضن وذراعين ، وأحبكِ هي إحدى هذه الكلمات!

الغريب أنه على شدة توق النساء لسماعها ، يُلاحظ في المقابل شُحٌ عند الرجال في استخدامها!

بعض الرجال لا يقولون كلمة أحبكِ باستمرار لأنهم يعتبرون أن إلقاءها على مسامع المرأة بين فترة وأخرى من دلائل ضعف الشخصية وقلة الرجولة ، وهذا كما لا يحتاج إلى كثير نقاش فهم خاطئ لمفهوم الرجولة! فالأصل أن تشعر امرأتك بحنانك لا بقسوتك ، بطيبتك لا بغطرستك ، وإن كان من المفهوم عدم إظهار العاطفة نحوها أمام الناس فإنه من غير المفهوم ولا المبرر ولا الإنساني عدم إظهار العاطفة نحوها حين تكونان معاً! وأما الذين يعتقدون أن

قول كلمة أحبكِ فيها انتقاص للرجولة ، فنأتيه بدليل يرضاه أن العكس هو الصحيح ، جاء عمرو بن العاص إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وسأله على الملأ : من أحبُّ الناس إليك يا رسول الله؟!

فقال عائشة!

سيد الرجال هو ، ولم يجد حرجاً أن يقول أمام الناس أنه يحب زوجته ، فإن كان يصرح بحبها أمام الجميع ، أتراه لم يكن بينه وبينها يقول لها أحبكِ!

بعض الرجال يميلون إلى إثبات الحُب أكثر من الحديث عنه ، إنهم فئة عملية كما هي فطرة الرجال ، يهتمون بالنتائج لا بالشعارات ، ويميلون لفعل الأشياء بدل الحديث عنها ، وهذه الفئة وإن كانت أفضل من سابقتها بكثير ، فالتعبير عن كلمة أحبكِ بالمواقف أمر عظيم فعلاً ، ولكن من قال أنه يجب على الرجل أن يختار بين أن يقول لامرأته أحبكِ وبين أن يتصرف كأنه يحبها فعلاً ، من قال أن الجمع بين الأمرين عسير ولا يمكن القيام به ، بالعكس تماماً يمكن التصرف بحب ، والكلام بحب ، خصوصاً أنها كلمة تحبها النساء!

بعض الرجال يعتبرون أن ترديد كلمة أحبكِ مجرد رومانسية حالمة فارغة ، وأن على الإنسان أن يكون واقعياً ، يتفرغ لهموم الحياة ومتطلباتها ، وأن العلاقة بين الزوج وزوجته يجب أن تبنى على أرضية

صلبة من الواقع لا على أرضية هشة من الأحلام ، وهذا بالمناسبة فهم مقيت مغلوط للعلاقة الزوجية ، إن هذا الوصف السابق يصلح أن يكون وصفاً لعلاقة شركة بزبائنها ، أو علاقة نائب بناخبيه ، أو مدير مصنع بعماله ، ولكن بالتأكيد أنه ليس وصفاً للعلاقة بين الزوج وزوجته ، نحن لسنا معادلة رياضية ، نحن فينا من الكيمياء أكثر مما فينا من الرياضيات ، ثمة محفزات عندما تُضاف إلينا تجعل منا مركبات أخرى ، أكثر سوءاً أو أكثر جمالاً وإقبالاً على الحياة ، الإهانات المتكررة مثلاً تُطفئنا وتقتل فينا رغبتنا في العيش وإقبالنا على الحياة! كلمة أحبك التي نسمعها ونشعر بها تشعلنا وتضيئنا!

بعض الرجال لا يقولون لنسائهم أحبكِ لأنهم لا يفهمون طبيعة المرأة أساساً ، إنهم يعتقدون أن وظيفتها أن تكون مدبرة منزل ووعاء إنجاب ونقطة على السطر ، كل ما تحتاج إليه هو أن تأكل وتشرب لتستمر ، تماماً كما هواتفنا نشحنها لنستخدمها أكثر! المرأة ليست جوالاً! ولا نعجة في حظيرة الدنيا كلها في عينيها حزمة علف! المرأة مخلوق حساس وعاطفي تعيش داخل قلبها ومشاعرها بمقدار ما تعيش في العالم الخارجي ، وتباً لكل من أحدث في قلبها خراباً ، ووأد فيها أجمل أحاسيسها!

يعتقد كثير من الرجال أن كلمة أحبكِ التي قالوها لنسائهم ذات مرة هي كلمة صالحة مدى الحياة تماماً كتوقيعهم في نهاية صك ملكية البيت ، إنه لا يحتاج أن يوقع اسمه مجدداً ، لقد فعل

هذا مرة وهذا يكفي ليكون البيت له! فنحن الرجال نعتقد أننا ما دمنا مرتبطين بعلاقة عاطفية فالأمر منتهٍ ، ونحسب أن النساء مثلنا ، في حين أن المرأة لا تشبه عقد تملك البيت بقدر ما تشبه النشيد الصباحي الذي يكرره الطلاب كل يوم في الطابور ، إن التأكيد على الحب من فترة لأخرى عند المرأة دليل التزام وانضباط كترديد الطلاب للنشيد الصباحي وإن كانت المدرسة تعرف أنهم يحفظونه عن ظهر قلب!

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم لعائشة : حبكِ كعقدة الحبل!

فكانت بين الحين والآخر تسأله : كيف حال العقدة؟!

فيقول : على حالها!

إنه الميل الفطري من المرأة لسماع كلمة أحبكِ ، تريدُ أن تطمئن على مكانتها ، الأمر بالنسبة لها كتجديد البيعة لملك بمناسبة جلوسه السنوي على العرش!

ملكة قلبك تريدُ التأكيد على بيعتك لها من وقت لآخر ، فبايعها!

٢- كيف كان يومكِ؟!

يقول ميشيل دي مونتين : إذا كان يوجد شيء اسمه زواج جيد فالسبب أنّ فيه من الصداقة أكثر مما فيه من الحب!

طبعاً المقولة ليست الغاية منها تقليل شأن الحب في العلاقة الزوجية وإنما إعلاء شأن الصداقة فيه!

تحبُّ المرأة أن تشعر بشيء من الصداقة في علاقتها بزوجها ، وهذا شيء يحبه الرجال أيضاً! فالزوجة ليست تلك المعشوقة الجاهلية التي نقرأها في القصائد وليس لها دور في حياة الشاعر غير في أبيات القصيدة الغزلية ، الحياة ليست قصيدة ، والغزل ليس على مدار الساعة ، هناك حياة يجب أن تُعاش ، ولكن إن كانت الحياة لا تستقيم أن تُقضى بالغزل ، فإنها تستقيم أن تُقضى بالحب! الغزل جزء من الحب وليس كل الحب ، الاهتمام ، الاصغاء ، الاحترام ، الدعم ، التفهم ، كل هذه مشاعر حب تجعل حياة الزوجين جنة!

تميل المرأة بفطرتها للحديث أكثر من الرجل ، وربما كان سؤال الرجل عن يومه بعد العودة إلى المنزل شاقاً ولا يحبذه كثير من الرجال ، إلا أن النساء يجذبهن سؤالهن : كيف كان يومكِ!

إنها ترغب في الحديث عن كل ما فعلته في غيابك ، كل هذه التفاصيل الصغيرة التي نجدها نحن الرجال أشياء رتيبة وليس بالضرورة الإخبار عنها ، تستمتع النساء وهي تخبر عنها! فلا تفرط بسؤالها عن يومها ، ولا يكن هذا السؤال مجرد كلام ، هذا السؤال له تبعات ، أهمها أن تجلس وتصغي باهتمام حتى لو وجدتَ أن الحديث لا يعنيك بحذافيره!

أنتَ كل ما يعنيك أنها طلبتْ ثوباً جديداً لزفاف صديقتها وقد أعطيتها المال لتشتريه ، بينما هي لا يهمها هذه النتيجة فقط ، إنها تريد أن تحدثك كيف جربت خمسة فساتين قبل أن تستقر على هذا الذي اشترته ، وستخبرك أن فستاناً آخر أعجبها ولكن للأسف لا

يوجد منه لون آخر! فلا ينفذ صبرك ما زال للحديث بقية ، الفستان لا يُلبس وحده ، لا بد من حقيبة وحذاء ، تريدُ أن تشاركك في مغامرتها بالبحث عنها ، حاول أن تبتسم ، تثني على ذوقها ، وتخبرها أنها أحسنت اختيار هذا اللون فعلاً ، وأنه أجمل بكثير من اللون الآخر الذي كانت على وشك شرائه ولكنها عدلت في اللحظة الأخيرة لأنها وجدتْ هذا أجمل منه بكثير!

بالنسبة إليك إن تأخر حبات الفاصولياء على النار ليس مهماً ، المهم أنها نضجت أخيراً والغداء جاهز ، ولكن بالنسبة إليها هذا حدث يجب الإخبار عنه ، إن وقوعها في فخ نوع جديد من الفاصولياء التي لا تنضج بسرعة كالمعتاد مغامرة شيقة ، عليك أن تفهم هذا ، وتخبرها أنها أحسنتْ ، عليك أن تشجعها كما لو أنها أحرزتْ الميدالية الذهبية في سباق المئة متر! بالمناسبة أنا لستُ مثالياً كما يظهر من الكلام ، أنا مثلك تماماً لا يهمني كم استغرقت حبات الفاصولياء لتنضج! ولكني أصغي لأني أعرفُ أن هذا شيء يسعدها ، وهنا يأتي مفهوم الصداقة ، أن تفعل أشياء لأنها تسعد شريكك حتى وإن لم تسعدك مباشرة!

إن موشَّح الاستقبال الذي تلقيه على مسامعك فور عودتك عن أن الأولاد أروها نجوم الظهر هو آخر ما تحتاجه بعد عودتك من عملك ، وأوافقك الرأي أنه آخر شيء تود سماعه ، كلنا هكذا ، نريد أن ندخل إلى حديقة لا إلى ساحة معركة بعد عمل شاق ، ولكنهنّ

النساء يا صديقي ، فإياك أن يجعلك هذا الموشح تكف عن سؤالها : كيف كان يومكِ!

صحيح أنَ على المرأة أن تتفهم حاجة الرجل إلى استقبال هادئ ، وأن كيف كان يومكِ هو دليل اهتمام ولا يعني : هيا لننصب محكمة! ولكن أحياناً تكون أنتَ ملاذها الوحيد ، فارسها الذي تحتمي به ، واحتها في صحراء الحياة ، وما صدقتْ عيونها يوم رأتكَ ، وما صدقتْ أذنيها يوم قلتَ لها : كيف كان يومكِ!

هذا ما تريده المرأة يا صديقي ، رجل يشعرها أن تفاصيلها الصغيرة هي تفاصيله الكبيرة! ولكن إياك أن تعتقد أن كل هذا يذهبُ هدراً ، أنت تمتلكها ، تمتلكها حقيقةً لا مجازاً ، المرأة تفاصيل صغيرة ، وهي حين تلقي إليك بتفاصيلها ، فإنما تقول لك : خذني! استمتع بأخذها ، إن اهتمامك بتفاصيلها الصغيرة هذه هو الذي سيجعلها تهتم بكل تفاصيلك الصغيرة والكبير ، وأقوى جيش يمتلكه الرجل امرأة تحبه!

٣- أنتِ ذكية!

تحدثنا سابقاً بما يكفي عن أن المرأة تعشقُ بأذنيها والرجل يعشقُ بعينيه ، وقلنا أن هذه القاعدة وإن كانت صحيحة فإنه لا يمنع أن لها عيوناً أيضاً وترى ، ولكن يبقى باب الكلام الجميل أيسر الطرق وأقربها إلى قلب المرأة ، على أنه تجدر الإشارة هنا أن كثيراً من الرجال يلتفتون إلى جمال المرأة الجسدي ، أو بالأحرى يخصونه بالمديح دون صفاتها النفسية وقدراتها العقلية وهذا خطأ فادح!

لا شك أن المرأة يعجبها أن تسمع أنها مثيرة ، وأنها متعة للعين ، يعجبها أن تحدثها عن لون عينيها الذي يأسرك ، وعن شعرها الذي تجد لونه رائعاً ورائحته جذابة ، عن ملمس يدها ، عن دفء صوتها ، كل هذه أشياء محببة إلى قلوب النساء ولكن المرأة بالمقابل ليست جسداً فقط ، لا هي ترى نفسها هكذا ، ولا أنت يجب أن تراها هكذا!

المرأة تحبُّ الرجل الذي يراها إنساناً متكاملاً ، لا الرجل الذي لا يرى إلا جانباً واحداً من جوانب شخصيتها ، إنكَ إذا جلستَ طول عمرك تخبرها أنها جميلة فأنت تخبرها دون أن تدري أنك لم ترَ منها غير هذا الغلاف الخارجي الذي نسميه نحن الجمال! وإذا جلستَ طول عمرك تخبرها أنها ذكية ومتفوقة فأنتَ تخبرها دون أن تدري أنك لا ترى أنوثتها!

دوماً -كما تلاحظ- ليس علينا أن نختار إحدى الحسنيين ، بل علينا أن نجمع بين الأشياء الجميلة ما استطعنا! إنها تريدُ منك أن تمتدح عقلها أيضاً ، وأنا لا أقول لك أنه عليك أن تشعرها أنها نابغة هذا العالم ، وأمله الوحيد لحل كل المشاكل التي يعاني منها هذا الكوكب ، أعرف إن إخماد الحروب ليس مسؤوليتها ، وحل مشكلة الاحتباس الحراري لا علاقة لها فيه ، وأن طائرات البوينغ سيطورها أشخاص غيرها دون أن يكون لها علم ولا دراية بما يقومون به! ما أقوله لك شيء مختلف تماماً عن هذا ، شيء بسيط يحدث كثيراً في حياتنا اليومية!

لا تخلو حياة زوجية على سطح الأرض من نقاش ، حتى الأزواج الذين لا يشعرون بالحب تجاه بعضهما يوجد بينهما نقاش ، هذا لا علاقة له بمنسوب الحب المرتفع أو المنخفض ، هذا شيء تفرضه الحياة وواقعها ، يفرضه المصير المشترك ، والحياة المشتركة ، وتدبير شؤون المنزل ، وعلاقة الزوجين بالآخرين ، بأهلها وأهله ، بمدرسة الأولاد ، بالجيران ، بالأصدقاء المشتركين ، وبأصدقاء كل منهما!

ولا تخلو حياة زوجية من مشاكل ، أو لنقل من تحديات ومستجدات بتعبير أدق ، وكلما جد تحدٍّ ، واستجد أمر ، جلس الزوجان كل يدلي برأيه حول هذه القضية ، والنساء مثلنا تماماً يُصبن ويخطئن ، لديهن حلول عبقرية وحلول ليست كذلك ، لديهن مقترحات غاية في المنطقية وأخرى نابعة من العاطفة أو الغيرة ، دورك يكمن في استغلال اللحظات التي تكون فيها صائبة ، ويكون حلها عبقرياً ، أو منطقياً وعملياً لتشيد به وتخبرها أنها ذكية فعلاً!

غالباً تقدم النساء مبررات لقراراتهن ، فمثلاً إن مسألة نقل الأولاد إلى مدرسة أخرى لا تقدمه النساء لسبب واحد كأن يكون الخلاف مع إدارة المدرسة على أمر ما ، إنها تحدثك عن قسط أقل ، ومسافة أقصر ، وأولاد آخرون ناجحون في تلك المدرسة ، إنهنّ يبدين اهتماماً بالتفاصيل أكثر منا نحن الرجال ، وهذا شيء إيجابي ، فحين نهتم نحن بحل المشكلة فقط يفكرن هُنَّ بحلها عبر تحقيق أكبر قدر من المكاسب ، وهذه فرصة سانحة لامتداح ذكاء

امرأتك ، أخبرها أنها ذكية ، وخذ بحلها اذا استرحتَ له ، أنتَ هنا تحقق مكاسب متعددة أهمها أنك امتدحتَ ذكاءها وأشعرتها بأنها إنسان كامل يعجبك عقله كما يعجبك جماله ، بالإضافة إلى أن الحل الذي يتخذه إنسان بنفسه سيُقبل على تنفيذه بإصرار أكبر من الحل المفروض عليه ، أنتَ في غنى أن تقول لك كل مرة أن هذا القرار قرارك وأنك أجبرتها ولو كان قرارك حل للمشكلة فعلاً!

النساء إداريات بالفطرة! كن على يقين بهذا ، راتبك هذا الذي رغم قلته يكفيكم لتعيشوا حياة كريمة دون أن تطرقا باب أحد يحتاج إلى خبراء اقتصاديين وخطة كاملة ليكفي ، بينما تقوم هي به وحدها طبعاً بموافقتك ، إنها توفر من هنا لتصرف هناك ، هكذا هي بفطرتها إذا أحسَّتْ أن المال يكفي قدّمت خدمات أفضل ، وإذا أحست أنكم لارتباطكما بالتزامات صار المال أقل عمدت إلى خطة تقشف كتلك التي تهرع إليها الدول التي تعاني من أزمة اقتصادية! هذا شيء لا تخلو منه البيوت وغالباً ما تجيد النساء التعامل معه ، وهذه فرصة سانحة لامتداح ذكائها ، من المهم أن تسمع منك تقديرها لعقلها ، وحسن تدبيرها!

٤- كنتُ أفكر بكِ!

هذه جملة ساحرة تحب النساء سماعها ، إنهن يرغبن أن يعرفن أن غيابهن بأجسادهن لا يعني غيابهن من أذهان وتفكير رجالهنّ!
عذبٌ جداً عند المرأة أن تهاتفها لدقيقتين وأنت في عملك

تخبرها أنكَ كنتَ تفكر بها ، وتريد الاطمئنان عليها الآن ، والجميل أن الحياة تمنحنا يومياً عشرات الفرص لقول : كنتُ أفكر بك!

الحياة لا تقف عند نقطة ، إنها ليست بقعة ماء راكدة بقدر ما هي نهر لا يكف عن الجريان ، فاغتنم هذا الجريان لمصلحتك!

لا شك أنه في أحد الأيام وقبل أن تغادر إلى عملك أخبرتكَ أنها تعاني اليوم صداعاً ، اذهبْ إلى عملك ، ابدأ به ، وانجز فيه ، وبعد ساعتين ارفع سماعة الهاتف ، وقل لها : كيف أنتِ الآن؟! هذا ليس مجرد سؤال إنه علاج أيضاً حتى وإن كنتَ لا تدرك أهميته ، أنتَ تخبرها أنك تفكر بها ، وتهتم لأمرها ، وأن عملك وانشغالك لم يأخذانك منها ، من المهم جداً أن تشعر بأهميتها ، ودورك أن تشعرها بهذه الأهمية ، إنها ليست طاهية ومدبرة منزل ، واكتراثك لها ليس مكانه السرير فقط ، هي حاضرة على الدوام في ذهنك حتى حين تبتعد عنها!

تميلُ النساء دوماً لمشاهدة قنوات الطبخ ، أو لاقتناء كتبه ، أو لقراءة كيفية إعداد طبق ما سمعنَ عنه من صديقة ، ولا شك أنها حدثتكَ أنها ستجربُ اليوم أن تطبخ طعاماً جديداً ، لماذا عليك أن تنتظر حتى موعد الغداء لتعرف كيف سارت الأمور ، ما المانع في أن تتصل بها وتسألها كيف تسير الأمور معها ، دقيقتين فقط ، الأمر لا يكلف كثيراً ، لقد أسعدتها كثيراً وأخبرتها أنك تفكر بها!

تعرفُ النساء أن الرجال لا يمكن حبسهم في البيوت ، وأنهم يحتاجون إلى الأصدقاء وإلى الخروج من المنزل لتمضية الوقت معهم بين الحين والآخر ، ولكنهن يكرهن انصراف الرجال إلى أصدقائهم وإهمالهن ، وإنه من الجميل جداً عند المرأة أن تهاتفها لدقيقتين أيضاً ، وتطمئن عليها وعلى سير الأمور في غيابك ، اسألها عن حالها ، عن الأمور التي أخبرتك أنها ستقوم بإنجازها في غيابك ، إنها تحب أن تعرف أن لا أحد يأخذك منها ، وأنها حاضرة في ذهنك وتفكيرك!

حتى إذا خرجتْ هي برفقة صديقاتها ، أو كانت في زيارة إلى بيت أهلها لوحدها ، تأكد تماماً أنها ليستْ مستغنية عن سؤالك عنها ، هاتِفْها لدقيقتين أيضاً ، اسأل عن جلستها مع صديقاتها وكيف تجري الأمور ، وهل هي سعيدة ، اسألها عن أهلها ، كيف الجميع ، وإن كانت تستمتع ، هذه الأشياء الصغيرة هي أشياء كبيرة بالنسبة إليها!

كنتُ أفكر بكِ ، هذه الجملة الساحرة يمكن قولها بدون كلام حتى! قد تستغرب من أنه يمكن قول الأشياء دون كلام؟! أجل يمكن ، عن طريق الأفعال يمكنك أن تقول كثيراً دون أن تتكلم! هي عندما تحدثك عن شيء رأته في السوق وأعجبها قم بشرائه لها وفاجئها ، أنتَ هنا لا تحضر لها الأشياء التي تحبها فقط ، أنت تخبرها أنك كنتَ تفكر بها!

عندما تحدثك أنها اشتاقت لأهلها ، فرِّغ نفسك في اليوم التاليٍ وقل لها سنزور أهلكِ اليوم ، هي ستعرفُ أنك طلبتَ هذا منها بناءً على رغبتها البارحة ، أنتَ لم تُسعدها لأنك قررتَ أن تصطحبها إلى بيت أهلها فقط ، أنت أسعدتها لأنك أخبرتها أنك كنتَ تفكر بها ، إن أمنيتها التي قالتها لكَ بقيت عالقة في ذهنك ، وأنك فكرتَ بها!

ما قيمة وردة؟! إنها بمقياس المادة لا شيء ، شيء رخيص وزهيد ، ولكنها تساوي حقول ورد العالم كله إذا دخلتَ إلى بيتك تحملها لها وطبعتَ على جبينها قبلة ، الأمر لا يتعلق بالوردة بل بالاحساس الكامن خلفها ، لقد فكرتَ بها عندما رأيتَ بائع الورد في الطريق ، لقد كانت حاضرة في ذهنك رغم غيابها ، وهذا شيء يسعدها!

٥- هل تحتاجين للمساعدة؟!

عرض المساعدة يلقى القبول والترحيب عند البشر جميعاً وليس عند النساء فقط ولا عند الزوجة على وجه التحديد ، تخيل نفسك تحاول أن تنزل من سيارتك شيئاً ثقيلاً وصادف في تلك اللحظة مرور أحد جيرانك ثم قال لك هل تحتاج للمساعدة ، لا شك أنك ستفرح كثيراً بهذا العرض ، ليس بسبب أنك أخيراً ستنزل هذا الشيء الثقيل ، ولكن بسبب أنك وجدت بجانبك من يهتم بك ، من يدعمك ، من يقدم لك المساعدة دون أن تضطر لطلب المساعدة منه!

بالمقابل أخبرني عن منزلة هذا الجار في قلبك الآن ، ألم يصبح محبباً إليك ، وصرت تنظر إليه على أنه جار طيب ، وأنك ستتحين الفرص لترد له مساعدته تلك رغم أنها مساعدة بسيطة لم تكلفه شيئاً؟!

ثمة أمور تمتاز بها النساء عن الرجال ، وأمور يمتاز بها الرجال عن النساء ، ولعل أغلب صفحات الكتاب عن كل ما يمتاز به الرجل عن المرأة والمرأة عن الرجل ، ولكن ولأننا مخلوقون من نفس واحدة ، فثمة مشاعر إنسانية نشترك فيها جميعاً ، رجالاً ونساءً ، كباراً وصغاراً ، وزراء ونجارين ، طبيبات وربات بيوت!

الحاجة إلى التقدير ، والاحترام ، والاهتمام ، والتفهم ، واللين ، والعطف ، والحب ، هي مشاعر إنسانية يمتاز به هذا النوع الذي هو نحن ، وإن قول جارك لك : هل تحتاج للمساعدة ، ترك فيك هذا الشعور من السعادة والامتنان ، هذا بالضبط ما تتركه أنتَ في نفس زوجتك عندما تراها غارقة في أعمالها وتقول لها : هل تحتاجين للمساعدة!

لا يوجد أحد منشغل على مدار الساعة ، لكل واحد منا وقت يمكنه فيه فعل أشياء جميلة للآخرين ، وإن من الحب والاهتمام والإنسانية وحسن العشرة حين تراها منهمكة في إعداد العشاء أن تأتي إليها في المطبخ وتقول : هل تحتاجين للمساعدة! إنك هنا تمسكها من قلبها ، وتديره ناحيتك ، وتترك في نفسها شعور بالعرفان والامتنان والحب تجاهك ، وهذا شيء ستجنيه من خلال معاملتها اللاحقة لك ، وهذا شيء إنساني وأخلاقي أكثر من امساكك

بالريموت كنترول وتقليب الإذاعات بينما هي تجهد وتجد وتتعب وحدها في المطبخ على مقربة منك!

هذا سؤال نبيل حقاً : هل تحتاجين للمساعدة؟

ثمة جملة أنبل من هذا ، وهي تحويل هذا السؤال من : «هل تحتاجين للمساعدة» إلى «دعيني أساعدك» ثم تضع يدك معها!

أعود بك إلى المثال الأول ، لقد كان جارك نبيلاً عندما قال لك : هل تحتاج للمساعدة ، عندما رآك تحاول إنزال شيئك الثقيل من سيارتك! ولكن لربما عزّ عليك أن تقول له : نعم أحتاج للمساعدة! ولكن لو قال لك : دعني أساعدك ، ووضع يده معك فيما أنت فيه ، إنه هنا رمم كرامتك فربما لم تكن تسمح لك كرامتك أن تقول : نعم أحتاج للمساعدة! التصرف الأول على نبله إلا أن التصرف الثاني أنبل منه! أنتَ لا شك قادر على التمييز بين التصرفين بدقة ، وتدرك أن ثمة فرقاً بينهما!

الأمر نفسه في المنزل ، إنه أجمل وأنبل أن لا تسألها لتنتظر جوابها ، كن مباغتاً ، دعيني أساعدك ، وابدأ ، الأمر بهذه البساطة ، وبهذا اليُسر ، لا يحتاج إلى بروتوكولات عرض وطلب ، هذه زوجتك!

للأسف وبسبب الموروثات الخاطئة والعادات البالية يعتقد كثير من الأزواج أن مساعدة الزوجات في الأمور المنزلية يقلل من قيمة

رجولتهم ، وفي الحقيقة هذا اعتقاد فارغ ، وعنجهية ذكورية ، وفهم مغلوط للرجولة ، لم تكن الرجولة يوماً في القسوة وإنما في الحنان ، ولم تكن يوماً في التخلي وإنما في المساعدة وتحمل المسؤولية والمشاركة ، ولم تكن يوماً بالعصبية والمزاج السيء والعنف وإنما في الاحترام والتفهم والإحساس بالزوجة!

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم سيد الرجال ولم يكن يجد حرجاً في أن يخيط ثوبه ، ويخصف نعله ، وكان يقول : «رفقاً بالقوارير»! وإن من أنواع الرفق وأجلّها مساعدة الزوجة في شؤون المنزل! وكان يقول : «خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي»! فالخيرية إذاً تُقاس بكيف يعامل الرجل زوجته وكيف يتصرف معها في كل شؤون حياتهما ، ولا شك أن مساعدتها من الأمور الخيرة الجليلة ، فلا تلتفت للعادات الخاطئة ، ولنظرة الناس ، هم ليسوا قدوتك ، قدوتنا هذا الذي أُرسل رحمةً للعالمين!

ولستُ أفهم حقيقة ما علاقة مساعدة الزوجة بأعمال المنزل بموضوع الكرامة! ومنذ متى كانت مساعدة الآخرين ومعاملتهم بحب واهتمام من الأمور الجارحة للكرامة ، إن كل أمر نقوم به في سبيل تحقيق إنسانيتنا يستحيل أن يكون جارحاً للكرامة ، برأيك أيهما أكثر إنسانية الذي يُساعد أم الذي لا يُساعد ، الذي يشعر بالآخرين أم الذي لا يشعر بهم ، إن في المساعدة والاهتمام ثمرات من الرضى عن النفس نجنيها نحن قبل أن يجنيها الآخرون الذين

نقـدم لهم المسـاعـدة والاهتـمـام ، ألا ترى أننا نفـرح بالصـدقـة التي نضعها في يد فقير أكثر مما يفرحُ هو بها؟!

٦- أنتِ أهم من المال!

إن أسوأ إحساس يمكن أن تشعر به المرأة هو أن تشعر للحظة أن المال بالنسبة لزوجها أهم منها!

لن أكون مثالياً إلى الحد الذي أقول لك فيه : المال ليس مهماً!

على العكس تماماً سأقول لك المال مهم ، ومهم جداً ، وهو عجلة الحياة ، بل هو أحد أهم عجلاتها ، لأن الكثير من الرفاهية يمكن شراءها بالمال ، والكثير من المشاكل يمكن حلها بالمال ، والكثير من التعب يمكن التغلب عليه بالمال ، ولكن لاحظ أني قلت لك أن المال شيء مهم في الحياة ولكنه ليس الحياة!

السعي لامتلاك الكثير من المال لا شيء فيه ، ولكن هناك فرق بين أن نملك المال وبين أن يملكنا المال! بعض البشر يتصرفون في الحياة كأنهم آلات لجمع الأموال ، وهؤلاء هم أسوأ نوع من البشر يمكن أن يتعامل المرء معهم!

لستُ أعني بجملة «أنتِ أهم من المال» أن يكون الحبل متروكاً على الغارب ، وأن كل ما تطلبه الزوجة يجب أن تحصل عليه ولو على حساب استقرار الأسرة وسير الحياة! على العكس الحياة الزوجية بحاجة إلى خطة اقتصادية ، وقائمة بالأولويات ، فشراء كل شيء نريده قد يوقعنا في مشاكل مادية تؤدي غالباً إلى انهيار الزواج برمته ، ونحن نريد الحفاظ عليه لا هدمه!

ليس من البخل إن عرضتْ الزوجة شراء شيء ، أن يناقشها الزوج بهدوء وروية ويخبرها بصراحة عن أن امكانيتهما المادية لا تسمح به الآن ، وأنه ليس ضد امتلاكهما هذا الشيء الآن من حيث الفكرة ، ولكنه يعترض على التوقيت ، وأنه سيعمد إلى شرائه عندما تتحسن الأحوال! أيضاً قد يريد الرجل القيام بمشروع ما فتقوم زوجته بإخباره أن هذا ليس وقته ، وأن ثمة أموراً أهم وأولى منه الآن ، هي هنا لا تحرمه من استخدام ماله بقدر ما تريد أن تحميه وتحمي أسرتها من القيام بخطوة قد يكون لها مردود سيء على استقرار الحياة!

ما أعنيه ب : أنتِ أهم من المال ، هي اللحظات التي نملك المال فيها فعلاً ، وشراء شيء تريده الزوجة لن يشكل عجزاً اقتصادياً ، ولن يؤثر على سير الحياة! فهي تخبرك أنها تريد شيئاً ما ، ولكنها ستنتظر فترة من الزمن ، أو أنها شعرتْ أنكما قمتما بصرف مبلغ كبير هذا الشهر ، هنا يأتي دور هذه الجملة ، فهذا شيء ستحضره لها على أية حال ، فلماذا لا تفعل الآن ما دام بإمكانك فعله؟!

وما أعنيه ب : أنتِ أهم من المال ، هي الأمور التي تتعلق بحياة المرأة مباشرة ، لربما احتاجتْ إلى زيارة طبيب كشفيته باهظة ، وهي رغم وجعها تتحامل على نفسها لأنها ترى أن وضع المال في شيء من شؤون الأسرة أولى منها ، ربات البيوت مضحيات حتى بأنفسهن! هنا دور هذه الجملة ، أخبرها أنه لا شيء أهم منها ، وأن

صحتها أولوية ، ودبر أمورك ، وثق ، الله لا يضيع صنائع المعروف ، ولا يثبت على الخير إلا الخير ، قل : يا رب أنتَ أمرتنا أن نعاشرهن بالمعروف ، وأنت تعلم قلة مالي ، ولكني أعتمد عليك أن تعينني لأعاشرها بالمعروف! أتظن الله يتركك وقد ألقيتَ حملك وهمك عنده!

قل : يا رب إن رسولك قال أن خيرنا خيرنا لأهله وإني أحب أن أكون من خيار الناس ، وزوجتي الآن تحتاجني ، فأعني على قضاء حاجتها ، أتظن الله بعد هذا يتركك وحدك ، حاشاه سبحانه أن يرد من جاءه ، أو أن لا يكون عند ظن عبده به! والله لو قصدنا غنياً من أغنياء الناس وقلنا له ليس لنا سواك ما ردَّنا فمن أكرم من الله؟!

أكتفي بهذا القدر من جمل افتح يا سمسم لأني لا أريد أن أكرر شيئاً قلته سابقاً ، ولا أن أقول شيئاً عزمتُ على قوله في حديث سيأتي ذكره ، ويمكن مما سبق وما سيأتي استخلاص جمل كثيرة سحرية فكن مبدعاً!

ثانياً: افتحْ يا عدس!

وهو القسم المخصص للكلمات الخاطئة التي لا يجب أن يقولها الرجال للنساء ، لأنها مؤذية ، وقاسية ، ونتائجها سلبية تماماً كما حدث مع «أخو علي بابا» في المغارة!

١ - إنَّ وزنك يزداد !

إحدى أكثر الجمل الجارحة على وجه الأرض هي أن تسمع المرأة أنها سمينة!

حسناً ما العمل ، هل تريدني أن أتقبلها كما هي ، لتكن منطقياً ومنصفاً أنا لا أحب المرأة زائدة الوزن! لعلَّ هذا ما تريد أن تقوله لي عندما قرأت الجملة في الأعلى!

بداية لنتفق على مبدأ هام جداً هو : يمكن قول الأشياء الجيدة بطريقة سيئة ، كما يمكن قول الأشياء السيئة بطريقة جيدة!

ثانياً معايير الجمال تختلف من عصر إلى عصر ، تخيل مثلاً قبل مئة سنة كانت السُمنة هي إحدى أهم معايير الجمال في النساء ، وقد قرأتُ إعلاناً طريفاً يعود إلى ثلاثينيات القرن الماضي لنادٍ يساعد النساء على اكتساب الوزن ، وجاء في الإعلان : لا تكوني جلدة وعظمة بعد الآن ، ابدئي معنا!

وكذلك كانت العرب ترى الجمال في النساء السمينات ، حتى تغزلوا بهن بقولهم «خرساء الأساور» أي لغلظة ساعديها فإن الأساور تكون محشورة في يدها فلا تصدر صوتاً!

هناك ثقافة لكل عصر ، ثقافة يصنعها الإعلام ، ذوق جمعيّ يحملون الناس عليه ، حتى اقتنع الرجال أن المرأة النحيفة أجمل ، وحتى بدأت المرأة السمينة تنظر بعين الأسى إلى نفسها!

لا أريدك أن تغير ذوقك ، ولا أن تعيش خارج عصرك ، ولا أن أقول لكَ أن عليكَ أن تحبها كما هي ولا تبدي لها ملاحظة لتنزل وزنها ، ولكني سأقول لك شيئاً واحداً ، عاشق الروح يتصرف بطريقة ذكية لتغيير الجسد!

ليس عليك أن تكون دجاً قاسياً وتقول أنتِ سمينة ، أو وزنك يزداد بشكل كبير ، فكما صنع المجتمع والإعلام ذوقك وجذبك نحو النحافة ، كذلك هي تؤمن مثلك أن النحافة من مرادفات الأنوثة ، لهذا قولك هذا إنما يطعنها في أنوثتها!

هناك أكثر من طريقة ذكية للفت انتباهها وحثها على أن تبدأ حمية في الحال ، بهذا تصل أنت إلى مبتغاك منها دون أن تجرح مشاعرها!

لماذا لا تبدأ بنفسك ، أنتَ أيضاً تغيّر شكلك ووزنك عما كنت عليه في بداية علاقتكما ، قل لها : لاحظتُ أن وزني يزداد ، ما رأيك أن نبدأ معاً حمية ، أحتاج أن تساعديني لألتزم بها ، وحدي لن أستطيع الاستمرار! ثق أنها ستتجاوب معك على الفور ، فوزنها الزائد يؤرقها أكثر مما يؤرقك ، وتغير جسمها يزعجها أكثر مما يزعجك ، وهذه طريقة ذكية وجميلة لقول أشياء ليست جميلة فجربها!

هناك طريقة أخرى إن كنت لا ترغب أن تحشر نفسك في الموضوع!

أنتَ لا شك تعرف ثيابها ، وتلاحظ أنها بسبب ازدياد وزنها لم تعد ترتدي أحد الأثواب الذي كان يعجبك ، قل لها : ثوبك الفلاني لماذا لم تعودي ترتدينه كان يعجبني جداً عليك!

هنا لا شك سيدق ناقوس الخطر في رأسها ، وستعرف تلقائياً أنك تحبها بشكل جسمها القديم! لقد وصلتَ إلى مبتغاك وأخبرتها أنك تريدها أنحف دون أن تجرحها!

أيضاً يمكنك أن تشتري لها فستاناً جميلاً تتعمد أن يكون بمقاس ضيق لا يناسبها ، ضعه في علبة هدايا أنيقة ، وقدمه لها ، هي لا شك ستسعد ، وستحاول أن ترتديه لك ، ولكنها لن تستطيع ، ولكنها لن تقول لك أني سمينة على هذا الثوب أريد استبداله بشيء آخر ، وإنما ستهرع إلى حمية ، وتضع نفسها في تحدٍ مع هذا المقاس الجديد ، وستحاول جاهدة أن تصل إليه!

بقي أن تعرف شيئاً مهماً ، وهو أن اكتساب الوزن عند النساء ليس له علاقة دوماً بالشراهة والتهام الطعام! وإنما يكون أحياناً بسبب الإنجاب ، والتغيرات التي تطرأ على جسم المرأة بسبب عملية الوضع ، فتسعون بالمئة من النساء يزداد وزنهن بعد الإنجاب ، وقلة منهن من ينجحن في العودة إلى أوزانهن السابقة بيسر!

إن لكل شيء ضريبة يا صديقي ، وإحدى ضرائب إنجاب الأولاد التغير في جسم المرأة ، لهذا عليك أن تكون منطقياً ، زوجتك ربة بيت وليست عارضة أزياء ليس لديها شغل يشغلها غير مقاس جسمها ، هل لديك فكرة عما يفعلنه عارضات الأزياء ، هل تعرف أن أغلبهن لا يأكلن شيئاً مما نأكله نحن ، ويعانين الحرمان في سبيل رشاقتهن ، وأن بعضهن إذا أكلن قمنَ إلى دورة المياه ووضعن إصبعاً في الحلق مما يسبب لهن القيء خوفاً من اكتساب الوزن! نحن نريد حياة جميلة وليس حياة كالجحيم فكن واقعياً!

٢- كما تشائين!

هذه الجملة قد تبدو جميلة للوهلة الأولى ، كيف لا وقد قلتَ لها أنتِ حرة في أن تفعلي أو لا تفعلي! ولكن في الحقيقة هذه جملة تكرهها النساء كثيراً!

فعندما تستشيرك في شيء ما فإن آخر ما تنتظره منك أن تقول لها : كما تشائين أو براحتك! إنها تكره أن يكون دورك في حياتها سلبياً ، تقف منها موقف المتفرج على فيلم لا تملك تغيير أحداثه ، أو على الأقل إبداء وجهة نظرك في طريقة عرضه! هذه شريكة حياتك ، شئتَ أم أبيتَ هي جزء من حياتك ، وشاءت أم أبتْ أنتَ جزء من حياتها ، لهذا إن كل ما يدور في حياة الرجل يؤثر بشكل ما على حياة المرأة ، وكذلك كل ما يدور في حياة المرأة يؤثر بشكل ما على حياة الرجل ، حتى تلك الأشياء التي يعيشها كل منهما وحده ، ألا ترى أن ضغوط العمل أحياناً تؤثر على طريقة تعاطيك معها؟! كذلك ألا ترى بالمقابل أنها مثلاً في فترة حملها قد تتغير نفسيتها ، أو يضعف جسدها وهذا بالنهاية يمسك أنت ولو كان حملها في بطنها هي وحدها!

الأمر الذي استشارتك به لا شك أنه يشغل تفكيرها مهما بدا لك سطحياً ، أو لا علاقة لك به ، وهي تريد منك موقفاً أو رأياً وإن كان هذا يخصها وحدها ، كأن تسألك هل أقوم بزيارة فلانة اليوم؟!

هي هنا تبحث عن اهتمامك واكتراثك بشأنها لا عن إذن منك ، فعندما تقول لك : هل أفعل كذا؟! فليستْ تقول لك أنا عبدة

عندك ما رأيك يا سيدي أن تأذن لي حتى يكون جوابك : كما تشائين! هي هنا إنما تقول لك أنا أريد أن أشاركك في هذا الأمر ، وإن إطلاق إرادتها ليس مستحباً البتة ، ولكن نحن الرجال لا نلتفت لهذه الأمور الصغيرة لأن نفسياتنا تختلف عن نفسيات النساء ، فنحن لا نشعر بالسوء الذي يشعرن به إذا ما قيل لنا : كما تشاؤون! نحن لا نميل للمشاركة كما يملن هُن! صحيح أننا في بعض الأحيان نكره نحن الرجال هذه الكلمة ولكننا في الغالب نرحب بها لأنها ضوء أخضر في أن نفعل ما يحلو لنا ، ولكن عند النساء الأمر مختلف ، إنهن يبحثن عن المشاركة والاهتمام ، وإن جعل الأمر إليهن في هذه الحالة هو رفض للمشاركة وعدم إبداء للاهتمام!

هي لا تضعك في الغالب أمام مشكلة يترتب عليها صلاح الكون بأسره ، أو البيت الذي يجمعكما ، يحدث هذا غالباً في مواقف صغيرة وجزئية يتساوى فعلها وتركها ، لهذا أي اقتراح منك ، أي خيار من الخيارات التي تشجعها عليها ستفي بالغرض! حتى أنه من الملاحظ أنه في مواقف كهذه هي توفر عليك عناء التفكير ، لأنها لا تطرح مشاكل مفتوحة ، بقدر ما تقدم لك قائمة خيارات أشبه بلائحة الطعام في المطعم ما عليك إلا أن تختار منها ، إنها تحدد لك خياراتك التي عليكَ أن تختار لها منها!

هي ستقول لك جملاً على شاكلة :

- ما رأيك أن أقوم بقص شعري او تغيير لونه!
- ما رأيك أن أقوم بتغيير أماكن الكنبات في الصالون!

- هل أضع هذه النباتات في غرفة الاستقبال أو أتركها على الشرفة!

- ألا ترى أن مكان التلفاز هناك مناسب أكثر!

- أي لون أجمل لهذا الفستان ، انظر يوجد منه الأحمر والأزرق!

- هل أطبخ غداً الملوخية أم السمك!

أرأيت ، كلها خيارات محدودة لا يكلف التفاعل معها شيئاً ، لا وقتاً ولا جهداً ، ولا مالاً ، إنها تتعلق بشكل الأشياء ، وأماكنها وألوانها ، ولا تتعلق غالباً بأشياء جديدة ، فكن مشاركاً جيداً ، اكترثْ ، عبِّر عن وجهة نظرك ، وإن لم تملك واحدة الأمر يسير ما عليك سوى أن تختار من القائمة التي قدمتها لك!

٣- أنا غلطان!

الاعتراف بالخطأ فضيلة لا شك ، فالإنسان الذي يُعاند ويصر على الخطأ هو إنسان متكبر متعجرف ما يلبث أن يصبح وحيداً لا يقربه أحد!

وانظرْ إلى إبليس وآدم عليه السلام ، كلاهما أخطأ ، إبليس رفض السجود لآدم ولم يمتثل لأمر الله ، وآدم أكل من الشجرة المحرمة ولم يمتثل لأمر الله أيضاً! وإنهما وإن اشتركا في الخطأ فلم يشتركا فيما بعد الخطأ ، فأما إبليس فقد أصرَّ واستكبر وأخذ يجادل الله سبحانه في أنه خير من آدم فلماذا يسجد له! وأما آدم فأقرَّ أنه أخطأ

واستغفر وتاب! ونحن البشر أمام الأخطاء نتصرف وفق هاذين النموذجين ، منا من فيه شيء من إبليس يصر ويستكبر ، ومنا من فيه شيء من آدم يتذكر ويراجع نفسه ويرجع إلى الحق!

واعتذار الزوج من زوجته في حال أخطأ بحقها تصرف نبيل يُحسب له ، والإنسان الذي يعتذر يرتفع في عين من أخطأ بحقه بالعكس من المُصِر الذي يجمع وقاحة الخطأ ويباسة الرأس فيفقد احترامه وانسانيته في عين الآخر!

ولكن كلمة أنا غلطان التي تكرهها النساء لا تندرج في هذه المواقف ، وإنما في موقف مختلف عن هذا تماماً ، قلنا أن الاختلاف في وجهات النظر أمر طبيعي في حياة أي زوجين ، وأن الحياة ما دامت سائرة ستبقى بعض الخلافات تقع ، ولا شك أن الخلافات تقتضي بعض المواجهة بالكلام بين الزوجين ، هنا يميلُ بعض الأزواج إلى إغلاق باب النقاش والهرب من المشكلة عبر قولهم : حسناً أنا غلطان!

في الحقيقة هذا ليس اعترافاً بالخطأ ولا إقراراً به ، إنه هروب من النقاش ، وتأجيل المشاكل مما يؤدي إلى إبقائها عالقة وإلى تراكمها يوماً بعد يوم ، فلا يمكن خياطة الجروح إلا بعد تنظيفها ، وهروبك من مشكلة معتقداً أن إغلاقها سيؤدي إلى حلها إنما هو إخاطة للجرحِ قبل تنظيفه ، ما يلبث أن يؤدي إلى إلتهاب!

في الخلافات لا يخلو الأمر من أن ترى :

- أنك المخطئ
- هي المخطئة
- كلاكما ارتكب خطأ في المسألة

فإن كنتَ أنت المخطئ ، فمعالجة الخطأ لا يكون بهذه الطريقة ، الاعتذار صراحة هو ما يعالج الخطأ ، فالاعتذار بحاجة إلى أسلوب ، وقد قالوا : انتبه لكلماتك في الاعتذار فإن انتزاع السهم أكثر وجعاً من إدخاله! نحن لا نريد أن نحل مشكلة بمشكلة أخرى إنما نريد إطفاء النار كلها ، لا الجزء الظاهر منها بينما الجمر تحت الرماد باقٍ يتحين فرصة ليكون حريقاً مرة أخرى!

وإن كانت هي المخطئة ، فلماذا الهرب ، ولماذا تلقي بالأمر كله على نفسك ، عبِّر عن وجهة نظرك ، وأخبرها أنها المخطئة ، بأسلوب جميل لا يهين كرامتها ، أما سعيك لتحميل نفسك الخطأ رغبة في الهروب من مشكلة هي المخطئة فيها يخلق مشاكل أخرى فضلاً أنه لا يحل المشكلة القائمة لأن النقاط لم تُوضع على الحروف كما يجب!

وإن كان كلاكما المخطئ ، وهذا شيء يحدث كثيراً ، فالخلافات الزوجية كما حوادث السير من النادر أن يأتي خبير ويقول فلان يتحمل مئة بالمئة من هذا الحادث ، إنه يحمِّل سبعين بالمئة لطرف

والثلاثين الباقية للطرف الآخر ، وعلى هذا أغلب خلافاتنا الزوجية ، وأحياناً ردة فعلنا تجاه خطأ الشريك يكون فيها من الخطأ بمقدار خطئه وإن كان تصرفنا مجرد ردة فعل ، والحل في هذه الحالة يكمن في المصارحة ، قل لها حسناً أعترف لقد أخطأتُ في كذا وكذا وكذا ، وابدأ بنفسك أولاً وتعداد أخطائك ، لأنك متى بدأت بنفسك فستكون مهيئة لتقبل نقدك لها ، وتعدادك لأخطائها ، لأنك ساويتها بنفسك ، وقد قالت العرب : من ساواك بنفسه ما ظلمك! ثم قل لها وأنتِ أيضاً أخطأتِ في كذا وكذا وكذا! ومن تمام الكلام أن تقترح تصرفات بديلة كان يجب عليك أنتَ وهي أن تقوما بها ، فقل كان يجب أن أقول لك كذا بدل كذا ، أو أن أتصرف على هذه الشاكلة بدل تلك ، بالمقابل أنتِ كان يجب أن تقولي كذا بدل كذا ، ويجب أن تتصرفي على هذه الشاكلة بدل تلك!

أما قولك أنا غلطان رغبة منك في الهرب فليس تصرفاً سليماً ، إن النقاشات لا تموت بتجاهلها ، إنما تُؤجل فقط لتكون أكثر حدة في المرة القادمة ، نظفا جروحكما جيداً وستشفى بسرعة!

٤- لا وقت لديَّ الآن!

قلنا سابقاً أن اختيار التوقيت المناسب لفعل الشيء يُعتبر من أهم عوامل نجاحه . لهذا علينا جميعاً رجالاً ونساءً أن نختار وقتاً لقول أشياء يكون الطرف الآخر مستعداً لسماعها وبهذا نتجنب انزعاجاً وضيقاً من ردة فعل الشريك التي قد لا تكون متجاوبة

بسبب اختيارنا التوقيت الخاطئ ، وهذا يشمل الرجال والنساء على السواء ولا علاقة له بالمبدأ هذا الذي سنتحدث عنه وإنما الشيء بالشيء يُذكر!

فعلى سبيل المثال إن مهاتفة زوجك وهو في سهرة مع أصدقائه لتسأليه عن رأيه في نقل ابنكما من مدرسته إلى مدرسة أخرى ، أو لتغيير شيء في المنزل ، لا يُعتبر وقتاً خاطئاً فحسب ، إنه وقت كارثة! في الحياة كما في العمليات الجراحية هناك حالات مستعجلة وهناك حالات باردة! الحالات المستعجلة لا ننتظر فيها توقيتاً ، جرحى حوادث السير يذهبون بهم مباشرة إلى الطوارئ ثم يحضر الأطباء على جناح السرعة ، أما من أراد انتزاع كيس دهن من رقبته مثلاً فلا يذهب إلى الطوارئ لأنها حالة باردة تقتضي الإنتظار وليس من العقل والمنطق إشغال المستشفى بها ، وإنما نقصد عيادة الطبيب ، ونجري الفحوصات ، ونحدد يوماً للعملية ، ثم نقوم بإجرائها! وهذه كتلك ، لنفترض أن ابنكما الصغير وقع على رأسه وسال دمه ، أو سكب على يده شيئاً حاراً ، هنا لا مانع من قطع جلسته عليه ، بل الأفضل إطلاعه على هذا الأمر فوراً ، إنها قضية مستعجلة طارئة ، أما نقل ابنكما إلى مدرسة أخرى ، أو تغيير مكان شيء في المنزل فليس وقته ، أنتِ هكذا تخنقينه وتقحمين نفسك في وقت ليس لكِ أصلاً ، لهذا إن سمعتِ جملة «لا وقت لدي الآن» فأنتِ الملومة لا هو ، يجب أن يكون هذا واضحاً ، إننا لا نريدُ أن نحاكم ردة الفعل وننسى الفعل الذي أدى إليها!

بالمقابل أنت يا صديقي ملزم أيضاً باختيار توقيت مناسب لطلب الأشياء في الحالات الباردة ، فمثلاً لنفترض أنه يصادف امتحانات آخر العام ، وتدريس الأولاد كان مما تقوم به الزوجة غالباً لقيامك أنت بأشياء أخرى ، فليس من المنطق أن تخبرها بأنك تفكر بدعوة أصدقائك إلى العشاء في البيت! أنتَ هنا تقحم نفسك سلبياً في شيء ليس من حقك أن تقحم نفسك فيه ، ما دام عندك وقت لدعوة أصدقائك في وقت كهذا فالأولى أن تساعدها في تدريس الأولاد ، لا أن تطلب منها عملاً شاقاً فوق العمل الشاق الذي هي غارقة فيه ، ولو طلبتَ منها التحضير للدعوة وقالت لك : ليس لديَّ وقت ، فلا يحق لك أن تقول أنها لا تحترم رجولتك ، وأنها تكسر كلامك ، وإنك لا يمكنك أن تدعو من تشاء إلى بيتك ، لقد اخترتَ توقيتاً خاطئاً فحملتها على ردة فعل تراها خاطئة وفي الحقيقة إن الذي قاد إلى ردة فعلها هو فعلك الخاطئ بالأساس!

وبالعودة إلى ما نحن فيه ، تكره المرأة أن تسمع من زوجها جملة : لا وقت لديَّ الآن ، لأنها تشعر في تلك اللحظة أنها منبوذة ، وأن لا وقت لديها في حياتك ، وأن أشياءك الأخرى أهم منها ، وهذا في الحقيقة شعور مؤذٍ!

لقد أوصيتها ، كما أوصيتك باختيار توقيت مناسب يدفع عنك وعنها الحرج من سماع هذه الجملة المقيتة ، ولكن للأسف إن بعض الأزواج يستخدمونها كثيراً سواء كان ما يقومون به مهماً ، أو مما يمكن تأجيله ، وهنا مربط الفرس!

فإن كان الذي تقومُ به أنتَ ليس مُلِحاً القيام به الآن ، فإياك أن لا تتركه وتستمع إليها ، ولو أخبرتها أنك ستحدثها وتناقشها فيه بعد أن تفرغ مما أنتَ فيه! ولو كنتَ تقوم بأمر مُلح ، فيمكن قول الأشياء السيئة بطريقة جيدة كما اتفقنا ، فبدل قولِك : ليس لدي وقت الآن لهذا الشيء ، قل لها : عزيزتي تعرفين أنه لا شيء أهم منكِ عندي ، ولكن عليَّ أن أُنهي هذا الأمر ثم نتحدث بما تريدين ، ستكون الأمور بخير لا تقلقي!

من المهم أحياناً أن نتصرف كالإسفنجة لا كحواف طاولة البلياردو! طاولة البلياردو إذا ارتطمت بها الطابة تردها بقوة لأنها مصنوعة من المطاط ، أما الإسفنجة فتمتص الضربات القوية وتخفف من حدتها ، ردة الفعل أحياناً هي التي تعطي الفعل وضعه النهائي ، تصغره أو تقوم بتضخيمه!

يقولُ يونس الصدفي :

ما رأيتُ أعقل من الشافعي ، ناظرته يوماً في مسألة فلم نتفق ، وافترقنا ، فلقيني بعدها ، فأخذ بيدي وقال : يا أبا موسى ، أما يستقيمُ أن نكون إخواناً وإن اختلفنا في مسألة!

وانظر ما أعقل الشافعي ، وما أجمل ردة فعله ، لم يتفق مع يونس ، ولما لقيه كان أمام خيارين إما أن يعامله كعدو وخصم ، أو أن يعامله كأخ وحبيب ، فاختار الثانية!

ثم انظر لأثر ردة فعل الشافعي في قلب يونس ، يروي للناس عن نبل الشافعي ، لتصل إلينا هذه الحادثة التي لا يعرفها غيرهما ، لقد نقله من خانة الخصوم إلى خانة الإخوة والأحبة وصدق القائل : كسب الناس أولى من كسب المواقف!

الحياة الزوجية ليست ساحة حرب ، ولا حلبة مصارعة ، عليك دوماً أن تفوز لأنه لا خيار آخر إلا الهزيمة ، الحياة الزوجية إلفة وعشرة طيبة تتحقق بالفهم والتحمل والتغاضي!

٥- أنتِ مثل أمكِ!

في الآونة الأخيرة حدث أكثر من مرة في مدارس الولايات المتحدة الأمريكية أن قام طالب بإطلاق النار على زملائه في المدرسة ، فأردى عدداً منهم قتلى ، وأصاب آخرين بجراح! وفي كل هذه الحوادث كانت التحقيقات تقول أن القتلى لم يكن لهم علاقة بالقاتل من قريب ولا من بعيد ، وبعضهم كانوا لا يعرفونه فعلاً ، وبعضهم قد التقاه لقاءً عابراً في ساحة المدرسة ، مما دفعه إلى الانتقام من الجميع!

هذا التصرف المجنون من هذا الطالب يتصرف بعض الأزواج على شاكلته وإن لم يكن بإطلاق الرصاص وإنما بإطلاق الإهانات على الجميع ، الذين لهم علاقة بالمشكلة والذين ليس لهم علاقة!

خلافك مع زوجتك على أمرٍ ما ، ما علاقة أمها بالموضوع؟! لماذا هذا الفجور في الخصومة ، وتوسيعٍ دائرة الخلاف ، وإحضار مزيد من

الخصوم والأعداء إلى مشكلة المفترض أنها بين طرفين فقط هما الزوج والزوجة؟!

إن الزوجة مهما أحبتك ، إلا أن هذه أمها ولن ترضى أن تسمع كلمة مهينة بحقها ولو كانت منك أنتَ شريك عمرها!

أنتَ لا ترضى أن تُهان أمك بكلمة في غيابها فلماذا ترضى للناس ما لا ترضاه لنفسك! وهذه قاعدة مهمة في التعامل مع الآخرين ، أن نسأل أولاً هل نرضى هذا لأنفسنا ، إن كنا نرضاه فلنقم به مع الآخرين ، وإن كنا لا نرضاه فكيف نريد من الآخرين أن يرضوه على أنفسهم!

وهذه القاعدة هي من هدي الأنبياء!

روى الإمام أحمد في مسنده أن فتى شاباً أتى النبي صلى الله عليه وسلم وقال له : يا رسول الله إئذن لي بالزنا! فأقبل القوم عليه فزجروه ، ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له : ادنُ مني! فلما دنا ، أجلسه بجواره وقال : أتحبه لأمك؟! فقال لا والله جعلني الله فداءك! فقال : ولا الناس يحبونه لأمهاتهم

أتحبه لابنتك؟! قال : لا ، قال : ولا الناس يحبونه لبناتهم

أتحبه لأختك؟! قال : لا ، قال : ولا الناس يحبونه لأخواتهم

أتحبه لعمتك؟! قال : لا ، قال : ولا الناس يحبونه لعماتهم

أتحبه لخالتك؟! قال : لا ، قال : ولا الناس يحبونه لخالاتهم

ثم وضع يده عليه ودعا له : اللهم اغفرْ ذنبه وطهِّر قلبه وحصِّن فرجه!

لا تؤذها في أهلها ، دوماً تعود المياه إلى مجاريها بين الزوجين ، وما قلته فيها قد تنساه وتغفره ، ولكن ما قلته في حق أهلها لن تنساه ولن تغفره ، سيقى يحزُّ في قلبها أبد الدهر ، ستبقى تتذكر أنك تنظر لأمها نظرة دونية على أنها امرأة شريرة ، وأنموذج للنساء اللواتي لا يمكن التعايش معهن!

إن ما يفعله رجال الإطفاء هو احتواء مساحة الحريق ، وحصره في منطقة معينة كي لا يمتد إلى سواها ، ثم يخمدونه! كُن إطفائياً ، احتوِ الحريق الناشب بينكما ، لا تجعله يمتد ليطال أطرافاً أخرى ، فإنكَ إن فعلتَ هذا يسهل بعد ذلك إخماده ، كل ما يجري بينكما يسهل إصلاحه ، ولكن متى حشرتَ الآخرين به فإنك فتحت الباب للنار لتلتهم مساحات ما كان يجب أن تطالها لتلتهمها!

٦- أنتِ تختلفين عن بقية النساء اللواتي عرفتهم!

هذه الجملة ظاهرها المديح ولكن في باطنها جملة لا تبعث على الارتياح عند النساء ، إذ أنها تثير في صدورهن الشكوك حولك ، أنتَ هنا إنما تقول لها : لقد عرفت كثيرات غيرك! وهي هنا لن تركز على ظاهر الجملة وإنما على باطنها وهي في الحقيقة معذورة وليست شكاكة ، قِسْ الأمر عليك ، تقول لك زوجتك : أنتَ تختلف عن بقية الرجال الذين عرفتهم! من المؤكد أنك لن تسعد بهذه الشهادة ، ولا بتربعك على قائمة الرجال في حياتها ، أنت ستشعر بالغيرة ، وتنظر إليها نظرة سوء على أنها امرأة كثيرة التجارب ، بل من المرجح أن لا تعود حياتكما بعد قولها هذا إلى سابق عهدها!

في البلاغة العربية باب واسع اسمه باب المدح والذم ، وتحت هذا الباب يندرج قسمان مهمان منهما هما :

- المديح الذي يُراد به الذم
- الذم الذي يُراد به المديح

فالكلام ليس بمفرداته وإنما بمعناه ، قال الحطيئة يوماً للزبرقان بن عدي :

دع المكارم لا ترحل لبغيتها
واقعدْ فإنك أنتَ الطاعم الكاسي

فجاء الزبرقان بن عدي إلى عمر بن الخطاب يشكو هجاء الحطيئة له! فقال له عمر : ما أرى أنه قد هجاك!

فقال الزبرقان : أيكون حظي من المكارم أن أُطعم وأُكسى يا أمير المؤمنين؟!

فأرسل عمر بن الخطاب إلى حسان بن ثابت لأنه أفقه بالشعر ، وقضى حسان أن البيت من أقسى ما قيل في الهجاء ، فأمر عمر بجلد الحطيئة لأنه تطاول على عرض أخيه!

البيت في ظاهره مديح ولكن في باطنه هجاء! تماماً كقولك لها أنت تختلفين عن بقية النساء اللواتي عرفتهم! صحيح أنك لم تهجها ولكنك هجوت نفسك ، وأشعلتَ الغيرة في قلب امرأتك ، فلا تقارنها بغيرها ، ولا تخبرها أنها أكثر حناناً من فلانة التي عرفتها ، وقد سبق الحديث عن هذا التباهي العاطفي!

لغة النساء!

قرأتُ مرةً مقولة جميلة تقول :
الكثير من الحقيقة خلف «كنت أمزح»
الكثير من الألم خلف «حصل خير»
الكثير من الغيرة خلف «لا عادي»
الكثير من التعب خلف «أنا بخير»
الكثير من المعرفة خلف «لا أعلم»
الكثير من المشاعر خلف «لا أهتم»

دائماً هناك كلام آخر وراء الكلام الذي نقوله ، وهذه حقيقة تشمل الرجال والنساء على حدٍ سواء ، وبما أن اللغة إحدى أهم مميزات النوع البشري الذي ننتمي إليه جميعنا ، حتى حدا بالعلماء أن يُعرِّفوا الإنسان بقولهم : الإنسان حيوان ناطق! فكان من الطبيعي أن تكون هناك مشتركات لغوية بين النساء والرجال ، فالتواصل اليومي لا يحمل عادة الكثير من الكنايات ، فنحن أغلب الوقت نستخدم اللغة فيما وُضعتْ له في الأصل ، عند بائع الخضار ، وفي محطة الوقود ، وفي البقالة ، وفي تدريس أولادنا ، وفي سهرة مع الأصدقاء ، وأثناء قيامنا بوظائفنا التي نعتاش منها! ولكن لا شك أن ثمة لغة خاصة بالنساء ، وأعني بلغة خاصة بالنساء تلك المصطلحات التي يقلنها

وهُنَّ يعنين شيئاً آخر ، وهذه المصطلحات أشبه ما تكون بالكناية في اللغة ، فالكناية هي كلام له معنيان معنى قريب ظاهر وهو غير المراد من الكلام ، ومعنى خفي باطن وهو المراد!

فعلى سبيل المثال يقول الناس : «فلان يده طايلة» وهم يعنون بهذا القول أنه إنسان متنفذ واسع السلطات!

فكما رأيتَ معي إنهم لا يعنون باليد هنا يده الحقيقية التي هي جزء من جسمه وإنما يريدون بها القدرة والقوة والسلطة!

إذاً هناك معنى آخر خلف الكلام الظاهر ، نقوله نحن ، ونسمعه ، فيفهم الناس مرادنا ، ونحن نفهم مراد الناس!

ومن طرائف ما يروي أهل البلاغة في هذا الباب ، أن عجوزاً جاءت إلى أحد الأمراء ، وقالت له : جئتُ أشكو إليكَ قلة الفأر في بيتي!

فقال لها : ما أحسن كنايتك

وقال لمن حوله : أعطوها ما يمنعها ذل السؤال

لقد قالت المرأة العجوز للأمير : أنا فقيرة! ولكن مستخدمة أسلوب الكناية لأن الفئران إنما تكون في البيوت التي فيها طعام ، فهي على درجة من الفقر الشديد بحيث أن الفئران لا تقصد منزلها!

فما هي الكلمات والمصطلحات التي تقولها النساء وهُنَّ يقصدن بها شيئاً آخر غير المعنى الظاهر من كلامهنَّ؟!

إليكَ قائمة بأهم هذه الكلمات والمصطلحات :

١- براحتك!

الترجمة : إياك أن تفعل!

الظاهر من هذه الكلمة أنها قد أعطتكَ الضوء الأخضر لتفعل ما تريد ، ولكن في الحقيقة هي تريد أن تقول لك : لا تفعل هذا الأمر!

غالباً ما تستخدم المرأة هذه الكلمة بعد حوار طويل حاولت فيه أن تقنعك بوجهة نظرها المُخالِفة لوجهة نظرك ، ولكنها لما وجدتك متمسكاً برأيك لا تلين ، ولستَ على استعداد أن تتراجع ، ورأتْ أن استمرار الحوار لن يفضي إلى ما تريده منك ، قالت لك : براحتك!

فإياك إذا وقع الفأس في الرأس ، وتبيّن لك لاحقاً أنها كانت على صواب أن تقول لها : لقد وافقتِ على هذا الأمر ، وقلتِ لي براحتك ، فلماذا تلومينني الآن! هي لم توافق أبداً ، على العكس ، كلمتها كانت رفضاً قاطعاً ، لقد قالت لك دون أن تدري : أنا خارج هذا الموضوع وإن فعلتَ فأنتَ تتحمل المسؤولية وحدك!

طبعاً أنا لا أقول لك أنها عندما تقول لكَ «براحتك» إنها على صواب وأنتَ على خطأ ، ولا أقول لك أنك بمجرد سماعك لهذه الكلمة منها اعدلْ عن قرارك ونفذ لها ما تطلبه منك ، كل ما في الأمر أنني أريدك أن تفهم المعنى الذي أرادت إيصاله لكَ!

في النهاية ثمة قرار يجب أن يُتخذ ، وثمة خطوة يجب أن نخطوها ، صحيح أن أفضل القرارات الأسرية هي التي يتخذها الزوج والزوجة معاً ، وأفضل الخطوات هي التي يخطوها الزوج والزوجة معاً ، ولكنها الحياة دوماً تضعنا على مفترق طرق ، لا تتراجع ،

وامضِ مـا دمتَ ترى أن قـرارك صـحـيح ، وخطوتك على الطريق الصحيح ، أنتَ رجل البيت في النهاية ، ولكن تذكر أن «براحتك» تعني رفضها التام لهذه الخطوة التي حزمتَ أمرك على أن تخطوها!

٢- ليس عندي ما أرتديه!

الترجمة : أريدُ شراء ملابس جديدة!

لهذا إن كنتما على وشك الخروج معاً وقالتها لك ، فإياك أن تفتح لها خزانتها وتحاول إقناعها بأن لديها الكثير من الملابس! وهل تعتقد أيها الذكي أنها لا تحفظ ملابسها عن ظهر قلب ، ولا تعرف كل فستان متى وأين لبسته ، إياك أن تشك بهذا ، هي تعلم كل هذا تماماً كما تعلم أنتَ كيف تكتب اسمك!

هي تريدُ شراء ملابس جديدة فوفر على نفسك جدالاً عقيماً لإقناعها أن لديها الكثير من الملابس!

بالمناسبة قد تكون أنتَ محقاً ، وأنها لديها الكثير من الملابس فعلاً ، أحياناً امتلاك الكثير من الأشياء دفعة واحدة سيوحي لنا بعد فترة قصيرة بأننا لا نملك الكثير! وهذا شيء حصل معي شخصياً في الكتب ، كنتُ أستغل فترة تواجدي في المعارض ، وأشتري كمية كبيرة من الكتب ، وهكذا مرة بعد مرة كانت الكتب تتكدس عندي لأني لم أكن أقرأ منها إلا القليل ، والقليل هذا كثير حقيقة ، ولكنه قليل مقارنة بعدد الكتب ، ورغم وجود كتب لم أقرأها كنتُ أشعرُ أنه لا شيء عندي لأقرأه ، وأني بحاجة إلى شراء كتب جديدة ، ثم عندما انتبهت للأمر ، صرتُ لا أزيد عن الثلاثة

كتب في المعرض الواحد ، وكنتُ أقرأها قبل المعرض الجديد الذي أنوي زيارته ، وصرتُ أشعر أنه عندي كتب للقراءة فعلاً!

لهذا أنصح بعدم شراء ملابس كثيرة دفعة واحدة ، القليل كل فترة ، سيشعرنا بأننا نلبس ثياباً جديدة على الدوام!

المهم من هذا كله هو أنها عندما تقول لك ليس عندي ما أرتديه تفهّم رغبتها في التغيير وحاجتها إلى ملابس جديدة ، ليس لأنها لا تملك شيئاً ترتديه ولكن لأنها امتلكتْ ثيابها فترة من الزمن فصارت تنظر إليها على أنها قديمة وإن لم تلبس الفستان إلا مرة واحدة! أحياناً نحن لا نحكم على الشيء بأنه قديم من مفهوم أنه تالف ومستهلك وإنما من مفهوم أننا نملكه منذ مدة!

فهي عندما تقول : ليس عندي ما أرتديه ، فليستْ هذه دعوة لأن تثبت لها العكس ، أخبرها أنك ستعطيها المال لتشتري ثياباً جديدة ، ولكن لا تجعلها تشتري كميات كبيرة ، وإنما على قاعدة العبادات : القليل الدائم خير من الكثير المنقطع! بمعنى إذا كانت ميزانيتك تسمح بأن تشتري لها أربعة فساتين في العام ، فاجعلها تشتري كل فترة فستاناً ، هكذا ستشعر بأن لديها الجديد دوماً ، أما شراء الأشياء دفعة واحدة ، لشخص هو مبني على حب التغيير والظهور بأناقة دوماً ، سيخلق دعوة لشراء المزيد ثم المزيد!

٣- حياتنا صارتْ روتيناً !

الترجمة : أريدُ الخروج من المنزل!

إنها عندما تقولُ لك : حياتنا صارت روتيناً ، فلا تحاول أن

تشرح لها أسباب هذا الروتين ، وأنك مضطر أن تدير حياتك بهذه الطريقة! هي تعرف جيداً أن النسق الذي تجري به حياتكما لا يمكن تغييره ، هي تعرفُ أنه لا بديل عن ذهابك إلى العمل صباحاً والعودة بعد الظهر أو قبيل المساء ، وتعرفُ أنك إذا عدتَ من عملك عليك أن تتناول طعامك وترتاح قليلاً ، فإن لم تقم أنتَ بهذا فمن أين ستعتاشان ، السماء لن تمطر ذهباً ولا فضة ، وهذه الدنيا دار أسباب ، هي تعرفُ هذا جيداً ، ولا تتهمك بالتقصير أبداً!

أيضاً هي تعرف أن لها روتينها الخاص الذي يحكمها ، وهو أعمال يومية إن لم تقم بها فلن يقوم أحد آخر بالقيام بها نيابة عنها ، لهذا تعتبرها واجباتها وتقوم بها ، فهي تطبخ وتجلي وتكنس وتقوم بتدريس الأولاد والاهتمام بنظافتهم والسهر على راحة الأسرة كلها ، وهي لا تعترض بالمناسبة ، هذا كله جزء من رسالتها في الحياة ، وهي تجد نفسها في هذا الروتين ، طبعاً لا أنكر أنها من حقها أن تقرأ وتتسوق وتخرج مع صديقاتها وتزور أهلها ، فهي إنسان وليست عبدة من القرون الغابرة! وإنما أتحدثُ عن روتينها اليومي وما عليها القيام به!

كل ما في الأمر أن صدرها ضاق من البيت ، وشعرتْ بالملل ، وتريد الخروج ، وفعل شيء جديد لا تفعله كل يوم ، ولهذا قولها حياتنا صارت روتيناً ليس دعوة إلى الشجار كما قد يبدو لك ، ولا هو فتح باب للتنكيد عليك ، ولا هي تشكوك إلى نفسك وتتذمر منك ، هي تريد الخروج فقط!

وليس هناك أيسر من قولك معكِ حق ، أنا أيضاً أشعرُ بالضيق

وأعتقدُ أنه علينا أن نخرج!

هكذا بهذه البساطة وهذه التلقائية وكل شيء سيكون على ما يرام وسيعود الروتين الذي لا يمكن الخروج منه ، وإلى جولة أخرى!

٤- لا شيء!

الترجمة : كل شيء!

غالباً ما تقول النساء هذه الكلمة كإجابة لسؤال الرجل : ما بكِ؟

وسؤال الرجل هنا يكون بعد شيء ما قد حدث بينهما ، فمن الممكن أن تكون قد طلبتْ شراء شيء ما لنفسها فرفض الزوج ، أو طلبت الخروج من المنزل فلم يجيبها زوجها في طلبها هذا ، وقد تكون أرادت تغيير شيء في المنزل يتعدى نقل الأشياء إلى مكان آخر وإنما تغيير بحاجة إلى تمويل فلم تحصل عليه ، المهم أن الوضع غير طبيعي ، والنفوس مشحونة ، كان لها رغبة في شيء ما ولم تحصل عليه ، فتضايقت وبدا هذا على ملامحها ، وجاء سؤال الزوج : ما بكِ؟ فكان جوابها : لا شيء!

لا شيء في هذه الحالة تعني أنك أفسدتَ يومي بكامله ولا رغبة لي في الحديث الآن في هذا الموضوع ، وأنه ليس وقت اعتذارات فإن غيرتَ رأيك فأنا على استعداد أن أستمع لك وإن لم تغير رأيك فعُدْ لاحقاً!

في مثل هذه الحالة يُنصح بالابتعاد فعلاً ، أحياناً تأجيل الحديث في الأشياء يجعل حلها أيسر عندما تهدأ النفوس ، يقولون :

لا تستطيع أن ترى وجهك على صفحة الماء وهو يغلي ، عليك أن تطفئ تحته النار وتنتظره أن يكف عن الغليان ثم بعدها يمكنك أن ترى وجهك على صفحته بيسر وسهولة!

والخلافات من هذا النوع محاولة مناقشتها في لحظتها أشبه بمحاولة رأي الوجه على صفحة الماء وهو يغلي!

دع الأمور تبرد قليلاً ، ولكن إياك أن تفهم أن «لا شيء» يعني أن الموضوع قد انتهى وأنه ما من حاجة إلى إعادة فتحه مجدداً ، على العكس هناك حاجة ملحة للحديث عنه في وقت لاحق ، الأشياء الصغيرة إذا تراكمت فوق بعضها تصبح أشياء كبيرة وقد قالت العرب : ما الجبال إلا من الحصى!

مضى وقت قصير قد يكون يوماً ، أو ليلة ولا يُنصح بفترة أطول من هذه ، بالتأكيد أنت تملك أسباباً منطقية لرفضك ، وإلا كنتَ ديكتاتوراً تحكم بيتك بالحديد والنار! خُذ بيدها وأخبرها أن رضاها عزيز عندك ، وأنك لا تطيق أن تراها حزينة وأنك رفضتَ طلبها للأسباب التالية ، وقُلْ أسبابك ، وأخبرها أنه لو كان بالإمكان الموافقة ما كنت لتتردد لحظة عن الموافقة على شيء يجعلها سعيدةً!

أما إذا كنت لا تملك أسباباً منطقية لرفضك ، وأنك رفضتَ ليس إلا من باب إثبات الرجولة ، فعليك أولاً أن تُراجع مفهومك للرجولة ، لأن الديكتاتورية ليست من الرجولة في شيء ، وبعد أن تراجع مفهومك للرجولة عليك أن تراجع عقليتك وتصرفاتك كلها ، إثبات الوجود له طرق أخرى هي أيسر مما تقوم به!

٥- أنتَ لم تعد تحبني!

الترجمة : أشعر بنقص في الاهتمام!

الحياة مشاغلها كثيرة هذه حقيقة لا ينكرها أحد ، نحن اليوم نعيش حياةً معقدة لا تشبه تلك التي عاشها أسلافنا على هذه الأرض ، وإن كان لكل عصر مشاغله ومتطلباته ، ولكن إنسان اليوم يرزح تحت ضغوط كثيرة ، متطلبات الحياة لم تعد بسيطة كما في السابق ، صارت أكثر تعقيداً وكلفة ، الضغوطات على الناس اليوم لم تكن في عصر من العصور بهذه الشراسة ، الكماليات صارت ضروريات ، التعليم والاستشفاء ، العلاقات بالآخرين ، متطلبات سوق العمل ، كل هذه الأشياء تسرقنا من أنفسنا في كثير من الأحيان ونحن لا نستطيع أن نعيش خارج هذا العصر الذي وُجدنا فيه ، ولكن بالمقابل علينا أن لا ننسى للحظة أننا بشر وأن لأنفسنا حقوقاً علينا ، وأن لا ننسى أيضاً أن الذين يعيشون معنا وفي كنفنا لهم حقوق علينا أيضاً ، لهذا على الإنسان أن يضع نوعاً من التوازن بين هذه الحياة المادية التي نعيشها ، وبين كوننا بشر بمشاعر وأحاسيس نحتاج أن نُحِبَّ ونُحَبَّ ، أن نألفَ ونؤلف ، أن نهتم بالآخرين ويهتموا بنا!

إياك أن تخير عائلتك الصغيرة ، زوجتك وأولادك ، بين أن تكفيهم حاجاتهم المادية ، أو تكفيهم حاجاتهم العاطفية ، يمكن الجمع بين هاتين الحاجتين ، والحياة التي لا تراعي إلا جانباً واحداً منهما هي حياة أشبه ما تكون بعصفور كُسر أحد جناحيه ، فهو عصفور عاجز عن التحليق وإن كان حياً يُرزق ، برأيك ما مدى

النقص الذي يشعر به هذا العصفور وقد حُرم القدرة على الطيران ، وهذا هو بالضبط النقص الذي تشعر به المرأة التي لا تلقى الاهتمام!

لذلك عندما تقول لك : أنتَ لم تعد تحبني فهي لا تقول لك : هيا أخبرني على الفور أنك تحبني!

في الحقيقة لا يمنع أن تخبرها أنك تحبها ، وتعترف بتقصيرك بالاهتمام بها بسبب العمل والالتزامات وضغوطات الحياة . ولكن هذه أول خطوة على الطريق وليست الوصول ، وأن الموضوع قد انتهى بمجرد اعترافك بتقصيرك!

راجعْ نفسك ، وابدأ على الفور بالاهتمام أكثر ، كثِّف اهتمامك في الأيام الأولى لتزيل من نفسها هذا الشعور بالنقص ، اشترِ لها هدية بسيطة ، في اليوم الثاني اهدها وردة ، في اليوم الثالث اصطحبها للعشاء خارج المنزل ، لتبدو أنك مهتم ، لا يعني أن تكون إنساناً خارقاً كن إنساناً طبيعياً فقط ، وافعل الأشياء التي كنت تفعلها في بداية علاقتكما يوم لم تكن تشعر بنقص الاهتمام الذي تشعر به الآن ، بعد أن تمضي الأيام الأولى ، افعل كل يوم شيئاً جديداً بسيطاً ، مرة امتدح عطرها ، مرة هاتفها من العمل ، مرة اسألها عن صديقاتها ، مرة حدثها عن عملك واطلب منها نصيحة ما ، حدثها عن كتاب قرأته ، وعن موقف طريف حدث معك ، أخبرها نكتة ، كل هذه كما ترى أشياء صغيرة ولكنها كبيرة في قلبها!

٦- هل يجب أن تقوم بهذا الآن؟!

الترجمة : اتركه فوراً!

تتفهم المرأة انشغال الرجل وتتعايش معه ، ولكن ما لا تتفهمه ، ولا تستطيع التعايش معه هو أن تكون آخر اهتماماته!

لهذا فهي عندما تسألك : هل يجب أن تقوم بهذا الآن؟ فهي تشعر أنها في آخر القائمة ، وأنك تولي العمل أهمية أكثر منها ، والعمل قد لا يعني وظيفتك إن كانت حياتك تفرض إنجاز بعض الأعمال في البيت ، قد تكون هوايتك كأن تقرأ ، أو تشاهد مباريات كرة القدم ، أو تلعب ألعاب الفيديو! هذه الأشياء تشعرها بالهزيمة في الاستحواذ عليك وأن كل شيء يأخذك منها!

إذاً صار واضحاً أنَّ : هل يجب أن تقوم بهذا الآن ليس سؤالاً يحتاج إجابة من نوع ، نعم هذا ضروري ، ولن يحتاج وقتاً كثيراً!

هذا ليس سؤالاً على الإطلاق ، إنه تذمر شديد اللهجة يرتدي زي السؤال! وهي عندما قالته فهي تريد منك أن تتركه على الفور وتسألها عما يجب أن تفعله فهي في هذه اللحظة في رأسها خطة بديلة ، فحاول أن تضحي بهذا الشيء وأجرك على الله! واسألها : لا ليس أهم منك ، ماذا تقترحين أن نفعل؟ أنتِ عندي أولاً!

هذا كلام يرفعها على الفور من أسفل القائمة إلى أعلاها! أنتَ بهذا تشعرها بالنصر على الأشياء التي ترى أنها تأخذك منها! من الجيد أن تعلم أن عقل المرأة يعمل على المقارنات ، هذه هي طبيعتها التي لا تستطيع التخلص منها ، والهدف من هذا الكتاب ليس تغيير طباعها ، وإنما تفهمها والعمل على التعاطي مع هذه الطباع في

سبيل حياة مستقرة وآمنة! هي -لا شعورياً- تقارن بين الوقت الذي تمضيه أنتَ في إنجاز أشيائك وبين الوقت الذي تمضيه معها! إنها تقارن بين حماسك إلى الخروج مع أصدقائك وحماسك إلى الخروج معها! إنها تقارن بين رغبتك في زيارة أهلك وزيارة أهلها ، تقارن بين هديتك لأمك وهديتك لأمها في يوم الأم! إنها تقارن بين الاهتمام الذي أخبرَتْها صديقتها أنها تتلقاه من زوجها وبين اهتمامك بها!

٧- هل أبدو سمينة؟!

الترجمة : أخبرني أني جميلة!

في الغالب تكون المرأة هي أول من يلاحظ التغيُّرات الطارئة على جسدها ، هي تعرف أنها سمنت قليلاً أو كثيراً ، تعرف أنها نحفت ، تلاحظ الشعرة البيضاء بين آلاف الشعرات الأخرى ، لهذا فهي عندما تسأل سؤالاً عن شكل جسدها فهي في الحقيقة لا تنتظر جواباً ، هي تعرف الإجابة ولكنها منزعجة تبحث عن احتواء وتربيت!

من الجميل أن يفهم الرجل حاجة المرأة إلى الطمأنة في مثل هذه الحالة ، فحتى لو لم يعجبه هذا التغير الطارئ عليها ، فهذا ليس وقت الإخبار عنه ، هذه لحظة للتفهم والاحتضان ثم بعد ذلك يمكن الإخبار بأي شيء بعد اختيار الأسلوب المناسب وغير الجارح ولا المهين ، فالنساء يولين مظاهرهن اهتماماً كبيراً ، وهُنّ حساسات إزاء إخبارهن بقلة جمالهن وأنوثتهن!

وقد تحدثنا كثيراً حول موضوع السمنة والبدانة في المبدأ السابق

ولا أريد أن أكرر ما قلته خصوصاً أنه ليس جديد ، ما شعرتُ أنه يجب عليك أن تعرفه سبق وأخبرتك به والسبب في طرح هذه النقطة هنا ، هو فهم طريقة المرأة في التعبير عن استيائها من تغير شكل جسدها ، وفهم طريقتها في طلب التفهم والاحتواء إذا ما تعلق الأمر بالشكل والأنوثة!

٨- أنا أكرهك!

الترجمة : أنا ما زلتُ أحبك!

في الحقيقة من النادر أن تبوح المرأة بمشاعر الكراهية ، إنها عندما تكره تتصرف بشكل لا مبال ، قد تجدها حادة بعض الشيء ، غير مهتمة ولا مكترثة ، ولكن أنً تقول لك أنا أكرهك فهذا لا يحصل إلا في حالات نادرة!

إحدى مشاكل النساء الأزلية أنهن عندما يغضبن يقلنَ كلاماً لا يعنينه! هكذا هن عفويات ، متقلبات المزاج ، ينكسرن بسهولة ، ويشعرن بالفقد والوحدة عند أول لحظة عدم اهتمام ، لهذا فهنّ في الغالب عندما يقلن «أكرهك» فهي طريقة متطرفة لقول «أحبك كثيراً فانتبه إليّ»!

أعرف أنه يبدو عسيراً برهنة هذا الشيء ولكن ثق أنه شيء حقيقي وهو الذي يقع دوماً ، الأمر أجده أشبه بما يقوله خبراء التربية عن الطفل المشاكس ، فالطفل المشاكس الذي يتلف الأشياء دوماً هو في الغالب ليس عدوانياً بقدر ما هو يعاني من الإهمال والتهميش وكل ما يصدر عنه من شيطنة إن جاز التعبير هو بهدف لفت

الانتباه ، إنه يحاول أن يحصل عنوة على شيء لم يحصل عليه بالطرق السلمية ، وهكذا هُنّ النساء ، في داخل كل امرأة طفلة صغيرة بجديلتين ولعبة تسرح لها شعرها مهما بدت لك متعلمة ومثقفة وقوية والرجل الذي يستطيع أن يضع يده على هذه الطفلة هو الذي يكسب قلب المرأة!

النساء يعبِّرن عن غضبهن بطرق طريفة أحياناً قد تبدو غير مفهومة ولكن الرجل الذكي هو الذي يفهم لغتهن ويلتقط إشاراتهن!

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لعائشة : إني لأعلمُ إن كنتِ غير راضية وإذا كنتِ عليَّ غضبى!

قالت : ومن أين تعرف ذلك؟

قال : أما إذا كنتِ عني راضية فإنكِ تقولين لا ورب محمد ، وإذا كنتِ غضبى قلتِ : لا ورب إبراهيم!

فقالت : أجل والله يا رسول الله ما أهجر إلا اسمك!

رب محمد ورب ابراهيم واحد ، ولكن انظر إلى عائشة كيف تُعبِّر عن غضبها ، وهي عائشة الراسخة في إيمانها وعقلها ولكنها في فطرتها البشرية امرأة كزوجتك وزوجتي! وإن كنت تعتقد أن المرأة أحياناً تحتاج إلى سبب واضح لتغضب ، فتذكر أن خُلق الرسول صلى الله عليه وسلم لا يُغضب أحداً ، ولكن كل البيوت فيها شيء مشترك حتى وإن كانت بيوت أنبياء!

غضب المرأة ليس شيئاً كارثياً ، وإشعارها لك بالتقصير ليس

دليلاً على أنها لا تحبك ، وتغيُّر معاملتها لك أو كلامها هو أحياناً للفت الانتباه ، لا ورب إبراهيم ، هذا يمين عائشة لتقول له : أنا غضبى!

إنها في قلبها متعلقة به ، وتهيم به حباً ، ولا تهجر إلا اسمه ، ولكنها امرأة نهاية المطاف ، ولها طبع ، وفيها نوازع بشرية ، والتعامل مع هذه الطباع وتلك النوازع يحتاج روحاً رياضية من نوع إني لأعرفكِ وأفهمكِ ولا يحتاج إلى نزال ومواجهة!

لا تتمسك بقولها : أنا أكرهك

خذ الترجمة منه : أنا ما زلتُ أحبك

ولكن هذا الموقف أزعجني جداً ، غيِّر موقفك ، عدِّل أسلوبك ، تفهمني ، اعطف عليَّ لأقول لك أحبك بطريقة حلوة لا بطريقة متطرفة كهذه!

٩- من الجميل لو.

الترجمة : من الرائع أن تفعل هذا!

عادة تتجنب المرأة إصدار الأوامر مباشرة للرجل ، إنها مخلوق ذكي جداً تفهم أن الرجل لا يحب الجبر والإملاء ، ثم هي بفطرتها تكره أن تكون المسيطرة ، وهي غالباً عندما تمسك بزمام الأمور فلأن الرجل قد تخلى عن الإمساك بزمامها! ومهما بدت سعيدة بهذه المسؤولية إياك أن تصدقها ، المرأة تحب أن تعيش في كنف الرجل دون أن تشعر أنها تابعة! وتكره أن تشعر أنها سيدته تماماً كما تكره أن تشعر أنها أمته وجاريته ، وهي عندما تقول : من الجميل لو فعلتَ

هذا ، فإنما تقول لك أرجوك افعله ، ولكنها على درجة من الذكاء بحيث تريدك أن لا تشعر أنها تملي عليك أن تفعل ، إنها تريد أن تشعرك أن الفكرة فكرتك ، والقرار قرارك ، أرأيتَ إلى أي درجة تراعيك؟!

لهذا عندما تسمع منها : من الجميل لو فعلتِ كذا ، ابدِ حماساً لفعل هذا الأمر ، وأخبرها أن هذه فكرة جميلة ، هي في الغالب لا تعطيك اقتراحاً مصيرياً ، فلن تقول لك جملاً على شاكلة :

- من الجميل لو نبيع منزلنا
- من الجميل لو حصلنا على سيارة جديدة
- من الجميل لو غيرتَ وظيفتك
- من الجميل لو توقفتَ عن الخروج مع أصدقائك
- من الجميل لو توقفتَ عن مساعدة أهلك مادياً

هذه الأشياء المصيرية والمعقدة لا تطلبها النساء بهذه الصيغة أبداً! إنهن يطلبن أشياء أكثر بساطة ، كأن تقول إحداهن :

- من الجميل لو ادخرنا من راتبنا قليلاً
- من الجميل لو غيرنا طلاء المنزل
- من الجميل لو ساعدتني بتدريس الأولاد
- من الجميل لو قمت بتعليق ثيابك في الخزانة
- من الجميل لو اشتركنا بجمعية
- من الجميل لو خرجنا في إجازة

كما تلاحظ هي أشياء بسيطة يمكن فعلها ، قابلة للتنفيذ دون كثير حسابات ، ولا كثير تخطيط ، لهذا من الجميل لو حاولتَ تنفيذها!

١٠- خمسُ دقائق!

الترجمة : لا تنظر إلى ساعتك!

من الملاحظ أننا -رجالاً ونساءً- لا نُعبِّر عن الوقت الذي نحتاجه بدقة ، فعلى سبيل المثال لو سبقكَ أصدقاؤك إلى المقهى أو الاستراحة حيث تجلسون عادة واتصلوا بك ليسألوك أين أنتَ ، فأنت على الفور ستقول

دقيقة وأكون عندكم! وأنتَ هنا لا تعني بها الدقيقة المكونة من ستين ثانية في الغالب ، وإنما تقصد أنك قريب من المكان وقد أوشكت على الوصول! كذلك نحن نتذكر يوم كنا صغاراً ونعود من المدرسة لا نريد من الدنيا إلا تناول طعام الغداء ، وما إن ندخل إلى البيت ونسأل عن الطعام ، حتى تسارع أمهاتنا إلى القول : دقيقتان ويكون الغداء جاهزاً وهُنّ يعنين أنه قد شارف على الاستواء ، وأن الدقيقتين من الممكن أن يمد الله بعمريهما لتصبحا عشر دقائق!

ومن الملاحظ أيضاً ، وإن شئتَ قُلْ من الحقائق ، أن الرجال أكثر إحساساً بالوقت من النساء ، فالمرأة غالباً يعنيها الطريقة التي تنجز بها الأشياء لا الوقت الذي تحتاجه لإنجازها! وهذا برأيي أن النساء لم يكنّ على مدار التاريخ محكومات بالوقت الدقيق

كالرجال ، وإنما تضع المرأة توقيتها الخاص بخلاف الرجل لأنه أكثر ارتباطاً بالعالم الخارجي!

رباب البيوت لا يبدأ عملهن في تمام الثامنة ، نظام حياتهن فيه أريحية الوقت الخاضع لحالاتهن ، قد يبدأ أبكر من الثامنة أو بعدها ، نحن علينا أن نلتزم بتوقيت الدوام!

رباب البيوت ليس لهن ساعة انصراف من العمل ، لهذا هُنّ لسنَ في سباق مع الوقت ، نحن الذين علينا أن ننجز هذا العمل أو ذاك قبل مغادرتنا مكاتبنا ومصارفنا وورشاتنا!

رباب البيوت لا يعرفن شيئاً عن الشروط الجزائية التي نتعرض لها إن لم نسلم مشروعاً على الوقت المحدد لهذا فإن التوقيت في أذهانهن مفتوح!

هذه حقيقة نجهلها نحن الرجال ، ونضيق ذرعاً بالنساء عندما يتأخرن في تجهيز أنفسهن للخروج ، أو في التأخر عن المواعيد ، إن مفهوم الزمن والتوقيت لا يحكم عالمهن بنفس الجدة والانضباط الذي يحكم عالمنا نحن الرجال!

لهذا فهي عندما تقول لك : خمس دقائق وأتجهز فلا تتصرف كحكم لعبة كرة القدم عليه أن ينهي المباراة عند الدقيقة التسعين بغض النظر عن النتيجة! المرأة لا يهمها طول المباراة إنها تريد النتيجة يا عزيزي! لهذا كن على يقين أنها لو دخلت لتتجهز ولبست فستاناً ورأت أنها ليست جميلة فيه فلن تتردد في أن تخلعه لتلبس غيره ولتذهب أنتَ ودقائقك الخمس إلى الجحيم كما يقول الأجانب في الأفلام التي نشاهدها مترجمة!

إن انتظارك ، وغضبك لا شك أنها تعيره اهتماماً ولكنه لا شيء مقابل ما تعيره لنفسها كي تبدو في قمة أناقتها لهذا وفرْ عليك عناء المواجهة والتبرم وإفساد المشاوير قبل البدء بها وتفهم إحساسها بالزمن ومفهومه عندها ، دع عنك ساعة المؤقت نحن لسنا في سباق ، قد تكون أنت فيه ولكن حاول قدر الإمكان أن لا تجعلها تسابق الزمن ، فكر في أساليب عملية توفر عليك عناء كل هذا ، فعلى سبيل المثال لو كان عليكما أن تغادرا المنزل في السابعة والنصف ، أخبرها أنكما ستغادران في تمام السابعة ، واتركها تهتم بالنتيجة بدل أن تتصارع أنتَ مع الوقت ، وهي لن تجهز في السابعة على أية حال! ستجهز في السابعة والثلث ربما وهذا توقيت مناسب للخروج ، إنه على مقاسك تماماً!

منها الحنان.. ومنك الأمان ؟

عندما نذكر الحنان لا بد أن تحضرنا عبارة «أونوريه دي بلزاك» الشهيرة التي يقول فيها : إذا كان الجمال هو الذي يثير الحب ، فإن الحنان هو الذي يصونه!

فطر الله النساء على الرقة والحنان ، كما فطر الرجال على القوة والحماية ، وليس هذا من باب المصادفة بل من باب كون أحدهما يُكمل الآخر . . ستقول لي كيف ذلك؟

حسنًا سأجيبك :

العلاقة الزوجية أشبه بميزان طرفاه الرجل والمرأة ، ومن أجل أن تتزن وتبقى الأمور في مسارها الصحيح لا بد أن تتكافأ كفّتاه أو تتقارب على الأقل ، وهذا ليس صعبًا إذا ما نظرنا إلى صفات المرأة مقارنة بصفات الرجل! مختلفان عن بعضهما كثيرًا . . ولكن هذا الاختلاف لا يولد التضاد بقدر ما يولد التكامل!

الضعف الأنثوي الرقيق ينجذب إلى القوة فيك . . ليحصل على الأمان

وذلك الضعف نفسه هو ما يجذبك إليها . . ملتمسًا الحنان

مما لا شك فيه أن الحنان صفة نسائية بامتياز ، أو لعله يصح أن نقـول هنا أن الحنان ســلاح نســائي من الطراز الرفــيع . . المرأة أمّ بالدرجة الأولى ، وأمومتـها تنمو في داخلها قبل الإنجاب أو دونه حتى ، فهي شعور أصيل لديها ، جذوره ضاربة في العمق ، حتى ليصح القول أنه أصل كل المشاعر فيها ، إن الأمومة هي الشجرة التي تتكاثف من خلالها أغصان المشاعر الأخرى في قلب المرأة .

فهي أمٌّ حين تمارس أخوّتها لمن هم أصغر منها .

وحين تمارس بنوّتها تجاه والدها .

وحتى في حبها لك . . جزء منها يظل يمارس أمومته عليك .

ومن هنا بالذات أظن أن الحنان يأتي للعالم . . من بئر الأمومة في قلب النساء .

إن الحنان لدى النساء غريزة كما هي الأمومة . . والغرائز تلقائية لا يحتاج الإنسان أن يتعلمها ، لذلك عندما تجد امرأة قاسية فلا بد أن ثمة شيئًا قد حدث لها ، دمارًا داخليًا قد مرّ على ذلك القلب فهدمه ، وسلبه قدرته العاطفية على العطاء ، أو دفعه إلى إحاطة نفسه بتلك الهالة من القسوة كنوع من حماية الذات ضد الإيذاء .

كما أن الرجل بطبيعته خشن ، يميل إلى القوة سواءً بامتلاكها أو إظهارها ، إنك بالتأكيد تلاحظ ميل الأبناء الذكور إلى القتال بمجرد أن يكتشفوا أن لديهم يدين وقدمين صالحة للاستخدام وأقرانًا صالحين ليكونوا خصومًا ، لا أظن أن صبيًا بلغ العاشرة دون أن

يتباهى بأنه ضرب فلانًا ، أو خاض شجارًا ضد فلان وانتصر ، حتى وإن كان أكل ضرباً أكثر من صاحبه ، هذه مسألة شرف بالنسبه له الآن!

ولا تتغير الأمور كثيرًا حينما تكبران ، ما زالت هي تمارس أمومتها على الجميع كما كانت تفعل مع دميتها الصغيرة ، أو قطط الشوارع ، فتعتني وتهتم وترعى وتحنو ، وما زلتَ تتعامل مع الحياة كمعركة ومع الأقران كخصوم وإن لم تستخدم ذراعيك ورجليك في الصراع . . تعود إليها من معركتك الخارجية ، فتأخذك إلى جنتها الداخلية ، وتغدق عليك حنانها ، تضمد جرحك الحديث ، وتتفقد القديم ، تمسح آثار العالم القاسية عن جبينك ، وتساعدك لتكون مستعدًا لمعركتك في اليوم التالي . . إنها تفعل ذلك دون جهد ، وبسعادة ، لأنك ببساطة وفرت لها الظروف المناسبة لتمارس فطرتها ، منحتها الأمان الكافي لتكون معك كما هي ، امرأة يملأ قلبها شوق العالم لتغمرك .

ولكن عليك أن تعلم أن حنان المرأة لا يمكن أن ينمـو ويكبـر ويتدفق دون أمان الرجل ، حين تجد فيها قسوة لم تعهدها منها ، أو جفاءً لم تألفه في علاقتك بها ، فذلك ربما لأنها فقدت الأمان بجوارك ، والثقة بك ، ووجدتْ أنها مضطرة لحماية نفسها ، والتخلي عن فطرتها التي أصبحت نقاط ضعف تعرّضت من خلالها للأذى ، لأنها فقدت درعها المتين الذي كانت تحتمي به ، بل ربما بدأت تشعر بضرورة الاحتماء منه ، فحين تجد فيك لسانًا جارحًا ، ويدًا قاسية ،

ووجهًا عابسًا ، ونفسًا ضيقًا ، ستلجأ إلى نفسها وتعد حصونها ضدك . . ولا يمكن أن يكون هناك أسوأ من فطرة منتكسة!

القسوة التي تأتي نتيجة جرح لا تشبه تلك التي تأتي بدافع التباهي وإبراز الرجولة ، إنها شيء يشبه طرف الورقة الحاد ، سيبدو لك ناعمًا غير مؤذٍ ، ولكن إن أمسكته بطريقة خاطئة سيترك في يدك جرحًا مؤلًما وعميقاً .

وقد قيل : لا يوجد أخطر من امرأة جريحة!

ربما لن تؤذيك كما آذيتها ، لن تجرحك كما جرحتها ، لن تكسرك كما كسرتها ، ولكنها لن تعود كما عهدتها!

حين تجد تلك التي كانت تتحول إلى غيمة تظللك وتقيك هجير الحياة وقسوتها ، قد تبددت وتركتك للشمس والمطر وضربات الحياة . . فتفقّد مخزون الأمان في علاقتكما!

حين تجد أبواب قلبها قد أُغلقت بعد أن كانت تنتظر عودتك بفارغ الصبر كمصاب في معركة لتنقذك من آلامك وتسكّنها ، فابحث عن مفاتيح الثقة التي أضعتها!

حين تجد تلك التي كانت تفرش لك قلبها كلما جئتها متعبًا خائفًا ، قد أصبح غيابها أرضًا صلبة توقظ أوجاعك النائمة ، فتفقد صمام الأمان بينك وبينها!

قد تغيب منك وإن لم تغب عنك ، فليس كل الوجود وجود!

لذلك انتبه حين تتعامل مع قلبها ، ربما عليك أن تكون حريصًا بمقدار حرصك وأنت تتعامل مع قنبلة!

يمكن لنزع مسمار أو قطع سلك خاطئ أو حركة لا مبالية أن يحولك إلى أشلاء!

انتبه لصمتها!

الصمت من أخطر مؤشرات تبدل قلب المرأة ، إنه يعني دومًا : لقد تعبتُ منك ، لقد يئستُ من نجاح الأمور بيننا ، لقد وصلتُ معك إلى نهاية الطريق ، لقد توقفتُ عن المحاولة!

المرأة لا تصمت إن كانت ما زالت تؤمن بمعركتها معك أو في سبيلك ، لكنها تصمت إلى الأبد إن فقدت ثقتها أو أملها بك ، أو بما بينكما!

وليس الصمت فقط أن تطبق فمها ولا تنبس معك ببنت شفة ، فللصمت أبواب كثيرة ووجوه عدة!

حين يختفي العتاب من صوتها ، فهذا صمت

حين يختفي السؤال من كلماتها ، فهذا صمت

حين يختفي الاهتمام من تصرفاتها ، فهذا صمت

حين تتوقف عن التعبير عن استيائها ، هذا صمت

حين تتوقف عن البحث عن وجودك وطلبه ، هذا صمت

حين تتعامل مع وجوك بمبدأ : جئت أهلاً وسهلًا ، وذهبت رافقتك السلامة ، هذا صمت

صمت المرأة دليل على احتضار العلاقة . . وأنها بحاجة لجرعة أمان عاجلة ، بحاجة إلى إنعاش للأشياء التي أوشكت أن تموت بينكما ، وقبل هذا معالجة الأسباب التي أودت بقلبها واهتمامها!

تفقّد معاملتك لها!

طبعاً أنا لا أتحدث هنا عن تصرفات حياتية معتادة ، أو لحظات غضب عابرة ، أو كلمات يومية غير محسوبة ، بالمعدل الطبيعي هذه الأمور يجب أن تحدث وحدوثها ضرورة في حياة أي زوجين ، بل أتحدث هنا عن القسوة والمعاملة السيئة وقلة الاعتبار كسلوك معتاد!

أتحدث عن ذلك الذي ينظر لامرأته كسقط المتاع ، لا صوت مسموع لها عنده ، لا خاطر لها يُصان في حياتها معه ، لا رغباتها تمثل جزءاً من اهتمامه ، لا حزنها يستدر عطفه ، ولا فرحها يستحق مشاركته!

عن ذلك الذي كلما قالت له أريد شيئًا ، قال : لا ضرورة ، وكلما قالت : أحتاج شيئًا ، قال : لا داعي ، وكلما قالت : أتمنى شيئًا ، قال : هذا إسراف!

عن ذلك الذي يترك ابتسامته خارج البيت ويدخل ، يصرخ في هذا ، ويوبخ هذا ، ويشتم هذا ، ولا يبالي أين تقع كلماته السيئة وماذا تكسر ، المهم أن له صوتًا يجب أن يرن لتخرس بقية الأصوات!

عن ذلك الذي يعتبر نفسه محور الكون ، إن لم يجد طعامًا كما يشتهي قلب المائدة رأسًا على عقب ، إن لم يأخذ الأولاد المراكز الأولى جعل الدار عزاءً رغم أنه على الأرجح لا يعرف في أي صف هم!

أولئك الذين لا يحفظون من الكلمات إلا التوبيخ ، ولا يعرفون من النصائح إلا الانتقاد ، ولم يسبق أن احتوى قاموسهم كلمة تقدير!

الذين يرون الاهتمام حقًا لهم لا عليهم ، والحب واجب المرأة تجاههم فقط لأنهم جعلوها زوجة ، والبر واجب الأبناء نحوهم فقط لأنهم ساهموا في إنجابهم!

الذين يظنون أن الأمان مجرد جدران أربع وباب مقفل ، وأن الجوع تسده لقمة طعام ، ولا يسألون عن الروح ولا عن خوفها وجوعها!

الأمان ليس فقط ألا تخاف معك بل أن لا تخاف منك ، أن يكون وجودك كافيًا ليطمئن قلبها ، لا أن تهرب منك بحثًا عن الطمأنينة التي بددتها . . أن تثق بك وأن تشعرها بثقتك بها ، إذ لا يمكن لعلاقة أن تكون آمنة إذا لم تأخذ كفايتها من ثقة كل طرف في الآخر ، كل نظرة شك لامرأتك هي زلزال يهز أرض علاقتكما ، ويهز عرشك في قلبها هذا إن لم يُطح به!

ومما يروى في هذا الصدد حديث الفاكه بن المغيرة مع هند بنت عتبة حين كانت زوجة له ، كَان الفاكه بن المغيرة المخزومي أحد فتيان قريش وكان له بيت للضيافة يزوره النَّاس فِيهِ بِلَا إِذن ، فَأخذ يَوْمًا قيلولة فِي ذَلك البَيت وهنْد معه ، ثم خرج عنها وتركها نائمة ، فجاء بعض الزوار إلى البيت ، فلمَّا وجد هند نائمة ولّى عنها ، فاستقبله الفاكِه بن المغيرة ، فدخل على هند وأيقظها

وقَال : من هذا الخَارِج من عندك؟

قَالت : والله ما انتبهت حتى أنبهتني ومَا رأَيت أحداً قطّ!

قَال : الحقي بأبيك!

فانتشر الخبر ، وخاض النَّاس في أمرها!

فَقال لَهَا أَبوهَا : يَا بنية الْعَار وَإِن كانَ كَاذِبًا ، أبثيني شَأْنك ، فَإِن كَانَ الرجل صَادِقاً ، دسست عَلَيهِ من يقْتله ، فَيقطع عَنْك العَار ، وَإِن كَانَ كَاذِبًا حاكمته إِلَى بعض كهان الْيمن!

قالت : والله يا أَبت إنَّه لكاذب!

فخرج عتبة فقال : إنّك رميت ابنتي بشيء عظِيم ، فإمَّا أَن تبين ما قلت وإلاّ فحاكمني إلى بعض كهان اليمن!

قال : ذلك لَك!

فَخرج الفاكِه في جماعة من رجال قريش ونسوة من بني مخزوم ، وَخرج عتبة في رجال ونسوة من بني عبد مناف ، فلما شارفوا بلاد الكاهن تغير وجه هند وكسف بالها

فَقال لها أبوها : أي بنية ألا كان هذا قبل أَن يشتهر في النَّاس خروجنا!

قالَت : يا أَبت ، والله ما ذلك لمكروه قبلي ولكنكم تأتون بشراً يخطئ ويصيب ولعلَّه أَن يسمني بسمة على أَلسنة العرب!

فَقَال لها أَبوها : صدقتِ ولكني سأختبره لَك

فصفر بفرسه فلما أدلى عمد إلى حبة بر ، فأدخله في إحليله ثمَّ أوكى عليها ، وسار فلمَّا نزلوا على الكاهن أكرمهم ونحر لهم

فقَال لَه عتبة : إِنّا أَتيناك في أمر وقد خبأنا لك خبيئة فَما هي؟

قَال : برة في كمرة

قَالَ : أريد أبين من هذا

قَال : حبة بُر في إحليل مهر

قَال : صدقت فانظر في أَمر هؤلاءِ النسوة

فجعل يمسح رأس كل واحِدة منهنَّ ويقول قومِي لشأنك ، حتى إِذا بلغ إِلى هند مسح يَده على رأسها وقال : قومي غير رفحاء ولا زانية وستلدين ملكاً يُسمى معاوِية!

فَلَمَّا خرجت أَخذ الفاكه بِيَدِها ، فسحبت يدها من يده

وقـالت : إِلَيك عني والله لأَحـرصن أَن يكون ذلك الولد من غيرك!

فتزوجها أَبو سفيان فولدت له معاوِية .

في خبر الفاكه مع هند لم تكن قلة ثقته وحسب من سحبت بساط الأمان من تحت قدميها ، بل قلة مروءته في التعامل معها ، وإذاعته لظنه السيء فيها كما لو كان حقيقة ، في حين أن المروءة تحتم عليه أن يصون عرضها وكرامتها حتى وإن كان ظنه في محله ، فكيف به وهو مجرد شك دون بينة!

والقصة وإن كانت حدثت في الجاهلية أي قبل أن يهذّب الإسلام أخلاق الناس ، إلا أن مثل هذه السلوكيات ما زالت تحدث ، بل هناك من هو أسوأ من الفاكه في هتك الستر وإذاعة السر ، والتخلي عن مروءته لظن ظنه فحسبه وحيًا مبينًا ، وبغض النظر عن كون الحياة لا تستقيم في ظل شك الشركاء في بعضهم ، فإن مثل هذا الظن القبيح هو ولا شك من الظن الذي أمرنا الله عز وجل باجتنابه في قوله : «إن بعض الظن إثم» .

لا أحد يقول لك امسح ظنونك إن كان لها ما يبررها من وجهة نظرك ، ولكن تعامل معها بناءً على ماهيتها ، يعني مجرد ظنون ، لا أن تحمل ظنك محمل الواثق ، وتعاقب الناس كأنك رأيتهم رأي العين .

الأمان في العلاقة يعني أن يكون أحدكما مؤتمن على كرامة الآخر ، مؤتمن على قلبه ، وروحه ، وضعفه ، وعيوبه ، أنت لا تتزوج ملاكًا ، بل بشرًا ، وأيضًا لا أحد ينتظر منك أن تكون ملاكًا ، لكن هناك قدرًا من حُسن الخلق على الجميع أن يتحلى به حين يتعامل مع الآخرين!

«تقلق المرأة على المستقبل حتى تجد زوجاً ، ولا يقلق الرجل على المستقبل إلا بعد أن يجد زوجة»

هذه العبارة الساخرة لبرنارد شو تحمل الكثير من الصدق ، فلا تجعلها تقلق نيابة عنك!

ما الذي تقوله لك المرأة ؟!

هذا كتاب «للرجال فقط» ولكنه يدور حول النساء وعالمهنَّ الخفيَّ ، وطرق تفكيرهن ، وتعاطيهن مع الأحداث ، لغتهنّ الخاصة ، واللغة التي يحببن أن يسمعنها من الرجال! إنه إماطة اللثام الذي يجعل المرأة مخلوقة غامضة في عين الرجل!

أعرفُ أنَّ هذا الشيء قد صار معلوماً لديك ، فلا تستعجل وتقول لي : ما حاجتي إلى هذا التعريف المتأخر!

في الحقيقة كنتُ أخبرك عن النساء مما قرأتُ ، وبحثتُ ، وسمعتُ ، وشاهدتُ ، وعشتُ ، ودرستُ . ولكني فجأة وأنا جالس أفكر بالخطوة التالية ، والمبدأ الجديد الذي سأحدثك عنه ، خطرت لي فكرة وجدتها رائعة ، وعزمتُ على تنفيذها ، قلتُ في نفسي : لماذا عليَّ دوماً أن أخبرك عن النساء ، لماذا لا أتركهنّ يخبرنك عن أنفسهنَّ؟!

لماذا عليّ أن أكون دوماً صوت المرأة في حين أنه يمكن لها أن ترفع صوتها وتتحدث؟!

عزمتُ أول الأمر على صياغة استبيان تجيب عنه النساء ، ولكني عدتُ وعدلتُ عن قراري هذا لأني شعرتُ أنه بهذا سيكون للكتاب طابع أكاديمي بحثي وهذا شيء لا أريده ، وأعتقد أنك في غنى عنه!

وبعد طول تفكير ، قررتُ أن أغتنم المحاضرات التي ألقيها ، وبالفعل كان الجو سانحاً لاصطياد هكذا غنيمة ، فعادة في فقرة الأسئلة التي تلي المحاضرة يسألني أحدهم أو إحداهن عن عملي القادم ، وكنتُ على الفور أسارع بإخبار الحضور أن الكتاب القادم بعنوان «للرجال فقط» وأشرعُ بشرح فكرته ، وعندما أشعر أن شرحي أصبح وافياً ، كنتُ أطلب من الحاضرات أن يكتبن على الأوراق البيضاء التي سنوزعها عليهن جملة تريدُ كل واحدة منهن أن تهمسُ بها في أذن رجل ما! وكنتُ -ودفعاً للحرج وزيادة في تشجيعهنّ على المشاركة- أطلبُ منهن عدم كتابة الاسم على الورقة ، جملة واحدة فحسب ، وكنت أعدهنَّ أني لن أفتح الأوراق إلا في المنزل!

وهكذا محاضرة تلو الأخرى ، ورشة عمل إثر ورشة عمل ، صار لديَّ جُملٌ تكفي ليكون لها مساحة في هذا الكتاب!

الجُمل التي كتبنها ستكون عنواناً ، وما يأتي تحته هو شرحي أنا من خلال ما فهمته من هذه الجمل ، بناء على ما أعرفه مسبقاً ، وكلنا ينقصنا شيء من المعرفة ، أو لعله ينقصنا الكثير ، ولكن يُخيَّلُ إليَّ أن قيمتنا تكمن في سعينا الدائم للمعرفة وعدم اكتفائنا بما نعرفه ، لأن ما نعرفه سيبدو شيئاً كثيراً عندما نكتفي به ، ولكننا عندما نحاول أن نعرف أكثر ، سيكون أول ما نعرفه أننا لم نكن نعرف إلا القليل!

أرخِ سمعك ، النساء يهمسنَ لك الآن ، وهذا بعضُ ما يردنك أن تعرفهَ عنهنَّ!

١- انظر إليَّ حين أحدثك!

تعتقدُ المرأة -وأظنها محقة في اعتقادها هذا- أن عدم نظر الرجل إليها مباشرة وهي تحدثه في أمرٍ ما يدل على عدم الاهتمام بمضمون الحديث على الأقل، أو بها شخصياً على الأكثر.

إنها تحبُّ أن تعرف أنك حاضر بكل حواسك أثناء حديثك معها، قد تكون لديك قدرة عالية على التركيز، وتستطيع أن تستمع إليها وأنتَ تُحادث صديقك في الواتساب، أو تقوم بحل شبكة من الكلمات المتقاطعة، وما من مشكلة عندك وأنت غارق في كل هذا أن تعيد عليها حديثها كله إذا ما اتهمتك بعدم الإنصات! ولكن من الجيد أن تعرف أن النظر إليها أثناء حديثها معك شيء يتعلق بها لا بك! إنها لا تريدك أن تنظر إليها خوفاً من أن يفوتك بعض كلامها، هي فقط تريد حضورك الكامل في هذه اللحظة! شخصياً لا أعتقد أنها تطلب الكثير، هذا شيء نطلبه أنا وأنتَ أيضاً، ولا أعتقدُ أنك ستكون سعيداً وتشعر بالاهتمام لو جئتَ تُحدث زوجتك بأمر ما وهي تلهو بجوالها ولا تنظر إليك، وتعيرك كلَّ حواسها!

وهذا شيء نعرفه جميعاً في علاقتنا بالآخرين، وليس بعلاقة الزوج بزوجته فقط، فهل ستكون مرتاحاً لو دخلتَ على مديرك تطلب علاوة أو إجازة، أنتَ تحدثه وهو منشغل بشيء أمامه ولا يرفع رأسه لينظر إليك! لا شك أنك لن تكون مرتاحاً وستشعر أنه عاملك بازدراء وعدم احترام، لأنك تؤمن يقيناً أن الكلام ليس حديث لسان إلى أذن بقدر ما هو حديث قلب إلى قلب! فإذا كان هذا هو الحال بينك وبين مديرك الذي لا يربطك به أكثر من علاقة عمل

على الأغلب ، وأن ما يجمعكما معاً هو هذه الشركة ولو أغلقت أبوابها فربما لن تلتقيا في مكان واحد قبل يوم القيامة! فما بالك بامرأة يربط بينك وبينها حب وود وأسرة وأولاد ومصير مشترك ودرب طويل هي رفيقتك فيه!

٢- أُحبُّ غيرتك عليَّ، ولكن لا تكن مجنوناً!

قيل : القليل من الغيرة يشعلُ الحب والكثير منها يقتله!

الغيرة صفة محمودة في النساء وفي الرجال على السواء ، ولكن هناك فرق شاسع بين الغيرة العاقلة وبين الغيرة المجنونة!

الغيرة التي تُشعر المرأة أنها غير قابلة للقسمة ولا للمشاركة مع أحد هي غيرة عاقلة لذيذة! أما الغيرة التي تُشعر المرأة أنها متهمة على الدوام وأن عليها أن تثبت كل يوم أنها شريفة ولا تخون هي غيرة مقيتة تجعل الحياة جحيماً لا يُطاق!

كل امرأة تفرحُ عندما تلمسُ غيرة زوجها عليها ، إنها لا تنزعج من انزعاجه من إطراءات الغرباء عليها ومديحهم لها ، على العكس تماماً هي تشعر بالاحتواء والتمسك وعدم التفريط بها! إنها لا تنزعج من يدك التي تمسك بخصرها فجأة في السوق إذا مررتما بجانب رجالٍ خشية أن يلمسها أحد ، على العكس تماماً هي تشعر بالحظوة والمكانة والقيمة! إنها لا تنزعج أبداً من سؤالك المتعقل عن زميل عمل هاتفها اضطراراً لأجل شيء عالق إن كانت امرأة عاملة ، مع أن الأصل أن يبقى العمل في العمل ولا نحمله إلى البيت ولكن هذا شيء يحدث أحياناً ، إنها تشعر بالسعادة حين تشعر بارتباكك

أن أحداً قد اقترب منها وإن كان اقتراباً عادياً مقبولاً تفرضه طبيعة عملها وحياتها وله مبرر ظرفي وضمن الحد المستساغ!

أما الغيرة المجنونة فلا أجد أجمل من تشبيه وليام شكسبير لها عندما قال: الغيرة هذا الوحش الذي يملك عيوناً خضراء! من الجيد أن تعلم عزيزي أن الحُب ليس مبرراً للإساءة للحبيبة، والغيرة المجنونة التي تضع الزوجة على الدوام في قفص الاتهام هي إساءة! إساءة لك أولاً وعدم ثقة بنفسك ولا بعلاقتك الزوجية! وإساءة لها من حيث أنك تشعرها أن شرفها سهل ومن الممكن أن تفرط به!

نحن لا نعيش على ظهر هذا الكوكب وحدنا، كلنا لدينا أقرباء ومعارف وجيران وأصدقاء طفولة، وليست كارثة إذا ما التقت بابن عمها فطرحتْ عليه السلام، وليست كارثة إذا اتصلت بابن خالها تطمئن عليه بعد عملية جراحية، أحياناً قتل النبل في الناس أسوأ جريمة يمكن للإنسان أن يرتكبها!

٣- أنا قوية، ولكني أحتاجك!

لا غنى للمرأة عن الرجل مهما بدت قوية، عاملة، مثقفة، واثقة، ناجحة، لها حضور وجاه ومنصب! الأمر ذاته ينطبق على الرجل وهذه بديهيات لا يجب التوقف عندها أساساً وإنما الفكرة من كل هذا أن الأشياء المكتسبة مهما كانت كثيرة ورائعة لا يمكن أن تحل مكان الأشياء الفطرية التي يقول فيها ربنا سبحانه «فطرة الله التي فطر الناس عليها»!

إن امتلاك المرأة ثروة هائلة ولو كانت بمقدار مال قارون لا يمكن أن

تسد غريزة الأمومة عندها ، لأن الثروة مكتسبة والأمومة فطرية! كذلك إن امتلاك رجل للثروة والجاه والمنصب لا يسد غريزة الأبوة عنده ، وللسبب ذاته أن الثروة والجاه والمنصب أمور مكتسبة والأبوة فطرية!

وإن حاجة المرأة إلى الرجل ، وحاجة الرجل إلى المرأة هي أمر فطري لا يمكن أن يسده شيء مكتسب آخر مهما بدا لك الرجل مستمتعاً بسلطته ، والمرأة غارقة في نجاحها ، ثق أن الفطرة تحكمنا ولا نحكمها ، والسيطرة على غرائزنا لا يعني إلغاءها أبداً ، ولا يعني أنها لا تنقصنا ، هذا يعني شيئاً واحداً فقط هو أننا نتكيف!

تستطيع المرأة أن تفتح باب السيارة بنفسها ولكن شعور الدلال الذي تشعر به عندما يقوم رجل بفعل هذا معها هو بيت القصيد!

وتستطيع المرأة أن تشتري باقة ورد لنفسها ولكن أين شعور الحُب في الموضوع لو فعلَتْ ، إن الفكرة لا تتعلق أبداً بامتلاك الأشياء وإنما بالشعور اللذيذ المصاحب لتلقي باقة الورد من رجل يحبها!

إن امتلاك امرأة لثروة لا يسد حاجتها لتقبل رجل يهديها هدية في يوم ميلادها!

نحن البشر نبحث عن البهجة من وراء الأشياء ولا نبحث عن الأشياء بذاتها!

هي تحتاجك ليست لأنها ضعيفة ، ولا مهيضة الجناح ، ولا فقيرة ، ولا بحاجة إلى الهدايا ، هي تحتاجك لأن فيها جوعاً روحياً وعاطفياً لا يسده غيرك ، وأنت تحتاجها للسبب ذاته أيضاً!

هي تستطيع إنجاز الأشياء بنفسها ولكنها تبحث عن لذة

مشاركتك لها في إنجاز هذه الأشياء!

إنها تبحث عن الأمان فيك ، هذا الشعور الذي لا يعطيها إياه ألف حارس أمن تستطيع توظيفه!

إنها تبحث فيك عن السند ولو كانت قادرة على تدبر أمورها كلها بنفسها!

أنتَ تنقصها مهما بدت للناس أنها مكتملة بدونك ، وهي تنقصك وحتى إن ظنَّ الناس أنك في أوج اكتمالك!

٤- لا تنتقدني أمام الناس!

تقولُ العرب : النصيحة على الملأ فضيحة!

وكل فعلٍ جميل يكون فيه هدر لكرامة الإنسان يصبح تركه أفضل من فعله! لهذا قال ربنا «لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى» فالصدقة ومساعدة المحتاج هذا التصرف النبيل يذهب أجره إذا صاحبه المن ونتج عنه خدش كرامة الإنسان!

ولأن الكلمة الطيبة صدقة ، يجب أن تكون الكلمة الطيبة في موضع لا ينال من كرامة الإنسان ومشاعره ، كلنا -رجالاً ونساءً- نتقبل النصيحة إذا جاءت على طبق من اللطف ، ونرفضها إذا كانت تسبب لنا إحراجاً أمام الناس ولو كانت صادقة!

ما حاجتنا للنصيحة على الملأ ، يعاملنا الناصح كقاصرين أمام الناس ويريد تربيتنا ، بينما كلنا نحتاج نصيحة سر ، وإرشاد لا يسمعه غيرنا ، جميعنا نحتاج لمن يدلنا على الطريق ولكن بما يضمن مشاعرنا وكراماتنا!

المرأة إنسان يعج بالمشاعر ، لهذا التعامل معها يجب أن يكون حذراً مراعياً أن فيها ما فينا نحن الرجال «كرامة» وفوق ما فينا من رقة المشاعر وعذوبتها!

المرأة تخطئ كما أخطئ أنا وأنتَ ، ولا تستغني عن النصيحة كما لا أستغني عنها أنا وأنتَ ، ولكن بينك وبينها . لماذا علينا أن نجعل بيوتنا صفحة مفتوحة أمام الآخرين ، ولو كانوا أهلها وأهلنا أو حتى أولادنا!

لم يعجبك تصرف منها ، هذا شيء طبيعي ويحدث ، لكما بيت يجمعكما ، وغرفة تقفلان بابها عليكما ، أخبرها بما لم يعجبك وتمنَّ عليها أن لا تعيده ، واقترح عليها تصرفاً بديلاً ، ما تتقبله منك بينك وبينها لن تتقبله أمام الناس ، مع أنه الكلام ذاته ، ولكن الفارق أنك بينك وبينها راعيت كرامتها ومشاعرها ، وأمام الناس جرحتها ولو كان كلامك صحيحاً وملاحظتك في مكانها!

يقول ربنا لنبيّه : «ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك»! رغم أنه بُعث بالحق ولكن هذا الحق جعل الناس يؤمنون به لأنه عاملهم بلطف ولين ورقة قلب!

٥- كُن لبقاً ومُجاملاً !

أجاز الإسلام الكذب في ثلاثة مواضع :

- الكذب على الأعداء
- الكذب لإصلاح ذات البين
- الكذب بين الزوجين!

فليس من المعقول أن يقع أحد المسلمين أسيراً عند الأعداء ثم يسألونه عن أسرار الجيش وأمور السياسة ويخبرهم بكل شيء بحجة أنه صادق! وهذا هو الموضع الأول!

أما في إصلاح ذات البين ، يقع خلاف بين صديقين لك ، تحاول أنتَ أن ترأب الصدع بينهما وتصلح ، فتأتي إلى الأول وتقول له فلان يحبك ويحترمك وهو منزعج مما حدث بينكما ، لقد كانت ساعة شيطان عليكما أن تتجاوزاها! وتقول للثاني مثل قولك للأول ، أنت هنا تلين قلب أحدهما على الآخر ، وهذه لفتة رائعة من هذا الدين العظيم الذي يسعى لحياة جميلة وعلاقات تسودها المحبة بين الناس!

أما الكذب بين الزوجين ، وهو الذي يعنينا فليس على إطلاقه ، ولا يقول منطق ودين أنه يجب علينا أن نكون كذابين لنعيش ، وإنما أُبيح الكذب في المواضع التي فيها تطييب الخواطر ، ومراعاة المشاعر ، وهي أمور لا بد منها لاستمرار الزواج سليماً معافى!

وكي لا يبقى الكلام رجماً بالغيب ، وتنظيراً من غير دليل ، أضربُ لك القصة التالية لتشرح ما أقول :

جاء رجل إلى عمر بن الخطاب وقال له : يا أمير المؤمنين أريدُ أن أطلق امرأتي!

فقال له عمر : ولِمَ؟

فقال : لقد سألتها إن كانت تحبني واستحلفتها بالله أن تصدقني القول ، فقالت لي : أما إنك قد استحلفتني بالله فإني لا أحبك!

فأرسل عمر بن الخطاب في طلب الزوجة ، ولما حضرتْ قال لها : أأنتِ التي تقولين لزوجك لا أحبك؟!

فقالت : يا أمير المؤمنين لقد استحلفني بالله ، أأكذبه القول؟!

فقال عمر : أجل اكذبيه!

هذا هو الكذب الجميل المباح ، الذي لو وضع الصدق مكانه لانهارت البيوت ووقع الطلاق وانفرط عقد العائلات!

هو شيء يجب أن نمارسه في تصرفاتنا اليومية والحياتية البسيطة ، كأن يقول الرجل لزوجته : أنتِ أجمل امرأة في الدنيا! هذه ليست شهادة عند قاضٍ ، ولا إدلاء بشهادة في محكمة ، ولن تحضر هي لك المصحف لتقسمً عليه أن ما تقوله صادق فعلاً ، هذه مجاملة ومماحلة وإن لم تكن عين الحقيقة ، ما من امرأة إلا وامرأة أجمل منها ، وما من رجل إلا ورجل أجمل منه ، فهل نخبر زوجاتنا أن الأخريات أجمل منهن ، ويخبرننا أن الآخرين أجمل منا باسم الصدق والورع الذي هذا ليس مكانه!

ليس من الكذب أن تخبرها أن طعامها أشهى طعام تذوقته هذا من اللباقة وحسن العشرة وجبر الخواطر! كلنا نعرف أن الثناء الذي نتلقاه ليس حقيقياً مئة بالمئة ولكننا نفضل الثناء والمديح الذي يشعرنا بقيمتنا أكثر مما تفعل الحقائق الشخصية الجارحة ، فكُنْ لبقاً ومُجاملاً!

٦- لا تخفْ أنا لا أخبر صديقاتي بكل شيء!

بشكل عام تميل المرأة لمشاركة تفاصيل حياتها مع صديقاتها أكثر مما يفعل الرجال ، الرجل أكثر كتماناً من المرأة وهذا لا ينتقص

من قيمة المرأة ، بل إنها الفطرة ، تماماً كما لا ينتقص من قيمة الرجل إن قلنا المرأة أكثر حناناً منه ، كل واحد منا نحن الجنسين مركب بطريقة فطرية تناسب وظيفته التي أرادها الله له في هذه الحياة! تخيل شكل الحياة على الأرض لو كانت النساء أقل حناناً مما هن عليه ، سيصبح هذا الكوكب مقيتاً ولا يصلح للعيش ، إنهن نصفنا الحنون والشاعري! بالمقابل تخيل لو لم نكن نحن بهذه الجدية والمثابرة وحب العمل والانتاج ، لأصبح هذا الكوكب كقصيدة عابثة لأبي نواس لا كملحمة فتح عمورية لأبي تمام!

ولكن على ميل المرأة للبوح والمشاركة والحديث عن تفاصيل حياتها لصديقاتها ، فثق أن جزءاً من علاقتكما ليست للبوح ولا للمشاركة عندها ، هي تبوح بقدر فطرتها وطبعها وحاجتها للاستماع ، ولكن تحفظ أسرارك بقدر حاجتها أن تكون لها وحدها!

هناك نساء يبحن بكل شيء هذا صحيح ، وهناك رجالٌ يفعلون هذا الأمر ، ولكنه الشواذ وليس القاعدة ، ونحن حين نتحدث بالعموم عن النوع بأكمله فإننا نتحدث عن القاعدة لا عن الشواذ!

بمعنى آخر حين أقول لك أن الأم تضحي بروحها في سبيل أولادها ، فقولك لي أن فلانة تركت أولادها وذهبتْ لتعيش حياتها لا يجعل كلامي خاطئاً ، والسبب أني أحدثك عن القاعدة بينما تحدثني أنتَ عن الشواذ! وحين تخبرني أنتَ أن الأب أكثر ما يعنيه هو سعادة ابنته ، فقولي لك إن فلاناً زوَّج ابنته لأجل المال ، فهذا لا

يقدح بصحة كلامك للسبب ذاته هو أنك تحدثني عن القاعدة ، وأنا أضربُ لك مثالاً شاذاً! وهذه كتلك!

أنتَ محمي وإن كان لها صديقات ، وأشياء كثيرة تقع بينك وبينها لا تخبر بها حتى أمها ، صدقني هُنَّ يبحثن عن الستر أيضاً ، ولا يملنَ إلى الحديث عن الأشياء المخزية إلا عندما يطفح الكيل ، أما إذا كنتَ كالماء في باب الطهارة في الفقه : إذا كثُر لم يعد يحتمل الخبث! فإنها تستر منك قليل الخبث لأجل كثير الود!

٧- كُنْ مبادراً، يزعجني دوماً أن أبدأ!

المبادرة صفة تحبها المرأة في الرجل فهي عندما تبادر دوماً تشعر أنها تفرض نفسها على الرجل بدءً بالعلاقة الزوجية وانتهاءً بالخروج من المنزل لتناول طعام العشاء في أحد المطاعم ، إن طلب الأشياء عزيز عندنا نحن البشر بشكل عام ، إننا نحب أن نشعر أن الآخرين يقدمونها لنا دون أن نطلبها لأن هذا دليل على الاهتمام!

هناك فرق كبير على نفسيتها ومشاعرها بين أن تقول لك دوماً أرغب بالخروج من المنزل معك وبين أن تدرك أنت هذه الرغبة عندها وتدعوها للخروج!

إن في الحصول على الأشياء دون طلب لذة كبيرة ندركها نحن جميعاً وهذا ليس شأن النساء وحدهن ، ولكن بما أن المرأة أكثر رقة فمن الطبيعي أن حاجتها للشعور بمبادرة الزوج تجاهها أكبر!

صحيح أنه لا يجب أن يكون بين الزوجين هذه الكلفة والرسمية ، ولكن مهما بلغ الاندماج بين الزوجين فهذا لا يلغي

فطرة المرأة ولا فطرة الرجل ، إن التمايز والاختلاف يجب أن يُراعى مهما بلغ الحب بينهما ، بل إني أرى أكثر من ذلك ، أرى أن مراعاة هذا الاختلاف هو الذي يجلب الحب!

٨- أخافُ من امرأة أخرى تأخذك مني!

الحاجة إلى الأمان هي نزعة إنسانية ، نحن نبحث عن الأمان في كل شيء ، نهرب من البلاد التي تدور فيها الحروب ، نتجنب الشركات الآيلة للانهيار لأن ليس فيها أمان وظيفي ، نحذر من الأشخاص العصبيين لأننا لا نعرف متى ينفجرون ، نُبقي على مسافة آمنة مع جار سيء كي لا نقع بما نحن في غنى عنه! وإن الحاجة إلى الاحساس بالأمان في علاقتنا العاطفية والزوجية تأتي في قمة هرم البحث عن الأمان ، الحياة التي تشبه السير في حقل ألغام لا تعرف متى يطيح أحدها بك حياة مخيفة وحارقة للأعصاب!

هاجس المرأة الأخرى دوماً ما يطرق فكر المرأة ولا يبدده شيء سوى مقدار الأمان والطمأنينة التي يزرعها فيها زوجها! يخطئ كثيرٌ من الأزواج حيث يتحدثون من باب المزاح مع زوجاتهم عن الزواج بامرأة أخرى ، هذا المزاح تأخذه المرأة من باب الجد ، وتعتقدُ أنه لو لم يدر في رأسك ما جرى الحديث به على لسانك ، فلا تزرع الشك في صدرها ، ولا توقد هذه النار لأنك أول من سيحترق بها ، ستجعلها تراقبك كالمحققة ، وستضيق عليك عيشتك والسبب أنتَ نهاية المطاف!

وليس الكلام فـقط هو الذي يُشعـر المرأة بعـدم الأمـان ، إنهـا التصرفات أيضاً ، ثمة تصرفات مريبة ، اهتمام زائد بالأخريات ، غموض في العلاقات مع النساء هو ما يُحدث في قلبها عدم الشعور بالأمان أكثر مما يحدثه الكلام فقط ، وإن كان الكلام في هذا الأمر ليس بالشيء السهل .

الإنسـان الواضح يبعثُ على الثـقـة ، قـد تكون بحكم عملك مضطراً أن يكون لك علاقات عمل بأخريات ، اشرح لها حدود هذه العلاقات ، وأخبرها عنها ، ولا تتركها تتخيل أشياء ثم تتعامل معها على أنها حقـائق! أجِبْ على هاتفك أمامـها إذا اتصلت إحداهن بك ، دعها تسمع أن لا شيء غير العمل ، إن انزواءك عنها لإجراء اتصال وصلك أمامها هو شرارة غيرة وشك ألقيتها في كومة قش يابس ، عليك أن تتـوقع أن ناراً عظيـمة ستـشتعل ، إن أسـهل من مكافحة الحرائق هو العمل على تلافي وقوعها!

٩- أتأنق لأجل امرأة أخرى لا لأجل رجل آخر!

عميقة جداً هذه الجملة ، وأعتقد أن إعطاءها حقها الوافي في الشرح سيطول كثيراً لو أردنا أن نفعل ، ولكن كما تقول العرب : حسبك بالقلادة ما أحاط بالعُنق!

ولكن قبل أن نبـدأ ، لا بد من الإشـارة أولاً أننا نفـعل بعض السلوكات الجميلة لأجل أنفسنا أولاً وليس لأجل أحد آخر ، وعلى رأس هذه السلوكيات هي النظافة الشخصية ، فنحن نستحم ونلبس ثياباً نظيفة ونسرِّح شعورنا وننظف أسناننا وليس لها هدف يتعلق

بالآخرين ، ثمة شيء غير العناية الشخصية اسمه الرضى عن الذات ، فليس بالضرورة أن كل ما نقوم به إنما نقوم به بهدف جذب الآخرين أو البحث عن التقدير والاحترام في عيونهم ، وإن كانت الأشياء مرتبطة ببعضها أحياناً ومتداخلة ، فلا شك أن الإنسان النظيف يقدره الناس أكثر من الذي لا يُولي مظهره وشكله الاهتمام الكافي ، والأنيق يلفت النظر أكثر من الرث ، ولكننا حين نهتم بمظهرنا فلسنا بالضرورة نبحث عن مكانة في نفوس الآخرين بقدر ما نبحث عن الرضى واحترامنا لأنفسنا!

الرجل الذي يعتقدُ أن المرأة تلبس وتتأنق لأجل جذب الرجال فقط لا غير ، فوق أنه لا يدرك الحقيقة التي تحدثنا بها أعلاه حول نظرة المرء لنفسه ، وشعوره بالرضى عن ذاته ، فإنه يخبرنا دون أن يدري أنه هو الآخر لا يلبس ويتأنق إلا بسبب جذب النساء! حكمنا على قضية ما لا تخبر الآخرين عن حقيقة هذه القضية بقدر ما تخبرهم عن حقيقتنا نحن!

فكما أن الرجل حين يلبس ويتأنق ليس بالضرورة صائد نساء ، فكذلك حين تلبس المرأة وتتأنق فليست بالضرورة صائدة رجال ، ولكني لا أنكر أن هذا الشيء قد يحدث ، ولكنه يحدث عند الرجال والنساء على حد السواء!

تحدثنا في النقطة السابقة أن المرأة تخاف دوماً من امرأة أخرى تأخذ منها زوجها ، لهذا أحد أسباب تأنقها واهتمامها بشكلها فوق الرضى عن الذات الذي تحدثنا عنه هو أن تبدو جميلة بعينيك ، بل أجمل من اللواتي تراهنَّ أنتَ ، إنها هنا تسعى نحو هدف نبيل هو

إشباع حواسك وغرائزك كي لا تكون فريسة سهلة تصطادها امرأة عابثة دون عناء ، إنها تحصنك وتقويك ، فالذي يأخذ كفايته من أي شيء لن تمتد عيناه كالذي لم يأخذ كفايته منه ، إن الإنسان الجائع تلفته كسرة الخبز اليابسة واللقمة في يد شخص آخر ، لأنه ضحية الحرمان ، المكتفي لا يمد عينيه كثيراً ، وإن كنت لا أنكر أن بعض عيون البشر فارغة لا يملأها شيء ، وهذا يقع في النساء كما يقع في الرجال!

بقي أن نشير أن النساء يحفلنَ بالنساء الأخريات أكثر مما يحفلن بالرجال الآخرين ، لهذا إن المرأة كثيراً ما تلبس وتتأنق غيرة من امرأة أخرى ، وسعياً لمنافسة نساء أخريات في حفل أو مناسبة اجتماعية ، وهذا إن كان يحدث ولا سبيل إلى إنكاره ، إلا أنه لا يلغي ما تحدثنا عنه بداية من أننا نفعل كثيراً من الأشياء بحثاً عن قيمتنا في عيون أنفسنا لا في عيون الآخرين ، فلا تكن موسوساً شكاكاً ، على أية حال ستجد ألواناً من الرجال الذين يشكون قلة اهتمام زوجاتهم بأنفسهن ، وهذا أقسى ما قد يواجهه الرجال!

١٠- أنا زوجتك ولستُ خادمتك!

حتى عهد قريب من عمر هذه البشرية على ظهر هذا الكوكب ، لم تكن النساء تخرج إلى العمل إلا فيما ندر ، وكان العرف السائد أن المرأة تعمل في بيتها ، وتهتم بشؤون الأسرة ، والرجل يعمل خارج البيت ويحصِّلُ قوت بيته وحاجاته ، صحيح أن هذا العصر أحدث تغييراً على دور المرأة كان أهمها خروجها إلى سوق العمل ولكن

نسبة اللواتي ما زلنَ يلزمنَ دور المرأة التقليدي الذي عرفته البشرية ما زال أكثر من نسبة النساء العاملات ، فتقريباً إن ثلثي الزوجات في هذا العالم هُنّ ربات بيوت!

وسواءً كانت الزوجة ربة بيت ، أو تجمع بين عملها ووظيفتها واهتمامها بأسرتها ، فإنها تكره أن تشعر أنها خادمة في البيت! وفي الحقيقة إن الذي يجعلها تشعر بهذا الشعور ليس الأعمال المنزلية التي تقوم بها ، بل نظرة الرجل إليها وفهمه لدورها ، من الأزواج من يُشعر زوجته أنها سيدة نساء العالم وإن كانت تمسح وتكنس وتغسل وتكوي وتطبخ . ومن الأزواج من يُشعر زوجته أنها إحدى أثاثات البيت كالسرير والطاولة والتلفاز وإن كان عندها مئة خادمة!

ربة البيت تقوم بعمل عظيم ، وشخصياً أعتبر أن ما تقوم به ربة البيت من أعمال منزلية وتربية الأولاد هو أعظم وظيفة قد تقوم بها المرأة ، مع احترامي وتقديري للنساء العاملات خصوصاً اللواتي يقمن برسالتين عظيمتين معاً هما العمل داخل البيت وخارجه دون تقصير في إحدى الوظيفتين!

إحساس المرأة أنها خادمة لا يأتي من عملها المنزلي كما سبق وإنما من نظرتك أنتَ إليها ، وطريقة تعاطيك معها ، فحتى لو أحضرتَ لها عاملة منزلية لتساعدها فهذا لا يحل المشكلة ما لم تغير أنتَ نظرتك إليها وتشعرها بأنها حبيبة لا وعاء إنجاب ، وأنها شريكة عُمر لا تابعة ، إذا أردتَ أن تفهم كم هو مؤذٍ شعورها عندما تُشعرها أنها خادمة ، تخيل شعورك إذا أشعرتكَ هي أنك مجرد عاملٍ ليس له دور في الحياة سوى أن يحضر ثمن الأشياء التي تحتاجها الأسرة!

هذه هي الجمل التي وجدتُ أنها جديرة بالشرح والتوقف عندها ، أما البقية فسأوردها كما هي دون تعليق ، لسببين :

الأول : أننا قد نكون تطرقنا لها في مبدأ آخر

الثاني : أنها واضحة ولا يلفها الغموض وبالتالي لا تحتاج شرحاً ولا تعقيباً

اقرأ بعقلك وقلبك ما قالته النساء :

- أحبُّ المفاجآت فلا تكن مُتوقعاً دوماً!
- أغفرُ لك كل شيء إلا الكذب!
- كُن مستمعاً جيداً!
- لا تنسَ عيد ميلادي!
- ارسمْ على وجهي ابتسامة!
- عانقني دون سبب!
- لن أبوحِ لكَ بماضيَّ العاطفي ، فلا تحاول!
- أنا أبكي أكثر مما تعتقد!
- ساعدني في أعمال المنزل!
- أكره فوضويتك ، هل بإمكانك أن تكون مرتباً!
- أحبُّ أن أراك تغار عليّ!
- على عكس ما تعتقد ، أنا أفكر بالعلاقة الحميمة مثلك ، ولكني لستُ مستعدة لها دوماً!
- كُن أنيقاً ، أحبُّ أن أتباهى بك!
- أنا مزاجية ، ولكني أحبك جداً!
- أحزن دون سبب ، فلا تعتقد دوماً أنك السبب!

- أقدِّر ما تفعله لأجلي حتى وإن لم أخبرك!
- لا تقارنّي بأمك ، أنت تخبرني أنك ما زلتَ طفلاً!
- أكذب عليك بشأن الأسعار في السوق!
- لا أقارنك بأحد ، فلا تقارني بأحد!
- لا أريدُ رجلاً آخر ، أريدك أنتَ رجلاً آخر!
- عندما تكون حنوناً أشعرُ بقوتك أكثر مما أشعر بها عندما تكون قاسياً!
- أفعلُ أشياء كثيرة لا أحبها من أجلك ، عاملني بالمثل!
- أثق بك ، ولكنني أغار!
- لا أحد يسعدني كما تفعل ، ولا أحد يحزنني كما تفعل!
- أنا لك وحدك ، كن لي وحدي!
- عندما تضربني أنتَ لا تؤذيني ، أنتَ تكسرني!

الحمد لله أنها تنسى!

قد تتفق معي أن النسيان نعمة . . بغض النظر عن سياقه في هذا الكتاب . . وفي هذا الحديث تحديدًا ، إلا أنه بالتأكيد أحد أهم نعم خالق هذا الكون التي لا نحصي لها عددًا ، تخيل لو لم يكن بوسعنا النسيان!

تخيل أن الذاكرة التي تُبدي رحمتها بنا أحيانًا وتُعفينا من بعض تفاصيل ما سبق وعشناه دافنة إياه تحت ثرى الحديث المتجدد ، تخيل لو كانت قاسية حد سرد كل شيء دون أن تغفل أو تكل؟

هل ستبقى علاقات في هذا الكون إلا انتقضت عراها تحت وطأة الأخطاء ، أو حتى الملل؟

نعم الملل . . فبفضل نسيان لذة اللحظة نشعر بالشوق لبعضنا ، لنعيد لحظاتنا من جديد كأننا نتذكر ما نسيناه ، ونحتاج إلى المرور بما سبق أن مررنا به وغيّبته ذاكرتنا المؤقتة ، لننعش مشاعرنا وذاكرياتنا في آن معًا!

أما الأخطاء فلا حاجة بي لأن أشرح لك فداحة ما قد تفعله بعلاقاتنا في حال توقدها في الذاكرة ، لا سيما تحت وطأة بشريتنا الخالصة ، المبنية على الخطأ الدائم والمتكرر مهما بلغنا من الندم والاعتذار!

وليست علاقتنا بالآخرين وحدها من تهتز في غياب النسيان بل حتى علاقتنا بأنفسنا ، فلا يمكن أن تبقى الروح قطعة واحدة وسكين الذاكرة يعمل على تمزيق تماسكها ، وكلنا نعلم أن الحياة لا تمضي بنا في طريق محفوف بالسلام والفرح ، وأننا جميعًا لا بد أن نحمل ما نناضل لأجل نسيانه!

لكن نعمة النسيان التي أحاول دفعك إلى الشعور بها هنا ليست بشيءٍ مما سبق

إنه النسيان الذي نتفق غالبًا على تسميته جحودًا ، أو نكرانًا للجميل . . وفي رواية «تكفير العشير»!

يكاد يصلني صوت اعتراضك على وضع هذا في قائمة النِعم . . ولكن عليكَ التحلي بالصبر حتى نصل إلى نقطة النهاية!

بداية دعني آخذك في جولة صغيرة في ربوع الأندلس حيث كان المعتمد بن عبّاد يتجول متنزهًا مع شاعره ابن عمار في مرج الفضة – أحد متنزهات أشبيلية المطلة على نهر الوادي الكبير– فيباغته مرتجلًا بيتًا من الشعر يقول فيه : «صنع الريح من ماء الزَّرد» ثم يصمت منتظرًا أن يُكمل رفيقه عجز البيت ، إلا إنَّ بديهة ابن عمار قد خانته وتلكأت في إسعافه ، فسكت طويلاً ولم يأتِ بشطر البيت ، وصادف أن كانت بقربهما امرأة تغسل الملابس في النهر ، فقالت : «أيُّ درع لقتال لو جمد» . فانتبه المعتمد لمصدر الصوت ، ليقع في حيرة من قلبه ، أيهما أخذ بتلابيبه أولاً قريحتها الشعرية ، أم جمالها الأخّاذ!

ولكنه لم يبقَ طويلًا قيد حيرته ، إذ بادر للسؤال عنها ، فقيل له أنها جارية ل «رميك بن حجاج» واسمها اعتماد ، فذهب إلى صاحبها «رميك بن حجاج» واشتراها منه ثم تزوجها ، وعُرِفَت بعد ذلك بلقب اعتماد الرميكية ، وكانت أقرب زوجات المعتمد إليه .
بل وقد كان لقب المعتمد بالأصل هو «المُؤَيَّد بالله» ، لكن بعد زواجه من الرميكية غيَّر لقبه إلى المعتمد على الله تيمُّناً باسمها .

كان المعتمد يُغدق الكثير من الأموال لإرضاء رغبات الرميكية ، ومن أشهر قصصه لإرضائها يومٌ أرادت فيه أن تسير على الطين ، فأمر المعتمد بأن يُسحَق لها الطيب وتُغَطَّى به كل ساحة القصر ، ثم تُصَبُّ الغرابيل ، ويُصَبُّ ماء الورد عليهما ، وقد عُجِنَ ذلك بالمسك والعنبر حتى أصبح كالطين ، فسارت عليه الرميكية مع جواريها . وذات يوم بعد هذه الحادثة اختلفت معه وغضبت ، فقالت له : «والله ما رأيتُ منك خيراً قط!» ، فقال لها : «ولا يوم الطين!» ، فخجلت منه واعتذرت!

هنا تنتهي جولتنا لنصل إلى النقطة ذاتها التي توقفنا عندها من قبل : نسيان المرأة . . وتحديدًا نسيانها للمعروف!

قد تتصور أن المسألة كلها تكمن في قلة التقدير منها لك . . وهذا حق لا ينكره عليك أحد . . ولكن لو تأملنا في الأمر لوجدنا أنها أيضًا ستنسى السيئات مع الحسنات في هذا الموقف ، أي أنها وإن أنكرت منك معروفًا بتآمر من الذاكرة مع الغضب ، فقد نسيت لك زلّة بالمقابل بتآمر من الذاكرة مع الحب ، وهذا يكفّر ذاك من وجهة نظر عادلة!

وهناك جانب آخر للموضوع قد لا تنتبه له كذلك هو كون المرأة بطبيعتها تحتاج إلى تذكير دائم بأهميتها لديك ، تلك الحاجة إلى تجديد عهود الولاء التي سبق وأشرتُ إليها في حديث سابق ، إنها تحتاج بشكل دوري إلى أن تُشعرها بأولويتها لديك ، ولن تكفيها تلك المرة التي تركت فيها وقت راحتك أو تخليت فيها عن الخروج مع أصدقائك ، لأجل أن تصطحبها إلى السوق ، لأنها قررت بعد تفكير أن القطعة التي رأتها في الواجهة وهي في طريق العودة هي أفضل من تلك التي اشترتها بالفعل!

ستحتاج إلى أن تذكرها من جديد أن موسم التنزيلات يستحق منك أن تفرغ لها مساحة من وقتك ومن جيبك أيضًا ، لأنك بذلك تثبت لها أهميتها من خلال اهتمامك باهتماماتها . . ولو كنتَ في قمة لا مبالاتك!

وقد يكون موقفك النبيل مع أهلها في أزمتهم الأخيرة دليلًا كافيًا في نظرك على أنك تعتبرها جزءاً مهمًا من حياتك وأنك أثبت لها أنها العين التي من أجلها تكرم عيون أخرى ، لكنه بالنسبة لها يظل موقفًا قابلًا للتكرار ، بل وبحاجة للتكرار كلما مرّ عليه الحول ، إنه زكاة ارتباطكما ، لا يكفي أن يكون مرة بل يجب أن يتكرر حتى يرسخ فلا يستطيع أعتى نسيان أن يقتلعه!

إنها دائمًا تقارن تصرفاتك بمشاعرك ، تزنها في ميزانها الخاص ، لتستنتج تلك المعادلة الرهيبة التي غالباً ما يكون ناتجها : لم أرَ منك

جــمــيلًا قط! والتي في الغــالــب يكون مــعناها : أريد أن أرى ذلك الجميل الذي رأيته منك دائمًا!

«أومنْ يُنَشَّأُ فِي الحلية وهو في الخصام غير مبين»

هذا الاختزال العظيم للمعنى في جملة قد يوضح لك بعض القصد . . إنها غالبًا لا تعني ما تقوله حرفيًا ، ربما يخونها التعبير ، وربما يخونها القصد الخفي ، فإن قالت لك صراحة : أريد المزيد ، ولا يكفي ما أعطيتني لرأيتَ أنها لا تشبع ولا تقنع ولا يرضيها شيء ، وقد يكون أرضاها لدرجة أنها أحبّت أن تعيشه أكثر فقط ، وقد تكون غضبت حد النسيان ، وقد تكون بحاجة لبعض الدلال والشعور بالأهمية ، أو لعل الأمر أيسر من كل هذا ، لعل كل ما تحتاجه هو تذكير بعتب يشبه عتب المعتمد في قوله : «ولا يوم الطين» . . «فذكّر إن الذكرى تنفع المؤمنين»!

ومن بين الاحتمالات الواردة جدًا في هذا السياق أنها لم تنسَ لك موقفك النبيل الذي كان لك معها ، أو حتى مواقفكَ ، ولكنها نسيت امتنانها لهذا الموقف ، أو زال أثره الذي كان في لحظة وقوعه ، لعلها عوامل التعرية الشعورية التي يتركها مرور الأيام ، أو الشهور ، أو السنوات ، أو حتى المواقف المزعجة التي تلت ذلك الموقف ، فلا تجعل حقك المهضوم يدفعك لليأس من الحصول على التقدير الذي ترى أنك أهلٌ له ، فصنائع المعروف حتمًا لا تضيع حتى وإن لم تجدها في المكان الذي وضعتها فيه .

ومن الجميل أن لا تأخذ الكلام على محمله السيئ أو الجاد دائمًا ، فالكلام حمّال أوجه ، وفي اللغة متسع للبحث عن المقاصد الحسنة حتى وإن لاحت السيئة في الواجهة ، وإن لم يكن من باب إصلاح نيتك فليكن من باب إبقاء الود ، وترميم الجسور ، وعدم قطع الروابط .

ومن طريف ما جاء في هذا المعنى أن امرأة قالت لزوجها : والله ما رأيتُ منكَ خيرًا!

فقالت ضرّتها : والله ما رأيتُ خيرًا منكَ!

فمدحته الثانية بذات العبارة التي ذمّته بها الأولى!

أرأيتَ أن الأمر أوسع من زاوية أخرى . . ماذا لو جربتَ أن تغير الجهة التي تنظر منها فقط؟

مرة واحدة لا تكفي!

كما تكرر أخطاءك . . كرر إحسانك

إنها كما تغفر وتنسى ، قد تأخذ وتنسى

كما يتسع القلب لك بعد كل خطأ

ليتسع قلبك لها أيضًا بعد كل نسيان

ولتحرص على تذكيرها إن نسيت . . إما قولًا أو عملًا .

«نساؤكم حرث لكم» !

السبب وراء هذا المبدأ هو الحقيقة التالية بلا كناية ولا مواربة :

أغلب المشاكل التي تقع في البيوت تبدأ من غرف النوم!

أعرفُ أن الحديث عن العلاقة الجنسية موضوع حساس ، والأشياء الحساسة لا يجب تركها بحجة أنها حساسة ، على العكس إن حساسيتها تفرض عدم تركها! ولو كان من الواجب ترك الحديث عنه ، وإدراك أهميته في حياة الناس ، وفهمه ، والإحاطة بأبعاده وآلياته لما وجدنا القرآن الكريم يحدثنا عنه ، والنبي صلى الله عليه وسلم يذكره في أحاديثه!

فالإسلام العظيم دين الوسطية والاعتدال ، الذي يهتم بالروح دون أن يهمل الجسد ، ويدعو إلى الجنة دون أن يهمل حياة الناس على الأرض! فلم يكبت الغرائز ويحاربها ، كذلك بالمقابل لم يطلق لها العنان لتتحكم بمصير الإنسان وحياته! فالإسلام نهى عن الرهبانية وعدم الزواج ، وبالمقابل نهى عن الزنا والسِّفاح ، إنه يريد للإنسان أن يُشبع غريزة الجنس الكامنة فيه ولكن من طرقها الحلال التي تضمن سعادة الإنسان ورضى الله سبحانه معاً! لهذا إن المتأمل في طريقة الإسلام في التعاطي مع الجنس يجدها قمة في الواقعية دون تضخيم ولا تقزيم! فلم يتعاط معه على أنه الحياة كلها كما صوره لنا سيغموند فرويد ، ولم يهمله كأنه لا يمتّ إلى الحياة بِصلِة كما هو حال الرهبان في أديرة روما!

ولأن الموضوع حساس كما سبق ، والأشياء الحساسة لا بد لها من ضوابط أكثر حرصاً مما في غيرها ، أعتقدُ أنه للحديث عن الموضوع لا بد أن تتحقق ثلاثة شروط :

١- أن تكون اللغة حيية وأديبة وخلوقة لا تهدف للإثارة وإنما تخاطب عقل الإنسان لا غريزته ، وهذا هو أدب القرآن ، فحين حدثنا الله سبحانه عن قصة يوسف عليه السلام وزليخة امرأة العزيز قال : «وراودته التي هو في بيتها عن نفسه»!

بهذا الحياء اللغوي الذي يفهمه الجميع ، ويترك صورة ذهنية في عقولهم كما حدث دون الإيغال في التفاصيل ، وإلا فإن الله يعلم ما حدث بالضبط ، يعلم أي ملابس ارتدت ، وأي عطر وضعت ، وبأي زينة تزينت ، ولكننا نحن نجهل هذا ، لأنها تفاصيل لن تضيف إلى القصة شيئاً ، أراد ربنا أن يخبرنا أن الحدث الذي يثير الغريزة يمكن الحديث عنه بلغة لا تثيرها ، لهذا ونحن نقرأ سورة يوسف نتخيل الموقف ولا نشعر به!

٢- الفئة المستهدفة من الخطاب! ألا ترى أننا لا نُعلِّمُ الطلاب في المدارس عملية القسمة في الصف الأول الابتدائي ، لأن عليهم أن يتعلموا الطرح والضرب أولاً! كذلك لا نعلمهم غزل عمر ابن أبي ربيعة لأن هناك نمو نفسي وعاطفي يجب أن يحققوه أولاً! إننا في المدارس نعلم المفاهيم والقيم بعد أن نعرف أن لديهم استعداداً عقلياً ونفسياً لها وإلا كان الحديث كزرع القمح في البحر ، عناء بلا نتيجة

وتلويث للبحر ليس إلا! فإن كان الحديث عن الجنس ضرورياً ، والثقافة الجنسية مطلب ، فهذا لا يعني عدم معرفة الفئة المستهدفة من هذا الحديث وهذه الثقافة!

٣- الهدف من الحديث! فلا شك أن لكل حديث هدفاً وغاية ، فنحن لا نتحدث رغبة في أن نتحدث ، دوماً هناك فكرة نريد إيصالها ، فإن كانت اللغة حيية أديبة ، والفئة المستهدفة ناضجة واعية فيها الاستعداد والنمو النفسي والعقلي ، والهدف تثقيف وإرشاد لا إثارة غرائز ، كان الحديث مقبولاً بل مطلوباً ، وأي خلل في هذه الشروط يجعل الحديث مضراً كأن تعطي مريض الضغط دواءً للسكري!

وبلغة حيية أديبة ، ولفئة مثقفة واعية ، وبهدف نبيل نبدأ القصة التالية :

أتتْ امرأةٌ إلى عمر بن الخطاب وقالت له : يا أمير المؤمنين إن زوجي يصوم النهار ، ويقوم الليل ، وأنا أكره أن أشكوه إليك وهو يقوم بطاعة الله عزَّ وجل!

فقال لها : جزاكِ الله خيراً من مُثنية على زوجها

فجعلتْ تُكرر عليه القول ، ويكرر عليها الجواب!

وكان كعبٌ بن سور الأسدي حاضراً ، فقال : اقضِ بينها وبين زوجها يا أمير المؤمنين!

فقال عمر : وهل فيما ذكرتْ قضاء؟!

فقال : إنها تشكو مباعدة زوجها لها عن فراشه وتطلب حقها في ذلك

فقال له عمر : أما أنك قد فهمتَ ذلك فاقضِ بينهما

فقال كعب : عليّ بزوجها

فلما حضر بين يديه ، قال له : إن امرأتك هذه تشكوك!

فقال : هل قصرتُ في نفقتها؟

قال : لا

فقالت المرأة شِعراً :

يا أيها القاضي الحكيم رشدُهُ

ألهى خليلي عن فراشي مسجدُه

نهارُهُ وليلُه ما يرقدُه

زهَّده في مضجعي تعبده

فاقضِ القضا يا كعب لا تُردِّدُه!

فقال زوجها يجيبها :

زهَّدني في فراشها وفي الحَجَل

أني امرؤٌ أذهلني ما قد نزل

في سورة النمل وفي السبع الطِول

وفي كتاب الله تخويف جلل

فقال كعبٌ له :

إنَّ لها حقاً عليك يا رجل

تصيبها في أربع لمن عقل
قضية من ربنا عَزَّ وجل
فأعطها ذاك ودع عنك العِلل
إن خير القاضي من عدل
وقضى بالحق جهراً وفصل

ثم قال : إن الله تعالى قد أباح لك من النساء أربعاً ، فلكَ ثلاثة أيامٍ ولياليها تعبد فيها ربك ، ولها يوم وليلة!

فقال عمر : واللهِ لا أدري من أي أمرَيْكَ أعجبُ؟ من فهمك أمرهما ، أم من حكمك بينهما؟ اذهب فقد وليتك قضاء البصرة!

لعلَّ القصة تبدو لك اجتماعية شيقة ، تُروى في مجالس الرجال على سبيل الدعابة ، ولكن في الحقيقة هي أعمق من هذا بكثير ، وعندما نقرأها مرة ثانية وثالثة ، ونحاول أن نستخرج العِبر والفوائد منها فسنكتشف أن الحديث حول ثرائها يطول ، إنها غنية جداً بما تحتويه ، غنية لدرجة يمكن أن أقول بجرأة أني استطعتُ أن أستخلص منها عشرة دروس تُغني عن كثير من المحاضرات في هذا المجال!

فإليك ما خرجتُ به من دروس بعد تأمل وتدبر بها :

١ - الدرس الأول:

أحـيـانـاً امـتـنـاع الزوجـة أو الزوج عن الجنس بحـاجـة إلى لـفت نظر ، صحيح أن الجنس غريزة كامنة فينا ، ولكنها غريزة متفاوتة بين الناس وإن وُجدت في الجميع ، فالناس مثلاً لا يحبـون المال بنفس الدرجـة ، والشـهـرة غـريزة بشـرية ولكـن البـعض يسـعى لهـا سـعـيـاً محموماً والبعض لا يلقي لها بالاً كثيراً ، من الناس من ينظر إلى الطعـام على أنه شيء ثانوي وأي شيء وقع أمـامـه أكله والسـلام ، ومن الناس من يولونه أهمية كبرى ويتفننون في أصنافه ولا يرضيهم اليسير والعادي منه ، وكذلك الأمر بالنسبة إلى الجنس ، فإنه في الحـالات الطبيعيـة غير المَرضيَّة موجود فينا كغريزة ولكن درجة إلحاحها والسعي لإشباعها تختلف من شخص إلى آخر ، والمشاكل تحدث إذا تفاوت الزوجان بكمية طلبه والحاجة إليه! وأول علاج لهذه المشكلة لفت نظر الشريك إلى الأمر ، يلفتُ الزوج نظر زوجته أن عليها أن تولي الموضوع اهتماماً أكبر ، وكذلك تفعل الزوجة ولا حـرج ، على أن يكون الأسلوب من كليـهـمـا غـيـر جـارح وبهـدف استمرار الزواج صحيحاً معافى . وقد لا تجدي هذه المحاولة أحياناً فيبقى التقصير من الزوج أو الزوجة سائداً ، فلا بأس بمعاودة الكرَّة ، قبل اللجوء إلى من نثق بهم من الأقارب ، كأن يُحدِّث الزوج أخته المتزوجة عما يلاقيه من تقصير لتقوم هي بالحديث مع زوجته امرأةً لامرأة ، وهي بإمكانها أيضاً أن تلجأ لأخته أو أمه فهما شخصان موثوقان وهما ستر وغطاء ، والذي حدث في القصة كان لفت نظر ، فزوج المرأة كان يعتقدُ أنه يفعل الصواب ، إلى أن جاء كعب ووضع

له النقاط على الحروف وأخبره أن الدين الذي يقول أنه أشغله عن حق زوجته في العلاقة الزوجية لا يرضى هذا الانكفاء على الذات ، والانقطاع للعبادة على حساب مشاعر زوجته وحاجاتها ، فالجنس ليس حالة ثانوية ، إنه حاجة أساسية ملحاحة وإن تفاوتت بين شخص وآخر!

٢- الدرس الثاني:

لغة الشكوى يجب أن تكون حيية ، فيها شيء من الخجل ، وكثير من مراعاة مشاعر الشريك وإن كان مقصراً ، ولاحظ أدب المرأة في هذه القصة ، فقد عمدتْ إلى الكناية ، وليست كناية عادية ، وإنما كناية موغلة في الرمزية إلى الحد الذي فات على العبقري عمر أن ينتبه إليها ، حتى أخبره كعب الأسدي أن المرأة تشكو زوجها!

فهي لم تأتِ إلى عمر لتقول له زوجي لا يعطيني حقي من الجنس ، أو لتقول أنا امرأة لي حاجة وزوجي لا يكفيني إياها ، وإنما قالت أنه صوام في النهار قوام في الليل حتى ظن عمر أنها تمدح زوجها ، ولكن عندما يسَّرَ الله كعب فهِم كنايتها ، وأخبر عمر بمرادها طلب منه أن يكون حكماً بينهما!

أسلوب طلب الأشياء يحدد إلى حد بعيد إجابة الآخرين لنا أو رفضهم ، وبما أن هذه الأمور حساسة ، تتعلقُ بذكورة الرجل وكرامته ، وأنوثة المرأة وكرامتها ، كان لزاماً الحرص على عدم الأذية في الكلام!

وهناك فرق شاسع بين أن تأتي الزوجة إلى زوجها لتقول له :

أين أنتَ من الرجال ، ألستَ رجلاً فعلاً ، لماذا لا تعطيني حاجتي من الجنس ، وبين أن تقول له أنا أفتقدك بجانبي ، كنا قديماً ننام مع بعضنا أكثر ، وكان هذا شيء يسعدني كثيراً ، أنا أريدك أكثر لنكون سعداء أكثر! لاحظ هي نفس الحاجة وهو نفس الطلب ، ولكن قارن بين الأسلوب الأول والأسلوب الثاني!

وهناك فرق شاسع بين أن يأتي الزوج إلى زوجته ليقول : أين أنتِ من النساء؟! ألستِ امرأة مثلهن ، لماذا لا تعطيني كفايتي من الجنس ، وبين أن يقول لها أنا أحبكِ كثيراً ولكني أفتقدك في السرير ، أنا لا أريد امرأة غيرك لهذا أريد أن أشبع منك ، أنتِ التي اخترتها رفيقة للعمر ، أريد قربك أكثر ، هي نفس الحاجة أيضاً ونفس الطلب ، ولكن قارن بين الأسلوب الأول والأسلوب الثاني!

نحن نريد أن نرتق الرقعة لا أن نوسعها ، ونريدُ أن نصلح الأشياء لا أن نزيد في إفسادها ، ونطلبُ قرباً أكثر ولا نبغي بُعداً وهجراناً أطول! ألا ترى ما يفعله المسعفون إذا تعرض أحد لكدمة ، إنهم يضعون عليها كيساً من الثلج ، لأن هذا يحد من تورمها وازرقاقها ويمنع نزيفها الداخلي ، فكونوا مسعفين لا جلادين!

٣- الدرس الثالث:

انهماك الإنسان بشيء لا يبيح له أن يهمل حاجة شريكه ، مسموح أحياناً أن ننهمك على حساب صحتنا نحن ، وعلى حساب حقنا في الإجازات والرفاهية ، ولكن من غير المسموح أن ننهمك على حساب شريك العمر!

إن صاحبنا في القصة انهمك في العبادة ، وهي أمر نبيل فعلاً ، وسعي الإنسان للقرب من الله ، والعمل للآخرة هو سعي مشكور محمود ، ولكنه لم يكن محموداً على إطلاقه لأن فيه أذى للزوجة ، وإن كان كعب قد قضى في حضرة عمر أن الانهماك في العبادة لا يبرر له إهمال حاجة زوجته الجنسية ، فمن باب أولى أن الانهماك في أي شيء آخر لا يبرره أيضاً!

متطلبات الأُسرة كثيرة ، وربة المنزل تكد وتشقى وتجاهد ، وهي مشكورة مأجورة على هذا ، ولكن لماذا على الزوج أن يكون آخر مهامها ، لماذا عليها أن تظلمه وتظلم نفسها وتخاطر باستقرار بيتها لتهتم بالطبخ والكنس والمسح من شروق الشمس حتى لحظة نومها ، لا أحد يطلق زوجته لأنها لم تنظف الصحون ، أو لأنها لم تمسح الأرض حتى تبدو كالمرآة ، ولكن كثير من الرجال طلقوا زوجاتهم بسبب الجنس! صحيح أن نظافة البيت وترتيبه والاهتمام بالأولاد مطلب ، ولكن ليس على حساب الزوج ، إن الأطباق إذا بقيت في المجلى حتى الصباح لن تغضب لأنها ليستْ من لحم ودم ، زوجكِ هو الذي من لحم ودم ، وغرفة النوم أهم من المطبخ وغرفة الجلوس!

الأعمال شاقة هذه الأيام ، وقد يضطر أحدنا أن يعمل بوظيفتين ، أو أن يحضر عمله معه إلى البيت ، هذا لا شيء فيه ، كل إنسان وله ظروفه ، ولكن ليس على حساب إنسانة من دم ولحم! من حق عملك عليك لا بل من واجبك أن تنهمك بعملك ، أو أن تخرج مع أصدقائك ، أو أن تمارس هواياتك ، ولكن من واجبك أيضاً أن تنظر في حاجة زوجتك ، عدم رغبتك بشيء لا يعني عدم

رغبتها هي فيه أيضاً ، وقد ظهر جلياً من القصة هذا الأمر ، فبدا لنا أن الزوج ليس له في الأمر حاجة ، ولكن كان للزوجة حاجة مُلحة جعلتها تخرج من بيتها إلى مجلس الخليفة بعد أن نفد صبرها وأعيتها حاجتها!

٤- الدرس الرابع:

الشكوى لمن نثق بعقله ، والبيوت أسرار ، وحفظ سر الزوجة هو واجب على الزوج ، تماماً كما أن حفظ سر الزوج هو واجب على الزوجة ، لهذا يجب أن لا تكون الشكوى إمعاناً في الفضيحة ، وإفشاء الأسرار ، وفتح بيوتنا لمن هبَّ ودبَّ!

فتح هذه الأمور على سبيل الفضفضة ليس من المروءة في شيء ، إنه من قلة الأدب وسوء العِشرة!

ففي حال الحرمان الذي سعينا جاهدين لتلافيه ، ولم يبقَ إلا الشكوى علينا أن نعرف إلى من نتحدث ، إن الشخص الذي لا يملك حلاً وعقلاً لمشكلتك في أحسن الأمور لن يغير منها شيئاً ، وفي أسوئِها سيفضحك! لتصبح سيرة البيت على كل لسان ، ويصبح الزوجان حديث مجالس الناس الذين يستعذبون الخوض في هذه الأمور كأنهم وقعوا على كنز مدفون!

إن المرأة في القصة لم تأتِ إلى مجلس عمر إلا لأنها تعرف عقله وحكمته وستره قبل كل شيء ، جاءت وكلها إيمان أنه سيحل مشكلتها وإن لم يحلها فلن يفضحها ، وهذا الذي كان لقد قام الفاروق بمساعدة كعب بحل مشكلتها!

إن اختيار الشخص الذي نشركه في مشاكلنا هذه وأسرار بيوتنا له أكبر دور في حل هذه المشكلة أو تعقيدها ، إننا حين نجمع مساعدة لمريض يحتاج إلى عملية جراحية لا نذهب إلى أفقر رجل في المسجد وإن كان يصلي فيه الصلوات الخمس ، لأن عبادته لا تحل المشكلة ، وإنما نذهب إلى تاجر أو ثري أو من نعرف أن عنده فضل مال وسابقة في الخير وإن كان لا يحضر إلى المسجد إلا يوم الجمعة! وهذه كتلك ، نحن عندنا معرفة سابقة بالناس ، شاهدناهم في بيوتهم ، وشاهدناهم يتعاملون مع الناس ، وشاهدناهم يحلون المشاكل ، أو العكس شاهدناهم يعقدونها ، أو ليس لهم رغبة بشغل بالهم بمشاكل الناس ، لهذا علينا أن نختار من نعتقد أنه الأجدر بحل هذه المشكلة ، إننا حين نمرض نسأل معارفنا من منكم يعرف طبيب عظام ماهر ، لا نذهب إلى أي طبيب ، نريد الأكفأ والأمهر والذي له سمعة جيدة ، واستطاع بإذن الله شفاء مرضاه ، وكذلك البيوت تمرض كما يمرض الناس ، فأحسنوا اختيار أطبائكم!

٥- الدرس الخامس:

يجب أن نتقبل لفت النظر من قبل شريك العمر ، أو من شخص يحاول أن يدخل بيننا بهدف رأب الصدع سواء كان هذا الصدع بخصوص العلاقة الجنسية أو بشأن موضوع آخر ، ولا نعتبر الموضوع له علاقة بالنيل منا أو إذلالنا ، على العكس يجب أن نستشعر أنها رغبة من الطرف الآخر بالتمسك بنا ، الذين لا يريدوننا يستغلون تقصيرنا ليشرعوا في أمر فراقنا ، ولا يلجأون إلى

القريب والبعيد لإصلاح ما حدث بيننا وبينهم!

في شأن الحياة عامة ، وفي شأن البيوت خاصة ، من أحضر حكماً ليعيدك إليه فهو يحبك ، انظرْ إلى الأمر من هذه الزاوية ، نظرتنا للأمور هي التي تحدد حكمنا عليها ، إذا نظرتَ لأمرٍ كهذا بعين أن زوجتي تريد أن تفضحني ، أو زوجي يريدُ أن ينال مني ، فالأمور ستتفاقم ، وأنا لا أقول أن ننظر لها نظرة معاكسة لحفظ البيوت ، بل لأنها فعلاً يجب النظر إليها نظرة معاكسة! نظرة المتمسك بك لا المتخلي عنك ، الساعي لإصلاح ما حدث بينك وبينه لا الساعي إلى توسيع دائرة الخلاف!

ومما يُحسب لبطل قصتنا أنه تصرف وفق هذا الأساس ، وراعى هذا الضابط ، صحيح أنه دافع عن نفسه ، وأبان وجهة نظره ، ولكنه كان نبيلاً فعلاً ، وقد تجلى نبله فيما يلي :

- لم يعتبر أن زوجته أرادت أن تفضحه
- لم يُسكتها وهي تدلي برأيها وتدافع عن وجهة نظرها
- لم يرفض فكرة وجود حكم بينهما
- لم يتحسس أن الحكم كان في صالح زوجته
- لم يعترض على الحكم الذي أدانه
- والأهم من هذا كله ، لا نلمس أن هذا الموقف سيؤثر على سير حياته الزوجية بالسوء ، أو أنه سيسعى للانتقام منها من باب أنت شكوتني إلى الخليفة فستدفعين ثمن فعلتك ، على العكس تماماً كان وقافاً عند الحق ولم يكن فاجراً في الخصومة!

٦- الدرس السادس:

تخيل مدى الألم الذي لحق بالزوجة من خلال إهمال زوجها لها في السرير ، إن الأمر يغدو أحياناً أكبر من حاجة جنسية تُقضى ، وإن كانت على أعلى قدر من الأهمية ، ليصبح له بعد نفسي ، وأراه في هذه القصة شعور الرفض ، تخيل شعور هذه المرأة وهي تشعر أنها غير مرغوبة!

إن عزوف الشريك عن الجنس أحياناً يشعرك بالنقص في نفسك ، فأنتَ هنا لا تنظر إلى تقصيره فقط وإنما تنظر إلى نفسك بعين المتهم لها ، فتقول المرأة ما بي أنا حتى يهملني هذا الإهمال ولا يطيق مقاربتي ، ما الذي ينقصني ، ومما تشكو أنوثتي؟!

وكذلك عزوف المرأة عن الجنس لا يجعل الرجل ينظر إليها على أنها مقصرة في حقه فقط ، وإنما تمر عليه لحظات يسأل نفسه : هل الخطب عندي ، ما الذي ينقصني؟! لا شعور أقسى على إنسان من أن يعرف أنه ليس جيداً بما يكفي ، أو أنه غير مرغوب!

العلاقة الجنسية وإن كانت علاقة جسدية بحتة في ظاهرها إلا أنها في الحقيقة هي في باطنها أعمق من هذا معنى وأبعد أثراً ، إن البشر ليسوا قططاً لا تعمل هرمونات الجنس عندهم إلا في شهر شباط لهدف التكاثر ، إن البشر يمارسون الجنس تفريغاً لطاقة جسدية وإشباعاً لغريزة كامنة فيهم هذا صحيح ولكنهم أيضاً يمارسونه كنوع من التعبير عن الحب والرغبة في الطرف الآخر ، ولأجل تمتين العلاقة معه ، وبحثاً عن الأمان وإرضاء الشريك ، والشعور الذاتي بأنه على ما يرام!

كل هذه الأشياء المتداخلة تجعل العلاقة الجنسية في حياة الناس غاية في التعقيد لا في البساطة التي تبدو عليها في ظاهرها!

لهذا إن من واجب الزوج والزوجة أن يُشعر أحدهما الآخر أنه كافٍ له ويسد حاجته ويُشبع غريزته ، لا أن يشعره بالتقصير وعدم الكفاية بعدم الإقبال عليه! هذا البعد النفسي علينا أن ننتبه له ونراعيه ، علينا أن نفهم أن الأمر أكبر من تفريغ حاجة ، وإنفاذ شهوة ، وإشباع غريزة ، الأمر يمسُ الكرامة ، والإحساس بالوجود والقيمة والنظرة الراضية إلى الذات ، فانتبهوا!

٧- الدرس السابع:

انظرْ لفقه عمر وعقله ، قلنا لقد غاب عنه بداية فهم مراد الزوجة من كلامها لأنها كانت موغلة في كنايتها ، حيية في مفرداتها ، ولكنه بعد أن فهم مقصودها وعرف حاجتها ، لم ينهرها وهو الحازم الشديد في الحق ، على العكس تماماً هذا الخليفة الصلب ، هازم الامبراطوريات ، الذي لا يهابه أعداؤه فحسب ، وإنما يهابه الشيطان أيضاً بحيث أنه لو رآه يسلك طريقاً لهرب منه إلى طريق آخر ، هذا الشخص الموغل في القوة والصلابة كان إنساناً بإمتياز ، فاهماً لحاجات الناس ، خبيراً في طباعهم ، دارياً بأمور النفس الإنسانية محنكاً فيها تماماً كما كان في السياسة والعسكر وإدارة الدولة المترامية الأطراف!

فهو لم ينهر المرأة ويقول : أبلغتْ بك الوقاحة أن تأتي إليَّ في أمر علاقة جنسية بينك وبين زوجكِ!

ولم يقل لها : يا لكِ من امرأة وقحة تطلبين من الخليفة أن يأمر زوجك أن يلتفت لك في شأن الفراش!

ولم يقل لها : يا لقلة أدبك ، كوني أديبة حيية واتركي حاجتك في قلبك وموتي من حزنك وكمدك بعيداً عن الناس!

العكس من هذا هو الذي حدث ، فبعد أن وعى الشكوى وفهمها ، طلب من كعب أن يحكم بينها وبين زوجها في حضرته ، وعندما أُعجب بقضاء كعب ولاه قضاء البصرة لأنه أعجبه أن يفهم القاضي في شأن البيوت ، ونوازع النفس البشرية لا أن يفهم في الزكاة والميراث والخصومات المادية فقط! إن توليَته لكعب قضاء البصرة دليل صريح منه ، واعتراف قاطع بحق المرأة في الجنس ، وحقها في الشكوى من عدم الحصول عليه!

هذه الحقيقة يجب أن لا تغيب عن بالنا ونحن نتعاطى في شأن بيوتنا ، أو ونحن نتعاطى في شأن بيوت الناس!

إن الرجل الذي يشكو عدم حصوله على المقدار الكافي من الجنس ليس رجلاً تحكمه الغريزة ، ويؤثر متعته على راحة زوجته ، إنه إنسان طبيعي يطالب بحقه الطبيعي الذي أعطاه الله إياه ، وطالب حقه لا يُلام ، لهذا علينا أن ننظر إلى الشاكي من هذا الأمر نظرة بشرية صرفة ، لا نظرة مثالية ملائكية ، بحيث نتهمه في أخلاقه ، وننعته بقلة الأدب!

والأمر سيان بشأن المرأة ، فالمرأة التي تشكو عدم حصولها على المقدار الكافي من الجنس ليست امرأة شهوانية ، ولا أن تفكيرها منصب على غرائزها ، إنها فقط إنسان ، لها حاجة وحق ، وهي لم

تطلب أكثر من إشباع حاجتها والحصول على حقها ، إن الإنسان الذي يطلب الطعام ليس إنساناً أصابه الفجع ، إنه إنسان أصابه الجوع ويريد أن يسد هذه الحاجة ، ويشبع هذه الغريزة ، والجنس كالطعام وقد يصبح جوعاً لا يسده إلا الحصول عليه ، أما إلقاء اللوم فهو لوم لئيم في غير موضعه ، وجهل فاضح في تركيب النفس البشرية التي فطرها الله على هذه الحاجة والرغبة!

٨- الدرس الثامن:

مشاكل البيوت ليست أحاديث فارغة علينا أن ننأى بأنفسنا عنها إن استطعنا إصلاحها ، الأسرة قوام المجتمع ، وأساسه ، ولبنته الأولى ، فالمجتمع الإنساني هو عبارة عن أُسرة بجانب أُسرة ، وإن إهمال أمر الأسرة هو في الحقيقة إهمال للمجتمع كله ، فإن فسدت البيوت فسد المجتمع!

لهذا السبب جعل الله تعالى إصلاح ذات البين عبادة يُثاب المرء عليها ، وطلب في القرآن الكريم منا إدخال العقلاء من العائلتين في أمر خلاف قد نشب بين الزوجين ، إن الإسلام العظيم يسعى دوماً إلى إصلاح الأشياء التي تفسد لا إلى تحطيمها ، وهو عندما يأمر بتحكيم أهل الزوجة والزوج فهو إخبار لنا أن صلاح المجتمع مكفول بصلاح الأسرة ، وفساده بسبب فسادها!

لذلك علينا أن لا نزهد في أمر الإصلاح بين الأزواج والزوجات حين تقع المشاكل بينهم ، وتحدث الجفوة ، سواء بسبب العلاقة الجنسية ، أو بسبب شيء آخر ، ولو كان يحق لأحد أن يزهد في

شأن إصلاح البيوت لكان عمر بن الخطاب ، فإن رعيته بالملايين ، وجيوشه منتشرة في أصقاع الأرض ، وأعداؤه يتربصون به على حدود دولته وهو معهم في سجال وكر وفر ، ولكنه على هذا لم يقل للمرأة إن لدي من المشاكل ما يغنيني عن النظر في مشكلتك الشخصية ، وأني لو جلستُ لأحل أمر علاقتك الزوجية بزوجك لضاعت أمور الناس! على العكس تماماً لقد تعامل مع المشكلة بجدة بالغة ، عيّن للقضية قاضياً ، وجلس ينظر ما الذي ستؤول إليه الأمور ، ولم تقر عينه إلا بعد أن تم حل القضية حلاً عادلاً ينصف الزوجة ويحقق مطلبها ويعطيها حقها!

٩- الدرس التاسع:

القصص التي نقرأها ونسمعها ليست بهدف المتعة والتسلية فقط ، وإن كانت القصص ممتعة ومسلية فعلاً كما يجدها الناس ، ولكن في الحقيقة إن لها هدفاً أسمى ، وغاية أنبل من إمتاع الناس وتسليتهم ألا وهي تقديم النصح والإرشاد والعظة والدرس في قالب قصصي شيق يكفل عناء الوعظ المباشر ، والإرشاد الصحيح الذي لا يكون مرغوباً عند كثير من الناس!

إن ثلث القرآن تقريباً هو مادة قصصية ، ولكن القرآن أرفع شأناً من أن يكون كتاباً للمتعة والتسلية ، وإنما هو دستور حياة متكامل ، وما كانت القصص في ثناياه إلا للحكمة والعظة والعبرة!

فمن قصة إبراهيم عليه السلام نتعلم التوحيد الخالص الذي أُلقي لأجله إبراهيم عليه السلام في النار!

ومن قصة يوسف عليه السلام نتعلم العفة والشرف والتضحية!

ومن قصة أيوب عليه السلام نتعلم أن الدنيا دار ابتلاء وأن الإنسان مطالب بالصبر على قضاء الله وقدره ، تماماً كما هو مطالب بالشكر والحمد على نعمه سبحانه!

ومن قصة عُزير نتعلم قدرة الله على البعث والإحياء!

ومن قصة نوح عليه السلام نتعلم أن الدعوة إلى الله طريق شاق وعر وليست رفاهية كما يحسبها الناس!

ومن قصة موسى عليه السلام نتعلم كيف تأتي معية الله ونصرته في اللحظات الحاسمة!

ومن قصة مريم عليها السلام نتعلم قدرة الله المطلقة وأمره الكامن بين الكاف والنون فإذا قال للشيء كُنْ كان!

ومن قصة أصحاب الكهف نتعلم أن الدين أغلى من الأهل والوطن ، وأن الفرار به عمل جبار استحق تخليده في القرآن!

ومن قصة ابنتي شعيب مع موسى عليهما السلام نتعلم أهمية الشهامة من تصرف موسى ، وأهمية الحياء والعفة من تصرف ابنة شعيب!

ومن قصة صاحب الجنتين في سورة الكهف نتعلم أن الكفران وعدم شكر النعم هو السبب الأول لزوالها!

هذا القرآن مدرسة ، وقريباً منه قصص الجدات ، والحكماء والرواة ، هناك دائماً عبرة وعظة ودرس ، وإن الدروس التي تقرأها الآن تخبرك أن القصص ليست فقط للمتعة والتسلية والسمر!

حدثتني جدتي رحمها الله عن امرأة ضاقتْ ذرعاً بزوجها

وأرادت أن تتطلق منه ، فجاءت إلى شيخ البلدة ، وقالت له : أريدك أن تطلقني من زوجي

فقال لها : ولِمَ؟

– إن الحياة معه لا تُطاق

– ولماذا لا تطاق؟

– إنه يفعل كذا وكذا

– حسناً سأطلقكِ منه بشرط واحد

– وما هو؟

– أن تحضري لي شعرة من شارب الأسد

– من شارب الأسد يا مولانا ، أنت تريد أن تقتلني لا أن تطلقني من زوجي!

– هذا شرطي الوحيد

– حسناً لك هذا

ذهبت المرأة إلى السوق واشترت خروفاً ، وذهبت به إلى الغابة ، وعلى مسافة بعيدة من عرين الأسد ربطته وتنحت جانباً ، فقام الأسد إلى الخروف فأكله!

وفي اليوم التالي ذهبت إلى السوق واشترت خروفاً آخر ، واقتربت هذه المرة من عرين الأسد أكثر ، وربطت الخروف وابتعدت قليلاً ، فقام الأسد إلى الخروف فأكله!

وفي اليوم الثالث ذهبت إلى السوق واشترت خروفاً جديداً ، وهي عازمة أن تحصل على شعرة من شارب الأسد هذه المرة ،

فاقتربت من عرين الأسد مسافة متر واحد ، وربطت الخروف ووقفت تنتظر ، فنهض الأسد وأكل الخروف كما كان يفعل كل مرة ، وعندما عاد إلى عرينه لينام ، قامت إليه ومسحت على رأسه بحنان ، ولما نام نزعت شعرة من شاربه وعادت بها إلى الشيخ وقالت له : هذه هي الشعرة يا مولانا ، قم الآن بتطليقي من زوجي كما وعدتني!

فقال لها : أليس من العيب أن تروضي أسداً مفترساً وتفشلي في ترويض زوجك وهو إنسان؟!

فقالت له : أخذتُ الأسد بالحنان والصبر!

فقال لها : وهكذا خذي زوجك!

ومن يومها حفظتُ الدرس جيداً :

بالحنان والصبر يمكن ترويض الناس!

١٠- الدرس العاشر:

الفهم الصحيح للدين يجعل الحياة جنة ، والفهم الخاطئ له يجعل الحياة جحيماً! إن معاناة هذه المرأة التي جاءت تشكو إلى عمر بن الخطاب زوجها لم تكن بسبب غياب الدين من حياة زوجها ، على العكس تماماً فالزوج بشهادة زوجته رجل يصوم النهار ويقوم الليل ، وإنما كانت معاناتها بسبب الفهم الناقص لهذا الدين العظيم ، لقد أوغل الزوج بالعناية بروحه إلى الحد الذي أنساه أن لجسده عليه حقاً ، ولجسد زوجته عليه حقاً كذلك!

نفس الأمر حدث في قصة الرجل الذي قتل مئة نفس ، الفهم الخاطئ للدين هو الذي جرَّ الويلات على صاحبه ، فالرجل الذي قتل تسعةً وتسعين نفساً أراد التوبة وقصد عابداً وسأله هل لي من توبة؟ فقال : لا! فقتله وأكمل به المئة! ولكنه بعد ذلك قصد عالماً ، فأخبره أن لا شيء يحول بينه وبين التوبة ، وأعطاه حلاً عملياً بأن يترك أرض السوء التي يعيش فيها ، وهذا الذي حدث!

قد يكون هذا العابد أكثر صلاة وصياماً من العالم ولكنه لا شك ظهر أنه أقل فهماً وعلماً منه ، لهذا لم تشفع له عبادته عن فهمه الناقص والمغلوط لهذا الدين! إن فهمنا للدين أحياناً لا يكون كاملاً وشمولياً ، ولا يلتفت لما أولاه هذا الدين للنفس البشرية من اهتمام ، وما أعطاها إياه من حقوق ، لهذا علينا جميعاً ونحن نتصرف من دافع ديني أن نتأكد أولاً أننا نفهم الدين بشكل صحيح ونتصرف بمقتضاه ، وبرأيي أكبر دليل على الفهم الخاطئ للدين هو كثرة المشاكل الزوجية ، يستحيل أن نتصرف وفق ما شرعه الله وأراده ولا تتحقق السعادة في بيوتنا ، وإن حصل ولم تتحقق فهذا يحصل على نطاق ضيق ، لأن التعامل يحتاج إلى طرفين لا إلى طرف واحد ، ولكن إذا ما التزمَ به الطرفان فلن تضيق الحياة ، وقد تكفل الله لأتباع هذا الدين ، صحيحو العقيدة والفهم والتطبيق ، بالحياة الطيبة!

والآن بعد أن انتهينا من هذه القصة التي جعلناها قاعدة عامة لحالة عدم الإشباع الجنسي فلا يُفهم منها أني أقول أن الخلل والتقصير يأتي من الزوج وأن الزوجة هي المظلومة دائماً ، أبداً لم أقل

هذا ، ولم أعنِه ، ولم أُلمح إليه ، وإنما كما رأيتَ كنتُ دوماً أفترض أن الرجل -أي رجل- قد يكون مكان هذه المرأة ، فناقشتُ الفكرة ولم أناقش من هو المحروم من الإشباع الجنسي تحديداً ، لأن كل ما تحدثنا عنه يصح أن ينطبق على الزوج وعلى الزوجة على حد السواء ، والأذى الذي يحصل للإنسان من عدم حصوله على حقه الكافي من الجنس بالحلال -لأننا نناقش الأمر ضمن علاقة زوجية شرعية لا شأن لنا بما عداه- هو أذى يطال الرجل كما يطال المرأة ، فاقتضى التنويه!

ثم والحقُّ يُقال أن عدد الرجال الذين يشكون أنهم لا يحصلون على المقدار الكافي من الجنس أكبر من عدد الزوجات اللائي يشتكين أنهن لا يحصلن على المقدار الكافي منه ، والسبب برأيي ليس لأن النساء أقل رغبة من الرجال بالجنس وإنما لأن لكل منهما نظرته الخاصة إليه ، في الحقيقة إن الرجل يعنيه عدد المرات التي يحصل فيها على الجنس ، بينما تهتم المرأة أكثر بنوعية الأشياء أكثر من كميتها ، ولعلي أطرحُ رأياً جريئاً إذ أقول أنه بما أن الله سبحانه قد فطر الرجل على التعدد ، أو لنقل قد أباحه له في أقل الاحتمالات فهذا يعني بالضرورة أنه خلق فيه قدرة على القيام بأعباء هذا التعدد عاطفياً وجسدياً ، وحين قصرَ المرأة على الرجل الواحد فهذا يعني أن رغبتها يمكن لرجل واحد إشباعها بينما الرجل يحتاج لعدد مرات أكثر مما تحتاجه المرأة لإشباع هذا الاستعداد الفطري فيه! دعني أقولها بشكل آخر ، هي فيها رغبة إنسان واحد ،

وأنتَ فيك رغبة مضاعفة عن رغبتها ، وهذا هو السبب وراء تذمر الرجال من عدم حصولهم على المقدار الكافي من الجنس ، إنهم يعنون أنهم لا يحصلون على عدد مرات كافية ، بينما ترى المرأة أن الرجل -في الحالات الطبيعية- يطلبه أكثر مما يجب ، والسبب أنها تفترضُ أن عدد المرات التي تكفيها يجب أن تكفيه!

دعنا نكون أكثر صراحة ووضوحاً دون أن نتخلى عن الشروط التي وضعناها لضمان بقاء هذا الموضوع ضمن إطار علمي ، يخاطب العقل وإن كان مضمون الكلام في الغرائز!

الرجل العربي ليس شهوانياً كما تصوره كتب التراث كألف ليلة وليلة ، وقصص كتاب الأغاني ، وما نجده متناثراً في كتب الأخبار والأثر ، في الحقيقة كل الرجال شهوانيون لأنهم رجال وليس لأنهم عرب أو غرب!

لقد ألّفَ «ستيف هارفي» كتاب «فكري كسيدة وتصرفي كرجل» وباع منه ما يقارب خمسة ملايين نسخة وكان فيه جريئاً إلى الحد الذي قال فيه : «نحن الرجال نحب ممارسة الجنس ، وليس على كوكب الأرض شيء رائع مثله ، نريده دائماً وفي كل وقت ، يمكنكِ أن تأخذي منزلنا ، وظيفتنا ، أو أي شيء تريدينه ولكن أرجوكِ لا ترفضي ممارسة الجنس معنا»!

ومعنا طبعاً يتحدث فيها باسم الرجال مع النساء ، وليس المقصود مارسيه مع كل الرجال ، وإنما يريد أن يقول أنتِ زوجتي فلا ترفضي العلاقة معي ، كل شيء عندي قابل للمساومة إلا الجنس!

ولكن بالمقابل عليكَ أن تفهم نفسية المرأة وتركيبها ، فالجنس عندها غير مفصول عن المشاعر ، لهذا هي كلما أحبت الرجل أكثر كلما حاولت إرضاءه في السرير أكثر ، بينما الجنس عند الرجل رغبة لا تحكمها العاطفة بالضرورة ، هذا لا يعني أن الرجل يريد أن يمارس الجنس مع أي امرأة ، هذا يعني أنه يريد حقه ونصيبه منه بغض النظر عن شكل العلاقة بينه وبين زوجته ، إن الأمر عند الرجل مرتبط بإثبات الذات وبالثقة وحتى في حل المشاكل ، فالملاحظ كثيراً أنه عندما تقع مشكلة بين زوجين يحاول الزوج إصلاح الأمر عن طريق الجنس ، ويحدث أن ترفض الزوجة الجنس قبل إصلاح الأمر جاهلة أن هذه هي طريقة الرجال في إصلاح الأمور ، وقد يأتي اعتذارهم بهذه الطريقة ، إن الرجل يعتقد أن الجنس يجبُّ ما قبله من مشاكل ، بينما قد ترفض المرأة لأنها تشعر بغياب الحب ، وتعتقد أنها ستكون رخيصة إن قبلت معه قبل أن يرمم قلبها وخاطرها ، صحيح أن من واجب الرجل أن يفعل هذا ، ولكن من المهم أن تعرف المرأة أن بعض الرجال لا يعرفون طريقة أخرى ، وأن ممارسة الجنس أشبه عندهم بتقديم باقة ورد للاعتذار!

إلى هذا الحد الأمور متباينة بين الرجل والمرأة ، ونظرة كل منهما إليه متفاوتة ، ولما كانت فكرة الكتاب قائمة على وجود اختلاف بين الرجل والمرأة في التفكير والتعبير والإحساس والتفاعل والاهتمام ، وأن العلاقة بينهما لا تنجح إلا بفهم هذا الاختلاف والتصرف على أساسه ليكون لزاماً على المرأة أن تدرك أن الرجل يهتم بالكم والمرأة

تهتم بالكيف! من حق الرجل أن يحصل على كفايته من الجنس ولكن من واجبه أيضاً أن يفهم أن عليه أن يفتح قلب المرأة قبل أن يفتح باب غرفة النوم لها! ومن حق المرأة أن تحصل على كفايتها من الجنس المقرون بالعاطفة ولكن من واجبها أيضاً أن تفهم أن عدد مرات الحصول على الجنس عند الرجال أمر بالغ الأهمية ولا حل سوى أن نفهم تركيبة بعضنا ، نحن مجبورون على هذا لتستمر الحياة سوية!

إن أسوأ شكل قد يصل إليه الجنس أن يكون مبنياً على الحق والواجب ، بمعنى أن هذا حقي عليكِ وهذا واجبكِ ، وهذا حقي عليكَ وهذا واجبكَ ، نحن لسنا حيوانات في موسم التزاوج على الأمور أن تتم الآن وإلا أننا سنتعرض لخطر الانقراض! الجنس وإن كان علاقة جسدية صرفة في ظاهره إلا أنه ليس عملية منزوعة من العاطفة والإحساس!

يتسلحُ كثيرٌ من الرجال بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه ، فأبتْ ، فبات عليها غضباناً لعنتها الملائكة حتى تصبح»!

الحديث صحيح لا شك ، والنبي صادق لا جدال ، وما ينطق عن هوى وإنما هو رجل مؤيد بالوحي ، وصاحب المصدر الثاني من مصادر التشريع ، وما أمر به فقد أذِنَ به الله ، وما نهى عنه هو نهي الله بالأساس ، ليكن هذا الأمر واضحاً قبل أن نتطرق إلى الحديث النبوي الشريف!

قبل الحديث النبوي الشريف هناك آية في القرآن يقول فيها ربنا جلَّ في علاه : «وعاشروهن بالمعروف» والمعروف كلمة فضفاضة يدخل تحتها كل أمر حسن ، فقبل حق الرجل في الجنس من زوجته هناك واجب عليه أن ينظر في حالتها النفسية والجسدية ، قد يأتي ليلة على المرأة تكون فيها منهكة ، أو في حالة نفسية يُرثى لها ، فمن حسن العشرة ، ومن المعروف أن يكون الزوج إنساناً يفكر بعقله وقلبه ، لا آلة جنس لا يفكر إلا بغريزته!

أي متعة جنسية ترتجى من علاقة مع امرأة أنهكها التعب والتكدر والحزن ، إن الأمر أبعد من إفراغ شهوة ، نحن الرجال أيضاً نحب أن تبادلنا النساء هذه الرغبة ، وأن يُقبلن على الأمر مدفوعات برغبتهن بنا لا مجرورات إلى السرير كالسبايا نأخذ منهن ما نريد وعقولهن وقلوبهن في عالم آخر!

صحيح أن المرأة مطالبة أن تغالب نفسها وتصبر وتخفي شيئاً من تعبها ، وهذا هو واجب الرجل أيضاً إن شعر برغبة زوجته فيه ولم يكن هو في المزاج المطلوب ، ولكن علينا أن نتصرف بإنسانية لا بغرائزية ، وأن لا نقبل أن تتحامل المرأة على نفسها لشيء يمكن فعله في الغد بطريقة أفضل فيها الكثير من الحب والرغبة التي لن تكون موجودة في حالة عدم الاستعداد النفسي والجسدي!

إن رفض المرأة للعلاقة وعزوفها عنها ليس سبباً في لعن الملائكة لها وإنما سخط الزوج وغضبه من رفضها هو السبب ،

فالرجل إن طلب منها وأبدتْ له تعبها وعذرها فتفهَّم وواساها أن لا بأس وأن الغد قريب لن تلعنها الملائكة وسينال أجراً لأن صبره وتفهمه هو من العشرة بالمعروف التي أمر الله سبحانه وتعالى بها!

إن حديث نبي الرحمة موجه للنساء وليس سيفاً مسلطاً بيد الرجال على النساء ، إنه يخبرها بواجبها ، وعدم الامتناع دون عذر ولا سبب مقنع ، أما أنتَ عزيزي فالخطاب الذي يعنيك «وعاشروهن بالمعروف» وليس من المعروف في شيء الإصرار عليها بأني أريدك على أي حالٍ كنتِ ولا يهمني وضعك الجسدي أو النفسي!

لو لم يكن الجنس متعة حقيقية لما كان من نعيم أهل الجنة الذي وعد الله سبحانه وتعالى المؤمنين من عباده به ، ولكن ليبقى الجنس متعة حقيقية يحتاج أن نكون بشراً نحن الرجال والنساء على حد السواء ، أن نفهم نحن الرجال طبيعة النساء ، وتفهم النساء طبيعتنا نحن الرجال ، تراعي المرأة الرجل مرة ، ويراعيها مرة وتستمر الحياة ، أما جعل الأمر حقاً وواجباً وإفراغه من مضمونه العاطفي والإنساني بحيث يشبه عمليات التلقيح الحيوانية فلا يقضي على متعة الجنس فحسب ، وإنما يقضي على الحياة الزوجية برمتها ، لأن الحصول على الجنس عنوة ، ومن مقتضى الحق والواجب يوازي سوء عدم الحصول عليه إطلاقاً!

إن العلاقة الزوجية وضع الله تعالى فيها ما يكفل بقاءها ، فقال عزّ من قائل : ﴿وجعل بينكم مودة ورحمة﴾! فعندما تزول المودة ،

وتُنزع الرحمة فهذا يعني أننا نتحمل مسؤولية فشل الزواج ، لأننا أفسدنا الركيزتين اللتين وضعهما لنا ربنا في علاقتنا الزوجية «المودة والرحمة»!

فلنتوادد ونتراحم ، وإن من الود والرحمة أن نفهم حاجات بعضنا البعض ، ونَعذرُ ، ونتفهم ، ونتغاضى ، ونصلح في الغد ما أفسدناه بالأمس ، ونعطي اليوم ما قصرنا به البارحة! وقبل هذا وذاك قاعدتين أساسيتين :

- الرحماء يرحمهم الرحمن
- «وما وضع الرفق في شيء إلا زانه وما نُزع من شيء إلا شانه»

اسعدوا في حياتكم ، خذوا حظكم من الحب والجنس ، «الدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة» كما يقول سيدنا ، «وفي بضع أحدكم صدقة» كما يقول في حديث آخر ، ولكن لا تنسوا أن حُسن الخلق أقصر طريق إلى الجنة ، وأننا ننتمي إلى هناك حيث عاش أبونا آدم وأمنا حواء أول مرة! ولأن الكتاب مخصص للرجال ، أُذكِّر نفسي وقرائي الأعزاء بأنبل ما قاله رجلٌ يوماً :

«استوصوا بالنساء خيراً»!

الفهرس :

ADHAM SHARKAWI

للرِّجال فقط!

كان اللهُ قادراً على أن يخلقَ حواءَ من تُربةٍ منفصلةٍ كما خلقَ آدم ولكنه خلقها من ضلعِه.

أرادَ سبحانه أن يشعرَ آدمُ أن حواءَ قطعةٌ منه ليحميها، وأن تشعرَ حواءُ أن آدمَ أصلُها فتحِنَّ إليه حنين المسافرِ إلى وطنه!

كانتْ هذه طريقة الخالق المُتقنة لضمان الحُبِّ بينهما أبدَ الدَّهر!

ولكنَّ الحُبَّ وحده لا يكفي...

لا بُدَّ للرجلِ أن يفهم كيف تُفكرُ المرأة، وكيف تشعرُ، وكيف تتفاعل..

ولا بُدَّ للمرأةِ أن تفهمَ كيف يُفكرُ الرجل، وكيف يشعرُ، وكيف يتفاعل..

صحيح أن بينهما تشابه سببه أصلُ الخِلقة فكلاهما من جنسٍ واحد، ولكن بينهما اختلاف أكبر سببه أصلُ الخِلقة أيضاً، فكلاهما قد خُلق بطريقة مغايرة عن الآخر، وإدراك هذا الاختلاف، ومراعاته، والنظر إليه على أنه سبب لنتكامل لا لنتناحر ضرورة لحياة سعيدة بين الرجل والمرأة!

وهذا الكتابِ وإن كان موجهاً للرجال بالدرجة الأولى، إلا أنه محاولة لشرح هذا الاختلاف!



www.darkalemat.com

أدهم شرقاوي
للرِّجال فقط!

